

أيا صوفيا

رواية

محمود عرفات

الطبعة الأولى

أيا صوفيا

رواية

محمود عرفات

الطبعة الأولى: مايو ٢٠١١

طنطا بوك هاوس

للنشر والتوزيع

ت: ٠١٠٧٢٤١٨١٣

kelmtna@hotmail.com

مراجعة لغوية وتحرير: أحمد منتصر

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب:

٢٠١١/

إهداء

إلى روح بطل الشرق الذي علمنا
كيف تكون الوطنية والكفاح وقت
الأزمات

إلى منقذ إستانبول ومحرر تركيا وبانيها
في عهدها الجمهوري الحديث
إلى روح الماريشال العظيم

مصطفى كمال أتاتورك

تنويه:

هذه الرواية تضم في غالبها أحداثا وشخصيات حقيقية وفي جانب منها شخصيات أخرى وأحداثا من وحي الخيال فبين أيديكم وصف لملحمة عظيمة سطرها اثنان من كبار الأباطرة في القرون الوسطى (محمد الثاني) و(قسطنطين الحادي عشر) هي سقوط مدينة (كونستانتينوبوليس) أو (القسطنطينية) والتي معها أنتجت أساطير دينية وكتابات أدبية تعد إلى اليوم من أروع وأعظم إبداعات الأدب الأوروبي القديم. وإنني هنا أقدم إسهامي المتواضع لكم راجيا أن يكون العمل ممتعاً للقارئ وكذلك مسلطا الضوء له على ملحمة (كونستانتينوبوليس) العظيمة..

محمود عبد الرحيم عرفات
/ ٣ / ١

٢٠١١

* الفصل الأول : من غرناطة إلى القسطنطينية *

الأندلس، مدينة (غرناطة)، الأول من يناير، العام ١٤٥٢.

تجمعت السحب فوق سماء (غرناطة) في نهاية ليلة بلا قمر تلت نهاراً مغيماً امتلأت سماؤه بسحب كثيفة تحجب الشمس إلا قليلاً من الضوء كأنما أرادت السماء في ذلك اليوم أن تصنع لوحة مخيفة تمثل مصير الأندلس المحتتم في ليل و نهار وفي وسط هذا السكون جلس أحد الأندلسيين بجوار قاربه ومصدر رزقه الذي به ينقل المارين عبر النهر الصغير بين المدينة وما خارجها وكانت أحوال عمله كسواد تلك الليلة كأنما خاف الأندلسيون من عبور النهر في ليلهم الحالك، ووسط سكونه و تبرمه ترامت إلى سمعه خطوات تقترب في بطء و رزانة فنهض الرجل متسائلاً عن يأتي للدخول في تلك الليلة المقبضة وسرعان ما تبين له رجل كبير السن حتى يخيّل له أنه قارب قرنا من الزمان يتقدم إليه

في تودة بوجهه الذي لم يتبينه جيداً لما يحيط به من وشاح شرقي يخفى أغلبه وانتظر الأندلسي في مكانه حتى وصل إليه الرجل وقال بلغة عربية سليمة: (أريد العبور إلى غرناطة الآن).

بدت الفرصة مواتية للأندلسي لتعويض خسارته فقال في خبث:

(ولكن الآن لا يصلح فالقارب لا بد أن يمتلئ و..).
لم يكمل الرجل عبارته فقد قطعتها يد الزائر التي امتدت إليه بقطعة ذهبية لامعة بدت تبرق على الرغم من ظلام الليل الذي لم يبده ضوء المشاعل.
وفي لهفة التقط الأندلسي القطعة وأفسح مجالا للزائر المجهول الذي تقدم إلى نهاية القارب الصغير وجلس في اعتدال وبلا كلمة واحدة بينما صاحب القارب يعبر النهر في سرعة ممنياً نفسه بالمزيد إن أوصله سريعاً وبين دقيقة وأخرى كان الأندلسي يلتفت إلى ذلك الرجل الذي يخفي وجهه وتبدو عليه ملامح الهيبة فلم تكن لغته السابقة بها عيب ولكن بدت وكأنما هي من أرض أخرى غير أرض غرناطة أو حتى أي بقعة عربية باقية من الأندلس.

ولم يكسر أحدهما ذلك الصمت حتى بلغت الرحلة نهايتها والقارب يرسو وصاحبه يمني نفسه بالمزيد ولم ينهض الزائر من مجلسه وهو يتأمل أضواء (غرناطة) التي مع

بريقها لا تكاد توازي بريق المشاعل من حيث أتى وطال
الصمت حتى تنحنح الأندلسي وقال:
(وصلنا إلى غرناطة هل من شيء آخر؟).
التفت إليه راكبه الوحيد وقال بلغته السليمة:
(هل تعرف أين يحيا (جولياث بن نون)؟).
أجابه الرجل:

(اليهودي؟.. نعم أعرفه هل تود الذهاب إليه؟).
لم يجب الزائر بل مَدَّ يده له بقطعة أخرى كادت تطير
عقل الأندلسي الذي سارع باقتياده عبر شوارع ممهدة
بقطع حجرية مبسوطة وحدائق اشتهرت بها غرناطة
تتخللها المشاعل الزيتية من كل جانب.

وطويلا سارا والأندلسي مندهش من قدرة هذا الهرم
على السير تلك المسافة بلا كلل ولا راحة وفي النهاية
توقفا أمام بيت تبدو عليه ملامح الثراء فأشار إليه الزائر
بلا كلمة بشكل دفع المزيد من الرهبة إلى قلب الرجل
فترك المكان وعاد إلى قاربه وهو يهنيء نفسه على هذا
الزائر الذي عوضه انعدام العمل في تلك الليلة الحالكة.

ظل الزائر يتأمل المنزل وينصت إلى ما حوله من أصوات
حتى يتأكد أن لا أحد بالجوار يشعر به وتقدم إلى باب
كبير طرقة عدة مرات قبل أن يسمع صوتا شاباً من
الداخل يسأل عمن يكون فلم يجب واستمر يطرق حتى
فتح الباب وعلى عتبة شاب بدت عليه ملامح الغضب
وهو يقول:

(من أنت ولم لا تجيب؟).

قال الزائر:

(أنت بنيامين؟).

أجابه (بنيامين):

(نعم من أنت وماذا تريد؟).

أجاب الزائر:

(أنا صديق لعمك وجئت في زيارته أخبره أن (يعقوب الزافاتي) أو (يعقوب الناجي) هنا).

بدا الشك على وجه (بنيامين) وهو يغلق الباب ويتقدم للداخل تاركا الرجل على الباب دون أن يبدو على ملامح الأخير أي ضيق من فظاظته محدثه.

وما هي إلا لحظات حتى سمع صوت هرولة تأتي وتتوقف عند الباب الذي انفتح وعلى عتبة رجل متقدم العمر بدت عليه اللفهة وهو يقول:

(سيدي الحاخام؟.. أنت هنا حقا؟؟).

أشار (يعقوب) إلى محدثه الجديد الذي لم يكن إلا (جولياث بن نون) بالصمت ودفعه إلى الداخل مغلقا الباب وراءه قبل أن يزيح الغطاء من على وجهه لتبدو ملامح كبر السن واضحة عليه وإن لم تنعكس على صوته وهو يجيب:

(لا ترفع صوتك يا (جولياث).. أتريد أن يسمعك الجميع؟).

ازدرد الأخير لعابه و(يعقوب) يتقدم عبر الردهة الثرية ويجلس على مقعد وثير في مواجهة الباب كان يبدو أن (جولياث) يجلس عليه حينما جاء وطفق (يعقوب الزافاني) يتأمل ما بالبيت من ملامح الثراء والفخامة وهو يتلقى نظرات (بنيامين) المتشككة في لا مبالاة ولم ينطق (جولياث بن نون) بحرف وهو يجلس على إحدى الطنافس التي تملأ الأرض ويترقب ما سيصدر من ضيفه وراحت عينا الضيف تركزان على صاحب البيت وهو يتأمله وقد بات على وشك حديثٍ خطير.

مرت لحظات طويلة والكل على حالتهم قبل أن يقول (يعقوب):

(لم أسمع منك يا (بن نون) منذ فترة طويلة تربو على السنوات الست، ولولا من تركوا الأندلس ليأتوا إلى أورشليم لما علمت بأخبارك).

بدت ملامح الحزن على وجه (يعقوب) وهو يجيب:

(ليس هناك الكثير، كل ما لدي على وشك الزوال لا أحد سيقبل شراء أي شيء من باقي أرضي أو منزلي فالكل واثقون من تقدم القشتاليين والفرنسيين إلينا وأنهم حتمًا سيستولون على كل شيء كما استولوا على أغلب ما أملك قبلا).

هز (يعقوب) رأسه بهدوء وقال:

(هذا عن المال فماذا عن المنصب؟).

بدت المرارة في صوت (جولياث) وهو يجيب:

(أي مناصب؟.. لقد نفينا من كل شيء منذ مائتي عام حين أتى الموحدون وطردوا كل من لا يدين بدينهم من مناصب الدولة حتى بنو الأحمر باتوا يتبعون سيرة الموحدين هم منهم وبقايا حكمهم وتاريخهم الذي زال هنا وفي بلادهم الأولى من حيث أتوا كم أكره نفسي حينما أراهم يفسدون أرض الأندلس).
 بدت السخرية على صوت (يعقوب) وهو يقول:
 (وهل تحبهم إلى هذه الدرجة؟).
 أجاب (جولياث):

(بل أحب أرضي ومالي الذين سيذهبان كما التراب فور دخول القشتاليين إلى (غرناطة)! إن حكامنا اليوم أغبياء كمؤسس دولتهم الذي تحالف مع القشتاليين وأعطاهم إشبيلية ليخلق نفسه بيده هؤلاء الفاشلون يحكمون الآن وسيدمرون كل شيء فكما تعلم أن النصارى هنا بالغرب أكثر كراهية لنا من الموحدين إنهم سيحرقوننا أحياء لأن دماءنا ملوثة ويجب تطهيرها كما يدعون).
 هز (يعقوب) رأسه موافقا وقال:
 (لقد حدثني بهذا من قابلتهم من اليهود و لكن لماذا لا ترحل؟).

بدت الدهشة على وجه (جولياث) وهو يقول:
 (ولمن أترك مالي هنا؟).
 أشار (يعقوب) إلى (بنيامين) وقال:
 (هذا.. أليس هو بنيامين ابن أخيك (هافر)؟).

ارتسمت ابتسامه حانية على وجه (جولياث) وهو يقول:
(نعم، ولكن لا أستغني عنه أبداً، ولن أرحل بدونه.. إنه
معاوني وابن أخي الراحل وكاتم أسرارى لا غنى عنه
مطلقاً ولو تركته وسقطت غرناطة لقتله النصارى حتماً).

تأمل (يعقوب) (بنيامين) الذي بدا متحفزاً وقال:
(إذن فأبن أخيك يُعتمد عليه!).

لم يُجب (ابن نون) على الفور وإنما فكر للحظات وقال:
(معلمي أنا لم أرك منذ آخر زيارة لي لأورشليم والآن
فجأة تأتي إلى (غرناطة) وتحدثني عن أحوالي وعن
الأندلس؟).

ارتسمت ابتسامه خبيثة على وجه (يعقوب) مجيباً:
(الآن ننقل إلى حديثنا المهم والمصيري لك ولي
و(لبنيامين) ولكل يهود الشرق! ولكن لنبق وحدنا أولاً).
و بعد كلمته هذه نظر نظرة ذات مغزى لـ(بنيامين) الذي
نظر بدوره إلى عمه فأشار إليه الأخير بالانصراف وهبط
(يعقوب) من مقعده إلى الأرض حيث جلس وهو ينظر
في عيني (جولياث) مباشرة قائلاً:

(الآن أحدثك بما لا يجب أن يعلم به أحد سواك أنت وابن
أخيك ولن يراني أحد فسأرحل بعد حديثي معك فلا يجب
أن يُعرف أن زائراً أتى لك يا (جولياث) لقد أتيتك لخطرٍ
يُهدد كل يهود الشرق والغرب أيضاً.. خطر هائل لا يراه
إلا من يقرأ تاريخ المسلمين ويعرف عهد نبيهم إلى
اليوم. أنا في حاجة إليك فاستمع ولا تقاطعني).

ازدرد (جولياث) لعبه بصعوبة وهو ينظر في صمت إلى معلمه العجوز الذي التقط نفساً عميقاً من الهواء بدت معه بعض الآلام على وجهه قبل أن يزفر ويقول: (هذا حديثي إليك هذا مصيرنا وخطرٌ هائلٌ يحيط بنا وببك إنهاؤه أو تحجيمه هناك حيث سيبدأ حتماً عن قريب كما تؤكد كل الشواهد ربما بعد شهور وربما بعد أكثر من عام).

بدا الاهتمام على وجه (جولياث) وسأل: (أين هذا الخطر وما طبيعته؟).

نهض (يعقوب) وسار إلى نافذة قريبة ناظراً إلى الطريق الطويل بالخارج وعيناه تبرقان في نشوة ثم التفت لمضيفه وقال:

(هناك في (كونستانطينوبوليس) كما يسميها البيزنطيون والتي عما قريب ستكون (إستانبول) كما يسميها الأتراك..

ساداتها القادمون).

كونستانتينوبوليس، الثالث من سبتمبر، العام ١٤٥٢.

ساد الصمت في جناح الإمبراطور (أوجست قسطنطين الحادي عشر) ولم يكن أحد خارجه ليشعر بحركة أحياء ظاهرة بالداخل إلا من صوت أوراق كتاب عتيق تصدر أوراقه خفيفا خفيفا لا يكاد يُسمع وهي تنقلب واحدة تلو الأخرى بين يدي قارئها المنهمك فيما تحويه من كتابات قديمة تعود لقرونٍ عدة مضت وراح (قسطنطين الحادي عشر) الإمبراطور البيزنطي يتابع بشغف يليق به كعالم لغات قديمة ما هو مسطور عن الحقبة الهيلينية بالكتاب متأملا ما ترصده الحروف عن تلك الثقافة المنقرضة مثيرة لديه الإعجاب بها والخوف الغريزي الذي بات يرافقه كلما قرأ عن حضارة أو ثقافة فنت أن تلحق بلاده التي باتت تنكمش رويدًا رويدًا بتلك السابقة التي لم يبق منها الا بنايات متهاكة وحروف بلغاتٍ قديمة لا يتحدثها أحد.

كانت الشمس قد باتت في كبد السماء حينما دلف إلى قاعته أحد الحراس ووقف في صمت دون أن ينطق فرفع (قسطنطين) عينيه إليه دون حديث مكتفياً بروية وجهه الممتقع ليعرف ما وراءه فنهض من مقعده وقال: (قد وصلو إذن؟).

أوما الحارس إيجاباً وتراجع للخلف مغادراً بينما شعر الإمبراطور بقبضة باردة تعتصر قلبه وقد أيقن بالخطر على بابه فما هو رسول العثمانيين إليه قد أتى ومعه ما يخشاه رسالة الفناء التي قرأها في كتابات الأقدمين عن البلاد التي اندثرت والحضارات التي فنت والشعوب التي تبدل فيها الدين واللسان، تقدم السلطان خارج جناحه ماراً بجنوده المصطفين لتحيته دون أن يعبا بهم وعيناه ترصدان الوجوه الممتقعة والهمسات المذعورة التي تحوي جملة واحدة تتردد: العثمانيون قادمون.

مع دخول الإمبراطور لقاعة الحكم نهض الكل بيزنطيين ورسل العثمانيين وانحنوا تحية له وهو يسير بتؤدة حتى عرشه وجلس مشيراً لهم بالمثل فجلس الكل إلا رسول بني عثمان الذي تقدم إليه قائلاً:

(يوم طيب أيها الإمبراطور جئت لك من..).

قاطعه (قسطنطين) قائلاً:

(كلنا نعلم من أنتم فقل رسالة سلطانك ولا تضيع وقتنا).

عاد الرسول العثماني ينحني ثم قال:

(السلطان يطلب السلام بيننا وبينكم و يبلغكم برفضنا للحرب والدمار المحتم ويدعو للسلام).
قال (قسطنطين):

(عجباً لحديثك فقد أرسلت له منذ شهور عدة وعرضت عليه السلام والجزية لكنه رفض وأصر على الحرب).
أجاب الرسول:

(ديننا دين السلام أيها الإمبراطور ونحن لا نريد الدم لكن حتمًا فأنتم على علم بأهمية المدينة لنا ورغبة السلطان في الحصول عليها حتى لو اضطررنا لأي فعل).
بدا الغضب على وجه (قسطنطين) وقال:

(أين السلام إذن هل تريدون أخذ مملكتي وتدعون السلام؟).

أشار الرسول بيده معترضًا وقال:

(كلا أيها الإمبراطور إننا لن نأخذ مملكتك بل نطالب فقط بـ(إستانبول) أو (كونستانتينوبوليس) كما تسموها.. ولك حرية الحكم في (ميسترا) ببلاد (موريا) وهي جزء من إمبراطورية بيزنطة لا نطالب به).

صاح الإمبراطور:

(هل جُنْ سلطائك ليأمرني بالرحيل عن عاصمة حكومي وحكم بيزنطة لألف عام (كونستانتينوبوليس) إلى مدينة (ميسترا)؟.. من هو حتى يدعي الحق في العاصمة وكيف يجرو على أن يرسل لي هذا التهديد؟).
ابتسم الرسول العثماني لأول مرة وقال:

(التهديد ليس بلفظ مناسب! بل إننا فقط نعطي لكم الفرصة قبل الحرب ولا تنس أيها الإمبراطور أننا الآن نسيطر على البسفور أو البوسبوروس كما تسموه من جانبيه بقلعتي الروملي والأناضول وأي مساعدة من أوروبا لن تصل).

نهض الإمبراطور من عرشه فنهض الكل سريعاً وتابعوه وهو ينزل إلى حيث الرسول الذي ظل واقفاً ينتظر الرد حتى وقف (قسطنطين) أمامه مباشرة وقال:

(عد لسطانتك وقل له إن تسليم المدينة هو شأن لا سلطان لي عليه ولا لأي بيزنطي أو أحد يحيا بالمدينة ونحن جميعاً اتخذنا قرارنا فمن يموت بإرادته الحرة من أجل حريته لا يموت هباءً).

قال الرسول:

(فكر جيداً يا مولاي فهي الحرب).

أجاب الإمبراطور بصرامة:

(هي الحرب ولا رجعة إلا لو تراجعتم وقبلتم بعرضنا السابق بالجزية السنوية).

لم ينطق الرسول بعدها وتراجع بظهره حتى غادر القاعة ومعه مبعوثو الرسالة الآخرون واتجه موكبهم مغادراً بينما عاد الإمبراطور إلى عرشه صامتا وحاشيته تعود إلى مقاعدها هي الأخرى لا تجرؤ على الحديث بوجوهها الشاحبة وقلوبها المنقبضة وقد أيقنوا أن النهاية بدت

وشبكة وساد الصمت طويلا حتى قطعه رجل عظيم
الهيئة من الحاشية قال موجهاً كلامه للإمبراطور:
(إذن فهي الحرب يا مولاي؟).

التقط (قسطنطين) نفساً عميقاً من الهواء وأجاب:
(نعم يا (لوكاس) هي الحرب التي نجبر عليها دون رغبة
منا).

نهض (لوكاس نوتراس) الوزير الأول والدوق الأكبر في
إمبراطورية بيزنطة ووقف قبالة الإمبراطور قائلاً:
(لقد تسرعت في رفضك يا مولاي كان يجب أن نماطل
قليلاً حتى نجد الحل دون اللجوء للحرب).

سأله الإمبراطور:

(أيها الدوق العزيز! هل لديك حل ثالث هنا؟ إما الحرب
أو التنازل عن جوهرة بيزنطة لهم فهل تقبل بالرحيل
كالجناء؟).

قال (لوكاس):

(كلا أيها الإمبراطور لكن التعجل بهذا الرفض ليس
بصواب وكان يمكن أن يأجل لشهور تالية نستعد فيها
للدفاع و..).

قاطعته الإمبراطور:

(هل السلطان (محمد) غر ساذج لتتطلي عليه تلك اللعبة؟
لقد أعد العدة للهجوم قبل أن يرسل هذا الرسول وكان لا
يريد إلا الرحيل أو الدم وأي تأجيل ما كان ليقبله بل كان
ليعتبره أشد من الرفض).

قال (لوكاس) معقبًا:
 (الآن قد رفضنا فما العمل؟).
 قلب (قسطنطين) كفيه في ضيق وقال:
 (لا حل إلا ما استعد له السلطان (محمد) منذ أن أنشأ
 قلعة الروملي لا حل إلا أن نطلب العون من أوروبا).
 انتفض جسد (لوكاس) وقال بصوت هادر:
 (ماذا؟.. كلا بالطبع لقد قتلها أيها الإمبراطور وسأكررها
 أنا أفضل أن أرى عمامة المسلمين بدلا من قبعات
 الكاثوليك في (كونستانتينوبوليس)).
 اشتعل الإمبراطور غضبًا وقال:
 (كيف تتجرأ وتتحدث معي بهذا الشكل أجننت؟).
 تراجع (لوكاس) في حدته وقال:
 (أنا لا أقصد قطعًا أيها الإمبراطور لكن كنيسة الروم
 الكاثوليك وكنيستنا انفصلتا وتبادلنا طرد مبعوثيهما منذ
 أربعة قرون ولن يقبل البابا بدعمنا ولن تقبل إمارات
 أوروبا بهذا).
 هز الإمبراطور رأسه بقوة ورد:
 (بل سيقبلوا بعد تنازلات منا يا (لوكاس) فخطر
 العثمانيين يطولهم كما يطولنا).
 بدت الصدمة على الوزير الأكبر وهو يقول:
 (تنازلات من كنيستنا لكنيستهم حتمًا).
 أوماً (قسطنطين) برأسه إيجابًا فسرى الهمس بين
 الحاشية ولم يقطعه إلا (لوكاس) الذي قال:

(وإن لم تغزنا قوات العثمانيين تغزونا قوات برابرة أوروبا كما حدث في أول حملاتهم على الشرق وتسبقها قبعات الكاردينالات).

لم يجب الإمبراطور على السؤال الذي لا يعرف له إجابة ونهض من على العرش وسار مغادراً إلى جناحه حيث جلس قبالة نافذة كبيرة متأملاً من الأعلى مدينته العزيزة (كونستانتينوبوليس) وهي تموج بالبشر بينما قلبه يخفق وهو يستعيد ما قرأه منذ قليل عن نهاية حقبة الهيلينيين وكيف زالت فهل تلقى مدينته نفس المصير بيد المسلمين أو كنيسة أوروبا؟ هل تنتهي بيزنطة بسيف أوروبي أو مسلم ويكون هو آخر الأباطرة؟ هل من الخطأ أن يستعين بالروم الكاثوليك الطامعين في مدينته أم لا وما الحل الذي يذهب إليه بعد أن أدارت له الدنيا ظهرها؟ هل يقدر لتلك المدينة الهادئة أن تكتوي بالنار بعد طول هدوء وأن تعلوها عمائم لا تنتمي لها؟.. هل؟؟

مدينة كونستانتينوبوليس / كاتدرائية آيا صوفيا المقدسة / السابع من
سبتمبر / العام ١٤٥٢ .

كان الأب (يوساتس) يشعر بالحيرة الممزوجة بالدهشة وهو جالس قبالة فتاة فاتنة لها شعر ذهبي طويل وعينان بلون أوراق الشجر في فصل الربيع بهما حزن لا حدود له ترتدي السواد كاملا وتمسك في يدها اليمنى ورقة وباليسرى صليباً أسود تقبض عليه بقوة كأنما يحمل مصيرها كله، بدا الضجر يتسلل إليه لطول السكوت فتحنج وقال:

(هل أنتِ واثقة من قرارك يا (صوفيا)؟).
هزت الفتاة رأسها بالإيجاب دون أن تنطق فعاد (يوساتس) يكمل:
(المال كله؟).

للمرة الثانية أومأت وأعطته الورقة التي تمسكها فقراً ما بها سريعاً ثم رفع عينيه إليها وحيرته تتضاعف وتسالت إليه بعض الشفقة مما دفعه لأن يعيد لها الورقة قائلاً:
(كلا لا يمكن أن أسمح بهذا أنتِ شابة و..).
تحدثت (صوفيا) للمرة الأولى قائلة:

(كلا أيها الأب هذا ليس من حقك أنا أُمْنَح الكنيسة كل المال الذي منحه لي أبي قبل موته وأهب نفسي لخدمة الرب إلى يوم مماتي).

ازداد إشفاق الأب عليها وقد أدرك أن موت أبيها وخطيبها هو سبب قرارها الغريب هذا فأجابها:

(لا تجعلي استشهاد أبيك وخطيبك سبباً لتركك الدنيا فأنت جميلة وشابة تستحق أن تحيا، ولا أرى من العدل قبول طلبك هذا).

مسحت (صوفيا) دموعها المنسابة على خديها الورديين وقالت:

(ليس هذا هو السبب وحده فالمدينة في خطر وقد سمعت أن رسل المسلمين قد أتوا وأنذروا الإمبراطور بالحرب وبالتأكيد بيزنطة في حاجة لكل قطعة ذهب للدفاع عن نفسها).

قال (يوساتس):

(فلتبرعي بنصفه.. لكن كله والرهينة؟؟).

أجابته:

(لقد مات أبي وخطيبني وهما يدافعان عن البلاد ضد المسلمين في الهجوم الأخير الذي لم ينجح على تلك القلعة التي انتهوا من بنائها منذ أيام ولست أقل منهما وذلك المال أبخس من حياة أبي التي قدمها دفاعاً عن البلاد وأنا أقل روحاً من (ياروس) المتعبد الذي حمل السيف لأول مرة من أجل الرب، أيها الأب (يوساتس) أنا

أهب نفسي للرب وعليك القبول إما غير هذا فليس من
حقك فذلك المال دفاعاً عن المسيحية ولو عرضته على
الدوق الأكبر فسيوافق دون نقاش لكنني أعطيه لك
لتنفقه على التجهيز بنفسك فأنا لا أثق إلا بك فلا تدفعني
إلى (لوكاس)).

تنهد (يوساتس) وقد تبين له إصرارها وشعر بأن الفتاة
على حق خاصة في هذه الظروف التي تستدعي جمع
المال بقدر الإمكان مع تنامي أخبار رسل السلطان
وطبول الحرب التي تم تأكيدها فلم يملك إلا أن قال:
(سأخذ ذلك الصك منك وهذا شيء أقدر عليه، لكن مسألة
رهبتك لا تتم هكذا سريعاً فلا بد من أن تخضعي هنا في
(أيا صوفيا) لعدة اختبارات لتدركي طبيعة حياة الراهبات
أولاً ثم نحدد إذا ما كنتي ستكملين سلك الرهبة أم لا).
ناولته (صوفيا) صك المال والأموال وهي تشعر بأن عبأ
ثقيلاً قد انزاح من على قلبها وعقلها، ومسحت قطرات
الدمع التي سالت منها ثانية قبل أن تسأل الأب:
(كيف ستتصرف في هذا المال؟).

أجابها (يوساتس):

(الآن سأحتفظ به حتى تشترك الكنيسة قريباً في التجهيز
فأرسله للبطريرك وثقي أن جهدك هذا مشكور و سيكون
عوناً لنا في مواجهة الخطر).
نظرت (صوفيا) إلى ما يحيط بها من بنيان (أيا صوفيا)
وقالت:

(المكان هنا يحتاج لترميم وإصلاح كبيرين وكنت أفضل أن يكون جزءاً من المال مخصص لهذا).
قال (يوساتس):

(ليس الآن فكل قطعة ذهب ستكون للدفاع عن المدينة فهذه هي أولويتنا الكبرى).

نهضت (صوفيا) و قالت:

(غداً سأتي لأقيم هنا حتى تأذنوا لي بالرهبة وأطلب منك أن تعينني على هذا أيها الأب).

غادرت (صوفيا) الكاتدرائية المقدسة وسارت الهوينى في الطرقات وهي تتأمل ما صار من خوف وقلق بعد مجيء رسل السلطان، هؤلاء الذين يبتاعون الطعام ويخزنونه خوفاً من الحصار والفقراء الذين يتسولون والكنائس التي تتلى فيها الصلوات طلباً لعون الرب حتى الحقائق كانت خاوية خافتة لا يوجد بها من اعتاد الجلوس فيها فالكل خائف مترقب لا أحد يرضى بالرحيل إلا حين يجد الموت قريباً وحتى يرحل يحيا في قلق بلا توقف.

لقد كان أبوها يحدثها عن هذا قبل أن يغادر ومعه (ياروس) للهجوم الأخير على الحصن العثماني الجديد لعلهم يمنعون إنشاءه فينقذون بلادهم من خطر الحصار ولم تتمالك (صوفيا) عينيها وسقطت منها الدموع وهي تتذكر كيف كان (ياروس) سعيداً وهو يتحدث عن الهجوم الذي سيمنع الحصار المحتمل وهديته لها قبل أن يغادر

ذلك الصليب الأسود الذي لا يفارق يدها أبداً وحين عادت
القوة المغيرة عادت بدون الكثير من الرجال ومنهم أباهما
وخطيبها، كم هي بشعة تلك الحرب التي يتحدث عنها
الناس وكم هي رديئة تلك المطاعم الدنيوية التي تدفع
الإنسان لقتل إنسان مثله لكي يحوز أرضاً لا تخصه هكذا
كانت تحدث (صوفيا) نفسها في الطريق الطويل من (آيا
صوفيا) إلى بيتها الكبير الخاوي الذي لا يضم من أحبت
بعد أن رحلوا واحداً تلو الآخر من الوباء والحرب لتدلف
إليه والخدم يهرعون إليها وهي تسير إلى حيث غرفتها
وتستلقي في آخر أيامها بالبيت استعداداً لحياتها الجديدة
هناك..
في (آيا صوفيا).

مدينة أدرنة عاصمة الدولة العثمانية، قصر السلطان (محمد

الثاني)، الخامس من سبتمبر العام ١٤٥٢.

كانت الشمس قد وصلت إلى منتصف السماء حين سار الشيخ (آق شمس الدين بن حمزة) في الردهة الطويلة التي تنتهي بجناح السلطان الكبير (محمد الثاني) وحين اقترب من الجناح ورآه الحرس أفسحوا له الطريق دون استئذان كما أمرهم السلطان من قبل حين يأتي شيخه ومربيه الجليل، وألقى الشيخ السلام عليهم ثم أكمل مسيره حتى غرفة الصلاة التي خصصها السلطان ليصلي فيها حين يكون بجناحه ووقف الشيخ ملتقطاً أنفاسه بعد السير الطويل داخل القصر وطرق باب الحجرة وانتظر حتى فُتح الباب وظهر السلطان على عتبه وأفسح الطريق احتراماً لشيخه الذي رباه وأشرف على تعليمه بينما الشيخ يمر قائلاً:

(كعادتك يا (محمد) لا تتوقف عن الصلاة حتى بت تصلي مائة ركعة بخلاف الفريضة كل يوم).

قال السلطان:

(حمدًا لله يا أستاذي على ما منحه لي الله).

جلس الشيخ (شمس الدين) والسلطان يجلس قبالة في صمت فابتسم الشيخ وقال:

(إن الله قد منح المسلمين رجلا يقاتل في سبيله لا تنتابه حماقة الغرور ولا يسرف ويحمد الله على ما يهبه له، يقوم بفرائض الله ويزيد عنها فحق أن يصير هو نعم الأمير في زمنه، هل تذكر يا (محمد) البشارة التي دأبت على روايتها لك؟).

أوما السلطان برأسه وقال:

(نعم بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح (إستانبول) والثناء على أمير الفتح وجنده بقوله عنها: لتفتحن، فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش).

قال الشيخ:

(منذ بدايتك الأولى في الحكم وأنت بعد صبي صغير رأيت فيك فاتح (إستانبول) يا (محمد) واليوم تكتمل رؤيتي فقد علمت من القائد (زاجانوس) أن الإمبراطور البيزنطي رفض المغادرة).

وعلى الرغم من دور الشيخ الحاسم ونفوذه إلا أن السلطان شعر بالضيق إذ لم يستسغ أن تكون أخبار الرسل تصل إلى كل البلاط العثماني وأن يتحدث بها باشاوات الجيش أنفسهم فهذا لا يبشر بالخير أن يتحدثوا بلا تحفظ، من جانبه شعر الشيخ بما في السلطان فقال: (تضايقت أيها السلطان لأنني عرفت، هذا ما كنت أخشاه ألا تعتبرني من المخصوصين).

قال السلطان فوراً:

(كلا يا شيخ (شمس)! لكنني لا أحب أن يكون قادة جيشي هاوين للثروة متحدثين في خارج البلاط بما نقوله بداخله هذا شيء يحدث ويضايقتني دوماً أن الخبر ربما يصل لك قبل أن يصل لي لا شيء إلا أن الحديث هواية عندهم).

اكتفى الشيخ بالابتسام دون تعليق وخرج من هذا الحديث بقوله:

(لقد رأيت أن آتي إليك وأصحبك لمجلسك الكبير فحاشيتك تنتظر هناك وبها كبار قادة الجيش كما أمرتهم).

لم يغفل السلطان الانتباه إلى رغبة الشيخ في إنهاء الحديث فلم يطل السلطان البقاء أكثر من هذا وغادر بصحبة أستاذه إلى حيث القاعة الكبيرة التي امتلأت برجال السياسة والحرب وعلت فيها الأصوات واختلطت والكل يتداول رد الإمبراطور (قسطنطين) حتى إذا ما أعلن عن مجيء السلطان ساد الصمت ونهض الحضور باحترام والسلطان يتقدم مع أستاذه حتى جلسا فجلس الكل صامتين مترقبين قول السلطان في الأمر، تأمل السلطان الوجوه المحيطة به مستشفا منها ما يعمل بداخلها لم يفته تحفز (خليل باشا) الصدر الأعظم وتبرم القائد الشاب العربي (يحيى) الذي أتى منذ زمن مع شيخه (شمس الدين) من الشام وترافق في تربيته

وتدريبه مع السلطان حتى باتا قريبين من بعضهما أكثر من كونهما قائداً وأحد ضباطه وتابع الترقب على وجه القائد (زاجانوس) والحماس البادي على قائد البحرية (سليمان بالدوغلو) كل هذا استشفه بذكائه الفطري ووضعه في اعتباره وهو يفتتح الحديث قائلاً:
(كلكم علمتم برد الإمبراطور (قسطنطين) على رسالتي له، فما رأيكم؟).

بدأ القائد (بالدوغلو) الحديث قائلاً:
(لقد اختار دمار مدينته وخرابها وليس بعد قوله هذا إلا الحرب).

أضاف القائد (زاجانوس):
(إما نحن أو هو وقد علمنا أنه لا يملك من القوات إلا أقل القليل ولا أمل لديه في نجدة أوروبية بسبب قلعتنا الروملي وقلعة الأناضول التي بناها السلطان الراحل (بايزيد)، هذا لو تناسوا خلافاتهم المذهبية الكنسية والسياسية وساعدوهم).

ظهرت الأصوات مؤيدة لهذا الرأي وبان الاستحسان لولا أن نهض الصدر الأعظم (خليل باشا) وقال:
(ربما أتفق معكم لكن لي اعتراضات على سير الأمور هنا).

بدأ الضيق الشديد على وجه السلطان بينما علامات التساؤل على وجوه الحاشية والصدر الأعظم يكمل:

(منذ البداية و كل شيء يخالف ما اعتدنا عليه
فالإمبراطور عرض دفع الجزية لكننا رفضنا وهذا
مخالف للإسلام الذي يأمر بالدعوة للإسلام أو الجزية أو
الحرب وهو وافق على الجزية ونحن رفضناها).
نهض (يحيى بن بركة) وقال:
(أنا أيضاً أتفق مع الصدر الأعظم فنحن تلقينا عرض
السلام ورفضناه، وهذا يجربنا لحرب لا داع لها).
صاح (زاجانوس):
(ما هذا الكلام؟ إنها (إستانبول) وهذه شئون حرب لا
شئون دين).
التفت إليه (يحيى) وقال:
(ما سار عليه المسلمون منذ عهد الجزيرة نسير عليه
اليوم نحن لسنا غزاة برايرة بل فاتحين).
نهض (بالدوغلو) من مكانه وقال:
(يبدو أننا سنسير يوماً لدفع الجزية لو ظللت معنا).
احمرّ وجه (يحيى) غضباً وقال:
(هذه إهانة لا أقبلها يا قائد البحر، فأري ليس بالكامل
مع الباشا لكن وجهة نظره جيدة وتستحق التقدير).
همّ (بالدوغلو) بالرد لولا أن نهض السلطان (محمد)
بحركة مفاجئة وصاح فيهم:
(كفى! هل جننتم لتصيحوا هكذا في حضرتي؟ لم يتبق إلا
أن تتقاتلوا بالسيوف).

شحبت وجوه الحضور وعادوا إلى أماكنهم وهم وقوف منتظرين جلوس السلطان الذي أكمل:
 (من يقول أنه لا يقبل سياستي في التعامل مع (قسطنطين) يعارضني وأعتبره خائنا ومن يتحجج برغبة الإمبراطور في دفع الجزية فهو ساذج وعليه أن يراجع الخرائط ليرى كيف تقسم بيزنطة مملكتنا وتشكل خطرًا فادحًا علينا فمع أول تحالف أوروبي - بيزنطي ضدنا سيفصلون بين أدرنة وآسيا ويحصرونا هنا ويبعدون قواتنا عنا.. لهذا إسقاط (إستانبول) ضرورة حتى لو ابتعدنا عن بلاد موريا فهذا لن يضعفنا لكن أن تظل تلك المدينة ومحيطها غير إسلاميين فهذا هو الخطر).
 قال (خليل) باشا:

(ليس هذا هو خيارنا الوحيد ففي كل الحالات هناك حرب حتمًا ضد أوروبا وبدلاً من أن نتسبب في توحيد صفوف أتباع الكنيستين الشرقية والغربية في آسيا وأوروبا فلنستغل خصومتهم ونصالح البيزنطيين بالرضا بدفع الجزية لنا وعدم الهجوم على (إستانبول) ليكونوا معنا في قتال لاحق ضد الروم الكاثوليك).
 نظر إليه السلطان بغضب وقال:

(تنسى حدود دورك دومًا أيها الصدر الأعظم! أنا السلطان وأنا فقط من يحدد ما نفعل وما هي تحالفاتنا).
 زَمَ (خليل) شفّتيه متبرماً بينما عاد السلطان يجلس ومعه الحاشية وهو يقول:

(القرار تم اتخاذه منذ اليوم الأول لرفض (قسطنطين) إخلاء المدينة فلم يعد هناك إلا الحرب والموت وليس هذا برأيي بل رأي العدو أيضًا فلقد علمت من عيوننا صباح اليوم بـ(إستانبول) أن رسلا قد انطلقوا للبابا (نيكولاس) بالفاتيكان في روما وحتماً سيكون السبب الوحيد هو طلب العون من أوروبا عبر بوابة الكاردينال الأكبر فالتفكير في النكوص عن الحرب بعد كل هذا لا قيمة له ولا معنى).

تبادل جناحا الحاشية القلق من الهجوم والنظرات ثم تنح (يحيى) وقال:

(معنى هذا الخبر أننا سنواجه قوة كبيرة في (إستانبول) ستشمل قوات أوروبية ومجموع البيزنطيين معهم وربما لا يملك البيزنطيون شيئاً حقيقياً لكن إمدادات أوروبا لن تكون هينة).

أجاب السلطان:

(لا أحد يعرف لكن حتماً قبل المعركة سنكون على علم بكامل قواهم وسنرى من فينا أكبر وأقوى من الآخر ولا تنسوا أن قلعتي الروملي والأناضول تتحكما في مضيق البسفور وأي مساعدة أوروبية لا بد أن نرصدها وهي تعبر المضيق فتهاجمها سفن الأسطول العثماني ولا تسمح بوصولها لـ(إستانبول)).

كان الأمر يبدو محسوماً فلم يعد الحضور في حاجة لنصيحة ليصمتوا فسكتوا بينما راح السلطان (محمد

الثاني) يراجع مع (سليمان) و(زاجانوس) استعدادات الجيش للحصار ثم الهجوم ويراجع مع (يحيى) تحصينات القلعتين ومدافعهما الحربية وحين وصلوا لتلك النقطة تنحج (زاجانوس) ليلفت الأنظار إليه قبل أن يقول:

(بخصوص نقطة المدافع فهناك اقتراح جدير بالانتباه).
التفت الكل إليه متسائلين فأكمل:

(منذ أيام وصل إلينا مهندس مجري ألماني الأصل يسمى (أوربان) اجتمعنا به كلنا وقدم لنا عرضاً مهماً لبناء مدافع قوية ستحقق لنا هدفنا حين نضرب (إستانبول) ووصفها بأنها قادرة على تحطيم أسوار بابل نفسها).
بدا الاهتمام على وجه السلطان بينما التقط (يحيى) طرف الحديث مكملًا:

(المدفع تقدر ضرباته بقوة تكفي لتحطيم أسوار (إستانبول) حسب وصف (أوربان) وقادر على إطلاق قذائف وزن كل واحدة منها ألف وثلاثمائة رطل بينما المدفع نفسه زنته تجعل ستين زوجاً من الثيران ومئات الرجال فقط قادرين على تحريكه هذا بخلاف وعده لنا ببناء مدافع أخرى يمكن تركيبها على أبراج القلاع لوزنها المنخفض).

ازداد اهتمام السلطان وقال:
(حسنٌ جداً فلنتفق معه الآن ونمده بما يطلب قبل أن يلتقطه البيزنطيون).

بدا صوت (خليل باشا) ساخرًا وهو يقول:
(اطمئن أيها السلطان! فهو ذهب للبيزنطيين قبل أن يأتي
إلينا لكنهم لم يمتلكوا المال الذي طلبه فنقل عرضه
إلينا).

التفت إليه السلطان وعلى وجهه كل علامات البغض
دون أن يعلق ثم عاد إلى (زاجانوس) قائلاً:
(هذا الرجل (أوربان) استدعوه و جهزوا له ما يشاء كما
أمرت واجعلوه هنا في (أدرنة) حتى لا يفكر في الهرب
أو يقتله أحد ما وأخبروه أنني أريد مدفعين أو ثلاثة
ولنسمهم مدافع (عثمان) تيمنا بالسلطان الكبير).
أوماً (زاجانوس) برأسه موافقا بينما عاد الحوار من
جديد في شئون الجيش والقلعتين بين السلطان وقادته
العسكريين وسط ترقب شديد من السلطان لكل كلمة
تخرج من (خليل باشا) وحذر زائد من هذا الأخير بعد أن
تجاوز في الحديث كعادته منذ زمن طويل وحرص الشيخ
(شمس الدين) على أن يظل صامتا وهو يتابع ما يقوله
الحضور مكتفياً بالرضا عن تلميذه النجيب الذي يحقق
الآن ما كان يعد له طول العمر من دخول (إستانبول).
واستمر الحديث والجدل حتى قارب النهار على الانتهاء
فصرف السلطان المجلس ثم عاد إلى جناحه الخاص
وأغلقه جيداً على نفسه ليبدأ صلاته المعتادة التطوعية
التي لا يتركها أبداً حتى في أيام القتال وهو يسأل الله
البركة وأن يمنحه درة التاج البيزنطي العزيزة..

أيا صوفيا
(إستانبول).

محمود عبد الرحيم عرفات

كونستانتينوبوليس / السادس من سبتمبر / بيت صغير في وسط
المدينة.

من خلف النافذة الصغيرة بجوار الباب وقف (بنيامين) في قلق بادٍ يراقب الطريق المؤدي للمنزل متلفتاً يمينا ويساراً لعله يرى بغيته دون جدوى وراح يفرك كفيه قلقاً وهو يدقق في القادمين من بعيد شاعراً بالحيرة التي تضاعفت مع كل يوم مرّ عليه منذ ثمانية أشهر مضت يوم أن زارهم الحاخام المجهول في (غرناطة) وبات كل شيء غامض فهم باعوا معظم ما لهم من ممتلكات سريعاً وبأبخس الأثمان ثم فوجئ حين رأى ذهباً كثيراً مع عمه (جولياث بن نون) لما وصلوا إلى (كونستانتينوبوليس) منذ ثلاثة شهور تحت صفة تجار من الأندلس، كان الذهب كثيراً ومعه صندوق خبأه عمه في حفرة بمكان معزول أسرّ إليه بأنه سيقابل فيه أشخاصاً سيساعدوهم بمهمتهم دون أن يوضح من هم وما هذا الصندوق الذي خبأه بالحفرة، كذلك لم يعرف (بنيامين) من أين أتى هذا الذهب لكنه كان متأكداً دون بينة أن الحاخام الغامض هو من سلمه لعمه ثم رحلا إلى

(كونستانتينوبوليس) في رحلة طويلة وشاقة عبر مرافق و موانئ كبيرة في أوروبا وبلاد العرب دون أن يهتم عمه بإبلاغه سبب كل ما هم فيه ومن هذا الحاحام الغامض ولماذا سافرا هناك وحتى سبب خروج عمه كل يوم من البيت وعودته المتأخرة يجهله، كل هذا كان يجول في خاطره وعيناه ملتصقتان بالنافذة تدوران هنا وهناك باحثاً عن (جولياث).

(هل تأخرت عليك؟).

انتفض جسد (بنيامين) بقوة حين سمع عمه ينطق هذه الجملة والتفت إليه قائلاً:

(هل أتيت؟.. لا بد أنك سلكت الطريق الخلفي الضيق).

هز (جولياث) رأسه وجلس قائلاً:

(نعم فلا يجب أن أحدد دوماً أماكن سيرى ودخولي فهذا ضد أماننا).

جلس (بنيامين) قبالة عمه وقال:

(هل وجدت بغيتك؟).

أوماً (جولياث) برأسه دون تعليق فعاد ابن أخيه يقول:

(إذن هل ستقابل الشخص المهم اليوم كما حدثتني بالأمس في ذلك المكان الذي خبأنا فيه الصندوق؟).

أطرق (جولياث) برأسه أرضاً لدقيقة قبل أن ينظر لابن أخيه ويقول:

(يا (بنيامين) إنني لا أراك إلا متلهفا على معرفة كل شيء وهذا يخالف اتفاقنا منذ البداية قبل أن نغادر

(غرناطة) فنحن هنا لشأن مهم يحتاج كل الحنكة والحكمة وليس من مقتضياتهما أن أثرثر معك في الأسرار فأنت تعرف على قدر حاجتك فقط وحين أجد الوقت مناسباً سأخبرك كل شيء لكن ليس الآن، نحن هنا لنحمي اليهود بالشرق وننتقل إلى بلاد أخرى بعد أن ننهي عملنا.. بلاد بعيدة عن الأندلس لكنها بلادنا الحقيقية والتي يجب أن ندفن فيها.. هذا ما يجب أن تعرفه الآن لا أكثر).

لم يكن (بنيامين) راضياً عما سمعه وكانت اللفتة تستولي عليه ليعرف أكثر وليفهم سر إخفاء ذهب كثير في مكان ناء بالمدينة، إلا أن الوضع لم يكن يحتمل أكثر من هذا فصمت وهز رأسه موافقا بغير اقتناع حقيقي وجلس يرتب قراطيس كتابة فارغة متناثرة كان عمه قد أحضرها قبل يومين حين انتقلا للمنزل الجديد حيث كان يصرّ على تغيير إقامتهما كل شهر تقريباً والانتقال في كل مرة لمكان جديد في جزء مختلف من المدينة حتى يكون على بيّنة بكل ما يحدث واختلس (بنيامين) نظرة إلى قفص حديدي امتلأ حتى نهايته بالحمام كان عمه قد أتى به ومنعه من الاقتراب من القفص بدون توضيح إلا أن (بنيامين) كان يدرك السبب فهذا الحمام زاجل يعرفه جيداً وكثيراً ما استخدمه من قبل في (غرناطة) لكنه لا يعرف من أعطاه لعمه بالمدينة وهم حديثو عهد بها وإلى أين يرحل ويجيء هذا الحمام الزاجل؟

مضى باقي النهار وجاء الليل و(جولياث) بين الجلوس والرقود والدوران بالمنزل مفكرًا مدققًا النظر في الحمام وفي ابن أخيه، لا يتوقف عن التفكير في كل ما جرى منذ أن زاره أستاذه القديم إلى أن أتى في هذه المهمة الجريئة التي إن فشل فيها خسر حياته معها وحين وصل لهذه النقطة من تفكيره شعر بأن الليل قد أسدل أستاره تمامًا مما يجعل مواعده المهم قريبًا فقال لابن أخيه: (الآن أنا مغادر لبغيتي يا (بنيامين) وحين أعود سأخبرك بمن التقيت فلا تبتئس هكذا).

همهم (بنيامين) بكلمات مبهمة وراقب عمه وهو يغادر حتى اختفى عن ناظريه وظل الأخير يسير في هدوء حتى لا يلفت الأنظار له محاذرًا من التلفت حوله مراعيًا ما بالمدينة من اضطرابات شديدة قد تدفع الكل للشك فيه لأقل سبب ورويدًا رويدًا ابتعد عن العمران وبات في منطقة مقفرة مليئة بالأطلال جعلته ينقبض قليلًا وقد تذكر الأندلس للحظة، كان الليل يتقدم ولسعات برد خفيفة تخترق ملابس الحاخام الأندلسي تجعله أكثر تيقظًا وترقبًا لما حوله فراح يدور حول الأطلال باحثًا عن الآخر الذي لم يجيء وساورته الشكوك قليلًا حول ما هو فيه وبينما هو كذلك سمع صوت حجر صغير ينقلب فالتفت سريعًا ليجد رجلًا ملثمًا يقف خلفه تمامًا وينظر إليه بدون حديث فقال: (ظننت أنك لن تأتي أبدًا!).

قال الرجل:

(الذهب الذي أرسلته لي كان كافيًا لإثارة فضولي حتى أتساءل وأتي إليك).

ابتسم (جولياث) وعقب:

(تساءلت من هذا الذي يرسل لي ذهبًا كثيرًا فقط ليقابلني بعيدًا عن العمران في أيام كهذه؟ وبالطبع أتيت ومعك حراسك أليس كذلك؟).

قال الرجل:

(بالطبع لست بمفردي لنلا تكون جاسوسًا أو قاتلا وإن كنت أرى أن عجوزا مثلك ليس بقاتل وإنما جاسوس).

ضحك (جولياث) ضحكة بصوت عال ترددت في تلك الأطلال فقال الرجل الآخر بغضب:

(هل تستهزئ بي يا هذا؟).

انحنى (جولياث) وقال ساخرًا:

(كلا بالطبع لكن فكرة أنني أتجسس لصالح الأعداء تضحكني فهم ليسوا في حاجة للتجسس إذ تكفيهم جيوشهم لسحق مدينتكم دون عناء التجسس).

ازداد غضب الرجل وهم بقول شيء إلا أنه تراجع وعقب:

(فليكن!.. أنت تاجر من الأندلس كما قلت في رسالتك وقد علمت من رجالي أن تاجرًا أندلسيًا اسمه (جولياث) قد وفد إلينا بالمدينة منذ شهور فإن لم تكن جاسوسًا فمن أنت؟).

تقدم إليه (جولياث) وأجاب:

(أنا من سيحفظ لك حياتك وذهبك يا بارون (لوكاس)).

أزاح (لوكاس نوتراس) الغطاء عن وجهه وقال:

(قد لمحت بهذا في رسالتك ولكني لم أفهمك).

أجاب (جولياث):

(العثمانيون سيشعلون الحرب وهذه المرة المسلمون أقوى وأكثر قدرة على دخول المدينة وحتى لو حاصروها عامًا ولنكن أذكاء فالأوروبيون لا يريدون إلا نصرًا كنسيًا دون مواجهة مع العثمانيين وبالتالي فلن يساعدوكم إلا بأقل القليل فقط مقابل تنازل كنيستكم المذهبي لهم ويصالحون المسلمين بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية فتسقط (كونستانتينوبوليس) وتنهار دولة بيزنطة وينجون هم بالصلح وتظفر كنيستهم بالنصر الديني عليكم تمامًا.. فأين أنت من كل هذا إلا أسير يتم قتله أو تقتل أثناء المعركة).

شحب وجه (لوكاس) وقال:

(ولم تهتم بي أو بغيري ولم أتيت إلينا من البداية؟).

ابتسم (جولياث) وقال:

(أنا أندلسي خسرت مالي بسبب حكم المسلمين الضعاف بالأندلس وصادر القشتاليون كل أموالني فلم يعد لي مكان هناك ورأيت (كونستانتينوبوليس) بين عهدين صالحة لي لأحيا فيها ما تبقى من العمر فإن أردت أن أحمي نفسي فلا بد أن أكون هنا قبل الانتقال للعهد الجديد

فأحجز مكاني بين صفوف المستشارين أو التجار الجدد أو حتى بين رجال الحكام العثمانيين الجدد فأضمن أن ما صار لي بالأندلس لن يصير لي هنا).

أكمل (لوكاس):

(وحتى يتم هذا فأنت بحاجة لمساعدة مني ومقابلها تساعدني على نفس الشيء حماية نفسي أليس كذلك؟).

أوما (جولياث) برأسه قائلاً:

(نعم فكلانا كاره للأوروبيين فأنا صادروا أموالهم وذهبوا وكادوا يقتلونني وأنت تكره مذهبهم وسياساتهم تماماً وتفضل المسلمين ألسنت أنت من يقول في كل مكان منذ سنوات أنك تفضل رؤية عمامة المسلمين على قبعة الكاردينالات؟).

نظر (لوكاس) إلى (جولياث) بغير ثقة وعبث بقدمه في الأرض قليلاً قبل أن يقول:

(وكيف ستفيدني؟).

قال (جولياث) وقد شعر بأنه اقترب من الفوز:

(ليس عليك إلا أن تمدني بما سأطلبه منك من معلومات وبهذا تنقذ حياتك).

عقد (لوكاس) حاجبيه غضباً وقال:

(بالفعل أنت جاسوس).

هز (جولياث) رأسه ببطء وقال:

(أنت لن تخبرني بما يضر لكن ستخبرني بما سيصل إليهم حتمًا لكن أوصله لي أنا قبل أن يصل لهم فأحوز بهذا جزءًا من هدفي).

سأله (لوكاس):

(هل أنت على اتصال بهم؟).

أجاب (جولياث):

(كلا! لكن عندي وسيلة تكفي ليعلموا ويقدروني وقت الحاجة لهم واعلم أنني لا أحبهم ولا أنتمي لهم بل أنا وأنت معًا في هذا مضطرين فكيف نحمي أنفسنا يا بارون (لوكاس) وسط ضعف وتخاذل حكام بلادنا كيف نقي أنفسنا شر أتباع الكنيسة الكاثوليكية التي أفلسنتي وستحطم إيمان قومك وحكمهم؟ إننا في خندق واحد ولا نفعل إلا ما فيه صالح بلادك وصالحنا).

بدت كلمات (جولياث) كأنها أوجدت مبررًا مزيفاً يقتنع (لوكاس) بعرض الخيانة الواضح فقال:

(إن كان هذا هو الاتفاق فأنا لن أمدك إلا بما سيعلموه حتمًا، لكن..).

قاطعه (جولياث):

(و أنا لا أطلب إلا هذا فلتخصص لي رجلا من أخلص رجالك يأتي لي سرًا هناك كمشتري في متجري الصغير الذي لا بد أن رجالك قد أخبروك عنه وليخبرني بما تخبره به وإن أراد القدر لنا أن نسقط في أيديهم فنحن معًا).

سأله (لوكاس):

(هل ستخبرهم بخدماتي؟).

انتفض جسد (جولياث) وقال:

(كلا إياك أن تخبرهم فسلطانهم يكره أن يرى أحد أعدائه وقد أسر له بشيء عن قومه فهو يعتبرها خيانة عقابها القتل لكن إن أشرفت المدينة على السقوط فعليك أن تؤدي لي خدمة أخيرة ثم بعدها اختبئ في مكان نتفق عليه فإن طلبك سلطانهم لتساعده في إدارة المدينة كما أتوقع فستظهر وتنضم له ويكون قد وفر علينا الكثير وإن لم يفعل سأرسل لك لتظهر وحينها أكون قد هيأت ما يحميك وصنعت لك دوراً لديهم).

بدا حديث (جولياث) مقتعاً فسأله (لوكاس):

(وما هي الخدمة التي أقدمها لك إن أشرفت المدينة على السقوط؟).

أجاب (جولياث):

(وقتها ستأتي لي وسأخبرك، لكن إياك أن تقوم بشيء دون استشارتي لنألا نضيع معاً ويقضي المسلمون علينا).

كان الشك يستولي على (لوكاس) إلا أنه كان قد بات مهياً للخيانة بمبررات (جولياث) التي أحيت شرور نفسه فأوماً برأسه موافقاً قبل أن يتفق مع الأخير على بعض التفاصيل الإضافية ثم يغادر المكان بحذر ويتبعه أربعة رجال أتوا معه منذ البداية وظلوا مختبئين بالقرب منهم

وإن حرص (لوكاس) على ألا يستمعوا لما تبادلته من حديث مع رفيقه.

وطول الطريق لقصره وحتى جلوسه في جناحه ظل يدير الأمر في رأسه موازنا بين ما قدمه له (جولياث) من عرض وبين ولاءاته التقليدية للتاج البيزنطي شاعراً بأن الأندلسي كان على حق فالكنيسة الغربية لا تملك التأثير الحقيقي على أمراء الغرب ليرسلوا ما يكفي لنجدة الإمبراطورية من المحمديين الجدد القادمين وحتى لو حدث هذا فهل سيرحلون بعد انحسار خطر المسلمين؟ كلا هيئات فالكنيسة الغربية بأطماعها المذهبية الدنيوية وأمراء أوروبا بأطماعهم الدنيوية لن يتركوا قلعة الكنيسة الشرقية والحكم البيزنطي تبقى فهم لا يختلفون عن المسلمين الغزاة فالكل طامع في (كونستانتينوبوليس) والكل يريد توسيع ملكه ودينه على حساب بقايا الحكم البيزنطي وكما قال ذلك الأندلسي فأين هو من بين كل هذا وأين حياته فلو انتصر الأوروبيون فهو هالك لأنهم يدركون مقتته لهم وإن انتصر العثمانيون فلربما يبقون عليه ليدير لهم المدينة أو ليساعدهم في تهدئة الناس وإدارة جزء من شئونهم بحكم خبرته وربما يقتلوه أو يسجنوه لكن في كل الأحوال ليس من صالحه أن يفوز أتباع الكنيسة الكاثوليكية وأمراء التيجان الأوروبية المدركين لمقتته لهم، لكن ما الذي يضمن له صدق هذا الأندلسي على أية حال إنه يهودي وهؤلاء القوم لا عهد

لهم ولا كلمة فكيف يطمئن إليه ويسلم له كل شيء ببساطة؟

دارت هذه الخواطر في عقل (لوكاس) وراح الخاطر الأخير يلحّ عليه كثيراً مخيلاً له أن (جولياث) يريد أن يحصل منه على المعلومات التي توثق صلاته بالعثمانيين ثم يطيح به بعد دخولهم المدينة وراح هذا الخاطر يتضخم سريعاً ويدفع قلقه إلى القمة ومع القلق راحت فكرة جديدة تنبت وسط مخططاته حتى استحوذت على تفكيره ورسمت على شفثيه ابتسامة كبيرة دفعته لأن يقول:

(كلا أيها اليهودي فنحن لسنا معاً في هذا ربما نتعاون الآن لكنني لن أسلمك كل شيء وأبقى متفرجاً منتظراً وعذك بل سأصنع لنفسى خططي الخاصة التي تقيني غدرك المؤكد وتجعل لي حظوة عند المسلمين كتلك التي تريد حيازتها لنفسك دون أن تشركني فيها وتجعلني في بلاطهم معك.. ستكون لي كذلك خططي الخاصة أيها اليهودي الماكر).

الفصل الثاني : كونستانتينوبوليس... ودائمًا أيتها الجميلة

كونستانتينوبوليس، الثاني عشر من ديسمبر لعام ١٤٥٢،
كاتدرائية آيا صوفيا المقدسة.

لم تشهد مدينة (كونستانتينوبوليس) منذ احتلالها الأخير قبل تسعة وثلاثين عامًا أسوأ مما شهدته في ذلك اليوم من ديسمبر الحزين ولم يمر على أهلها ما يثير بينهم الإحباط والتشاؤم والحزن أكثر من ذلك الحدث حيث احتشد أهل المدينة في الطرقات يشاهدون الكاتدرائية المقدسة (آيا صوفيا) و عليها أعلام الكنيسة الغربية وأصوات الصلوات الكاثوليكية تتعالى من داخلها بينما أمامها بفخر يقف بعض الكاردينالات من الكنيسة الغربية ينظرون بسخرية وتشفٍ إلى الجموع القريبة التي تراقب وهي لا تتخيل أن هذا اليوم قد أتى، من بعيد وقف البارون الأكبر (لوكاس) وهو يغلي غضبًا لما يعتبره خيانة للكنيسة الشرقية وانتصارًا سهل المنال للكاثوليك والأخطر أن هذا هو الثمن لشيء لم يتم بعد فالبابا (نيكولاس الخامس) اشترط أن يتم تفعيل اتفاق مجلس (فلورنسا) الكنسي الموقع منذ ثلاثة عشر عامًا والقاضي

باندماج عدة كنائس من الشرق البيزنطي مع الكنائس الغربية وتسوية مشكلات مذهبية عدة كاثبات لحسن النية قبل الدعوة الأوروبية لنصرة (كونستانتينوبوليس) وبالطبع اضطر (قسطنطين الحادي عشر) إلى الخضوع بدون ضمان حقيقي حتى ينفذ البابا (نيكولاس) وعده وهذا كان يزيد غضب (لوكاس) ونقمته على هذا التخاذل الإمبراطوري الذي يراه ويجعل حديثه السابق مع (جولياث) يزداد قيمة وأهمية.

وهناك وليس بعيداً عن (آيا صوفيا) جلست (صوفيا) بجوار الأب (يوساتس) ووجهها محمر من الغضب لا يختلف عن حال الأخير وهما يراقبان التراتيل التي طالما اعتبروها من الشر والعداء والخروج عن الطباع الدينية للمسيحية وبين الحين والآخر كانت (صوفيا) تتذكر (ياروس) وموته مع أبيها لحماية الدولة والكنيسة فهل ذهبت روحه سدى كما ترى اليوم؟

في القصر الإمبراطوري جلس (قسطنطين الحادي عشر) في مجلسه الخاوي من رجاله ومستشاريه شاردًا وهو يشعر بالإحباط والألم فلم تكن تلك شعائر دينية بقدر ما كانت شعائر سياسية تؤكد النصر الكامل لأوروبا على بقايا بيزنطة مذهبياً وسياسياً في آن واحد وذلك العار سيلحق به إلى يوم الدينونة كآخر أباطرة البيزنطيين الذين سقطوا بيد المسلمين بعد قرون من الصمود أمامهم أو الأسوأ أن يكون الإمبراطور الأخير الذي

أعطى بيزنطة على طبق من ذهب لأعدائها الغربيين بعد أن جعل كعبة الكنيسة الشرقية ترتل بترانيم الكاردينالات الكاثوليك وحين جالوا بخاطرهم بدا وكأن القدر يذكرهم هو الآخر إذ دلف أحد الحرس وقال بصوت مليء بالضيق والألم:

(مولاي الإمبراطور! إن الكاردينال (إيزدور) يطلب لقاءك).

رفع الإمبراطور رأسه إليه متأملاً ملامح الحارس الحزينة لما يحدث بالكاتدرائية المقدسة كأي أورثوذكسي تقليدي يرفض ما يحدث بالمدينة إلا أن هذا لم يبدُ على صوته وهو يقول:

(اسمح له بالدخول أنا أنتظره).

غاب الحارس ثم عاد وبرففته الكاردينال (إيزدور) مبعوث البابا الذي تقدم إلى (قسطنطين) وقام بالبروتوكولات التقليدية للسفراء متجاهلاً أن الإمبراطور لم يقم بالتحية المفترضة له كرجل دين مسيحي ثم جلس منتظراً البداية والتي أتت من الإمبراطور الذي قال:

(الكاردينال (إيزدور) مطران (كيبف) السابق صاحب قصة الهروب المثيرة من السجن لقد شعرت بالتفاؤل حين علمت بإيفادك إلينا من قبل البابا (نيكولاس)).

ابتسم (إيزدور) وقال:

(الخطر يحيط بنا من كل جانب ونحن في أوروبا متيقنين من امتداد الخطر إلينا لو تجاوزكم فمصالحنا واحدة).

بدا الحزم على وجه الإمبراطور وهو يقول:
(الأهم أن نتجاوز الخلافات المذهبية ثم نجهز العتاد
اللازم لمواجهة المسلمين).

تنح (إيزدور) وأجاب:
(بالنسبة للنقطة الأولى فأنا من أنصار مجلس (فلورنسا)
الداعم لوحدة الكنيستين ولا تتصور طبعاً أن موقفي
يدعم الطائفية بيننا).

سأل الإمبراطور:
(والنقطة الثانية أيها الكاردينال.. فأنا لا أرى دعماً
حقيقياً من جيوش حكام أوروبا فمن أتوا معك مانتين من
الرجال وهؤلاء أقل ممن ماتوا في غاراتنا على قلعة
الروملي).

أجاب الكاردينال سريعاً:
(الإمدادات قادمة منتصف الشهر القادم على الأكثر وعلى
رأسهم المقاتل (جيو فاني جوستنياني) من جمهورية
(جنوة) وأنت سمعت عنه بالتأكيد).

بدا الاهتمام على وجه (قسطنطين) وقال:
(بالطبع وسبق والتقينا، لكن عجيب هذا الأمر لقد
تصورت أن قوات الممالك الأوروبية ستجيء معاً).

بدا الارتباك على وجه (إيزدور) وهو يعقب:
(لكل مملكة شئونها! وكما تعلم فإن جمهورية (جنوة)
لها ظروفها الخاصة وإمكاناتها محدودة ويسهل فيها
التجهيز والإعداد مقارنةً بغيرها).

قال (قسطنطين) وهو ينتقي كلماته:
 (أنت تعني أن هذه القوات مع (جيوفاي) طلائع؟).
 ابتلع (إيزدور) السؤال بصعوبة فلم يكن يملك شيئاً
 حقيقياً يقوله وبدأ عليه الحيرة وحقائق أوروبا
 السياسية والمذهبية ماثلة أمامه بشكل يمنعه كلية
 بمقتضى الصدق والعهود أن يعطيه الرد أو التصريح
 السليم فاكتفى أن يقول:
 (أوروبا بالطبع ستقدم كل المساعدة التي تقدر عليها).
 تسلل الارتياح إلى (قسطنطين) وبدأ الأمر غامضاً مع
 تلك الردود المبهمة كأن هناك ما يُحاك من قبل الكنيسة
 الغربية فاقتحم الأمر مباشرة بقوله:
 (هل تعني أن إمدادات باقي إمارات أوروبا بصورة تكفي
 لهزيمة العثمانيين غير مضمونة؟).
 أجاب (إيزدور):
 (أنا كاردينال بسيط و..).
 قاطعه الإمبراطور بغضب:
 (أنت مبعوث البابا (نيكولاس) لـ(كونستانتينوبوليس) ولا
 بد أن يكون قد أطلعك على الأمر كله).
 توتر (إيزدور) وهو يرى الأمور تبدأ في الإفلات منذ
 البداية فحاول أن يخفف الجو المشحون بقوله:
 (البابا تركته وهو يرسل إلى كل أمراء أوروبا والذي
 علمته كان فقط يخص القائد (جيوفاي) الذي كان أول
 من أرسل لنا ولم يرد لي شيء من البابا إلى الآن ولكن

حتماً كما قلت فملوك أوروبا يدركون الخطر المشترك وسيسارعون لتقديم النجدة).

كان الشك داخل (قسطنطين) ينمو سريعاً وقد بدا له أن (لوكاس) على حق في ريبته من الكنيسة الغربية وإمارات وممالك الغرب، لكن في ظروفه هذه لم يملك إلا أن ينتظر فعاد إلى عرشه وقال منهيًا اللقاء: (فليكن! إننا هنا منتظرون وأرجو أن تكون في الغرب عقول تقدر فعلا هذا الخطر).

فهم الكاردينال أن هذه نهاية اللقاء فنهض سريعاً محيياً الإمبرطور وغادر المكان عائداً إلى (أيا صوفيا) للمشاركة في القداس الكاثوليكي بينما ظل الإمبرطور (قسطنطين الحادي عشر) جالساً والهموم تتراكم عليه وتدفع لديه الحزن والألم للقمة بين أمل يانس لا يضمن تحقيقه وخطر داهم خلف الأسوار وخطر آخر كان بعيداً في أوروبا وبات اليوم داخل المدينة بين حاشية منقسمة مشتتة وشعب خائف حزين لكن ما باليد حيلة وليس أمام إمبرطور بيزنطة إلا أن يجلس في مجلسه منتظراً المدد القادم من أعداء الأمس أصدقاء اليوم وربما أعداء الغد كذلك فهذه هي الحالة اليوم والرب وحده يعلم متى تنتهي.. فحتى يأتي المدد في يناير فلنتتظري يا (كونستانتينوبوليس) ..

إلى يناير يا (كونستانتينوبوليس).

مدينة أدرنة، إحدى ثكنات الجيش العثماني / الخامس من يناير
العام ١٤٥٢.

انهمك القائد (يحيى بن بركة) في مراجعة تحصينات قلعة الروملي الجديدة مع القائد البحري (سليمان بالدوغلو) وراحا ينظمان الدفاعات الأرضية من القلعتين الكبيرتين وتوزيع سفن الأسطول العثماني بحيث يتأكدان من قطع الطرق بين (كونستانتينوبوليس) ومملكة (طرابزون) وجنوب أوروبا وكان الأمر عسيرًا بحق فالأسطول قليل الخبرة والمعلومات قليلة للغاية ولا توجد وسيلة لضمان نجاح أي حصار محتمل، في وسط هذا تقدم أحد قادة الجند وهمس بكلمات للقائد (يحيى) وسلمه ورقة مطوية بعناية نظر إليها الأخير بحيرة وأشار للجندي بالانصراف وقال لـ(سليمان) :

(هناك رسالة مختومة عبر حمامة زاجلة هبطت في قلعة الأناضول تحمل اسم السلطان شخصيًا).
نظر (سليمان) بفضول للرسالة وقال:
(وماذا نفعل؟).
قلب (يحيى) الرسالة وأجاب:

(ليست كل رسالة مجهولة مكتوب عليها اسم السلطان تصل له يجب أن نقرأ محتواها ثم نخبر السلطان لو كانت مهمة).

التقط (سليمان بالدوغلو) الرسالة و فض ختمها بحرص وبدأ في القراءة و(يحيى) يتابع معه كل سطر وحيرته تزداد فالرسالة عدة ورقات تلخص الأحوال السياسية والاقتصادية بـ(كونستانتينوبوليس) ومعها رسوم واضحة لكل مداخل المدينة وتخطيط لسورها الحصين ورسم لميناء المدينة وبيان بأماكن تجمع الجنود داخل المدينة والرسالة موقعة باسم الحاخام الأندلسي، تبادل القائدان النظرات وهما يعيدان القراءة قبل أن يطوي (سليمان) أوراق الرسالة ويقول لزميله: (ما هذا؟.. من أرسل تلك الرسالة؟).

أجاب (يحيى):

(شيء غريب! فعيوننا قليلة وأنا أعرفهم ولا أحد فيهم يسمي نفسه هكذا أبداً ولماذا حاخام أندلسي؟؟).

قال (سليمان):

(والمعلومات هل نصدقها أم لا؟).

أطرق (يحيى) برأسه مفكراً قليلاً ثم قال:

(كلا بالطبع لكن سنضع الأمر في الاعتبار ونحاول التأكد من عيوننا القليلة ثم بعد هذا نحكم، لكن المحير لماذا يرسل أحدهم معلومات إلينا وما مصلحته؟).

لم يستطع (سليمان) الرد فالتقط الرسالة وفضها كذلك وتأمل الأوراق والرسومات العديدة متقنة التنفيذ والتي بدت له صادقة وسأل (يحيى):
(لكن هل سنخبر السلطان؟).

أجاب (يحيى) :

(بالطبع يجب أن يعرف فهو القائد الأعلى لجيشنا ولا بد أن يكون على علم وكذلك سنخبر كبار القادة فقط بحيث يكونوا مطلعين مدركين لمصادرنا التي سنبنى عليها خططنا لكن قبل أي شيء فلنتأكد من المعلومات أو بعضها على الأقل عبر سؤال من كانوا بالمدينة ونحاول التيقن قدر المستطاع).

أضاف (سليمان):

(سيكون شيء مثير جدًا لو كان هذا الجاسوس صادقاً فيبدو لي أنه من داخل المدينة ومطلع على حدودها البرية والبحرية ونحن في حاجة لهذا بشدة).
أوماً (يحيى) برأسه مؤمناً على الحديث ثم طوى الأوراق بعناية ووضعهم في صندوق محكم الإغلاق وقال لرفيقه:
(الأمر لا يحتمل التأجيل أكمل أنت العمل وأنا سأذهب فوراً للسلطان).

سريعاً كان (يحيى) وعشرة من الجنود ينطلقون بخيولهم ناهبين الأرض نهباً حتى وصلوا لمقر السلطان بالمدينة وتقدم الأخير حتى وصل إلى المجلس وأعلن الحارس وصوله ليذلف ويحيي السلطان ويستأذن في الانفراد به

وعلى الرغم من غرابة طلبه إلا أن السلطان لم يمانع وانتظر حتى غادر الكل وقال:
(ماذا وراءك يا قائد (يحيى)؟).

أخرج (يحيى) الرسالة وسلمها للسلطان وشرح له الأمر كاملاً منتظراً أوامره بينما راجع السلطان كل كلمة بدقة ونظر إلى الخرائط والتصميمات بعناية ثم قال:

(الأهم هو لماذا سمى نفسه بالحاخام فهو يهودي أو نصراني أي ليس مسلماً فلا سبب ديني ليعمل لصالحنا ومن جانب آخر كيف حصل على هذا التخطيط وتلك المعلومات هل هو مسئول عسكري في بيزنطة أم له أعوان من داخل بلاط (قسطنطين) فالأمر ليس من بقدر ما هو لماذا وكيف، على أي حال سنتلقى المعلومات ونتعامل معها بحرص دون تكذيب أو تصديق لكن سنضع في الاعتبار كل ما نلتقاه بحيث لو كان الأمر صحيحاً نستفيد منه).

قال (يحيى):

(هذا ما وقرته في نفسي منذ البداية وحمداً لله أن اتفقتنا على رأي واحد).

ابتسم السلطان وقال:

(حمداً لله موفق القلوب يا (يحيى) نحن نقاتل في سبيل الله ونعلي لواء لا إله إلا الله على تلك الأرض التي دامت عصية على كلمة الحق وما بدأه عمر بن الخطاب في

الشام البيزنطي ومصر البيزنطية سندهيه بإذن الله هناك.. في (إستانبول)).

وليس بعيداً عن قصر السلطان جلس الصدر الأعظم (خليل باشا) يراجع بقلق ما لديه من معلومات حول القسطنطينية وما لديها من جند قلائل غير كافيين دون أن يتضح حتى لحظتها حجم قوات أوروبا التي سترسل إليهم للاشتراك في القتال ولا تحصينات المدينة التي لا يعرفون كثيراً عنها خاصة مع التجديدات التي أضيفت للحصون والأسوار، وبعد الانتهاء طوى (خليل باشا) الأوراق وعقله مشتت بين المجهول القادم وبين خطر يشعر به ضده شخصياً من السلطان الذي لم يعد يتقبل وجوده وسلطاته الكبرى أكثر من هذا فكان (خليل باشا) واثقاً من أن كل شيء معلق على معركة واحدة سترفع المنتصر وتقضي على المهزوم في كلا البلاطين العثماني والبيزنطي.. معركة (إستانبول).

كونستانطينوبوليس، الخامس من إبريل، العام ١٤٥٣.

كانت الشهور التي مضت على (كونستانطينوبوليس) قد أوجت لأهلها أن الهلع والرعب قد تجسدا في الأيام المارة عليهم وأن لا شيء قد تسطره الأقلام وتخطه الأحبار بمقدوره التعبير عن آلام الخوف التي لا تترك أثرًا وتحيا بينهم، كانت مشاعر الحزن على الدين ومخاوف دفينة من المسلمين وأخرى حاضرة من اللاتينيين تغمرهم فأي شيء يفوق هذا؟ لكن في ذلك اليوم أيقن أهل المدينة أن ما مرّ كان وهمًا وأن الحزن والخوف هو ما سيخبروه منذ لحظتهم هذه.. لقد وصلت قوات (محمد الثاني) إلى أسوار (كونستانطينوبوليس) الغربية ونصب السلطان مقر قيادته أمام باب القديس (رومانوس) إمعانا في التحدي واحتشدت قوات العسكر تغير على الأسوار وعلى رأسها السلطان المتلف على دخول المدينة وجعلها قلعة يحكم منها و يغزو فيها أينما يغزو.

في كاتدرائية (آيا صوفيا) لم يتغير المشهد فها هم الرهبان ممتقعو الوجوه يصلون في جانبها الشرقي من

أجل سلامة المدينة الباكية وها هم رجال الكنيسة الغربية يصلون في ركن آخر طالبين المدد من الرب والعون على الموت الجاثم على نفوسهم ووسط هؤلاء كان الناس يأتون يصلون صامتين خائفين ينظرون بأمل للأيقونات والرهبان ثم يرحلون إلا واحدة منهم كانت تجلس بمفردها ترتدي ملابس الراهبات مع أنها ليست راهبة حقيقية تلك (صوفيا) التي حققت غرضها ووهبت كل شيء ملكته يوماً إلى الكنيسة للدفاع عن المدينة الباكية وقليلًا ما يأتيها أحد فليس لها إلا الراهب (يوساتس) يمر عليها ويهدئها أو يحاول الحديث معها ليسري عنها دون جدوى فليس بيده أن يهبها الطمأنينة وهو لا يملكها. هناك وليس بعيدًا عن (أيا صوفيا) في قصر الإمبراطور لم يكن للخوف مكان بل الغضب كل الغضب والثورة كل الثورة فالقادة العسكريين كانوا غاضبين لانعدام المدد من أوروبا وراحوا يصبون جام غضبهم على بعضهم والإمبراطور جالس في صمت لا يملك لهم ردًا و(لوكاس) على غير عادته بارد لا يتكلم وعينه مرتكزتان على الكاردينال (إيزدور) وفي قلبه الكثير مما لا يملك أن يبوح به الآن سواء تجاه الإمبراطور الذي يراه متخاذلاً والكاردينال الكاذب وقد قر لديه أن الحاخام الأندلسي هبة الرب له وصك نجاته المحتم بعد أن بات السقوط وشيكاً وهو لا يتوانى عن إرسال الأخبار سرًا لليهودي دون أن يعرف حتى لحظتها كيف يرسل الأنباء

للأتراك، وبينما الكل في حالة هياجهم وصياحهم رفع
(قسطنطين) يده للأعلى فصمتوا والتفتوا إليه بوجوه
محمرة منفعة منتظرين كلماته بعد صمته الطويل فجاء
في وجوههم حتى استقر على وجهه (إيزدور) وقال:
(ما رأيك يا رسول أوروبا الصادق.. هل أنت سعيد بما
وهبتم لنا اليوم من اضطرابات وقلق وهلع بكذبكم؟).
ابتلع (إيزدور) ريقه بصعوبة ونهض متثاقلا وأجاب:
(أنا لم أكذب أيها الإمبراطور لكن ملوك أوروبا هم
الكاذبون على الصليب وعلينا هنا).
صاح (لوكاس):

(كفى يا هذا! ألا تخجل من نفسك بعد كل ما حدث ألا
تخجل من خذلان أوروبا لنا بعد وعودك أنت وكاردينالك
الأكبر؟).

وعلى غضبه لإسلوب (لوكاس) المهين إلا أن (إيزدور)
قال بأعصاب متماسكة:

(أنا لم أقل إلا ما حدث فالبابا أرسل لكل ملوك أوروبا منذ
البداية لكن تخوفي كتمته في قلبي لنلا أثير مخاوفكم دون
داع فالأمراء الأوروبيين الجنوبيين أغلبهم سيأبى
المساعدة حتى لا تزيد سطوة البابا عليهم أكثر وأكثر
كذلك قوة أوروبا منهكة فأنجلترا وفرنسا يتقاتلان منذ
أكثر من قرن ولا تملك إحداها دعمكم خوفا من أن
تتحالف الأخرى مع المسلمين ضدها وممالك الجرمان

تشتعل بالقتال فلا توجد قوة كبرى جاهزة للانضمام إليكم الآن).

قال الإمبراطور:

(كل هذا نعرفه لكنك لم تقل هذا أنت أو البابا فجعلتنا نتصور أن الملوك سيهرعون إلينا حتى مع كل هذا).

طأطأ الكاردينال رأسه بأسف وأجاب:

(بما أنت على حق لكن كما وجدنا (جيوفاني) متطوعاً سنجد غيره وقد علمنا جميعاً منه أن سفن أوروبية ستصل عما قريب جداً إلينا).

قال (لوكاس):

(وهل هذا يكفي؟ إن (جوستنياني) يقوم بعمله منذ وطأ (كونستانتينوبوليس) لكن قواه ضئيلة ولا تكفي فرجاله قليلون جداً ولا يعرفون القتال بقدر تحصين الدفاعات عند الأسوار إننا في حاجة لعشرات الألوف من الرجال حالا فقواتنا سبعة آلاف وسبعمائة رجل والمسلمون الذين يحاصروننا الآن يربون على المائة ألف ومجموع قواهم من حيث أتوا لا يقل عن مائتين وخمسين ألف رجل فبأي عقل تقنعنا يا هذا؟).

صمت (إيزدور) وقد حارت معه الكلمات فهو في موقف دقيق لا يمكن معه إلا هذا الصمت بينما راح (لوكاس) يرغي ويزبد والإمبراطور متجمد وعيناه معلقتان علي الصليب الكبير وقد بات يتخيله كلمة (محمد) مرسومة بدلا من رمز المسيحية وتلك الأيقونات وقد أزيلت وحل

محلها الرسم العثماني الكبير وتلك اللوحات الجميلة وقد أوقعت أرضاً وعلقت صور سلاطين آل عثمان، وهاجمته الأفكار والهواجس فما هي أوروبا تخشى سطوة الكنيسة والكنيسة نفسها تكذب لتحقيق نصرًا دينيًا مذهبيًا لا قيمة له أمام خطر الأتراك المحقق على القارة كلها أما المسلمين من جانبهم يحتشدون بعشرات الآلاف حول الأسوار التي لا تضم من المقاتلين إلا سبعة آلاف وسبعمئة مقاتل لا أكثر فأين المفر؟

نهض الإمبراطور وغادر متثاقلا إلى جناحه تاركًا حاشيته تتقاتل فيما بينها متجاهلا كل ما يدور ويصير حتى جلس على فراشه ممدداً وشيء واحد كثيراً ما كان يخشاه بات الآن يملأ عقله أن بلاده وجدت طريقها للسقوط كدرجة جديدة في سلم الحضارات المنتهية ويومًا ما سيقرا الناس بجوار كتاب الحقبة الهيلينية الذي انتهى منه أخيرًا كتاب آخر عن الحقبة البيزنطية.. المنتهية كذلك.

معسكر الجيش العثماني، العشرون من إبريل، العام ١٤٥٣.

بسط (يحيى) عدة خرائط للمنطقة الغربية من الأسوار وما يقابلها من أراضٍ ومياه قبالة (زاجانوس) باشا وقال:

(الآن خطط الحصار في حالة ارتباك فالسلسلة الكبرى تعيق مرورنا تمامًا).

فرك (زاجانوس) ذقنه في توتر وسأل (يحيى):

(هل لدينا نقطة ضعف في السلسلة أي نقطة؟).

أجاب (يحيى) :

(كلا للأسف إنها سلسلة معدنية ضخمة وسميكة جدًا ومرتبطة بصورة كاملة عند مصب الميناء وتبدأ من شمال المدينة مغلقة القرن الذهبي تمامًا وتمنع سفننا من الدخول للميناء البحري أو محاصرة المدينة بشكل كلي).

قال (زاجانوس):

(الأخطر أنها ستعطيهم فرصة مطلقة للدفاع حتى مجيء قوات جديدة من أوروبا، إنها فكرة مأكرة لـ(قسطنطين) لا بد أن الداهية (جوستنياني) هو من طرحها عليه).

أوماً (يحيى) برأسه مؤيداً وقال:
(كل شيء الآن متعلق بالسلسلة المعدنية والقائد
(بالدوغلو) حاول عدة مرات التقدم لكن سفنه تتعرض
للضرب كل مرة و(خليل) باشا لا يرحمه و ينتقد الحصار
بأكمله ويصفه بالعبث).

بدا الضيق على صوت (زاجانوس) وهو يعلق:
(لو كان لدينا سلطان آخر لما احتج الصدر الأعظم لكن
السلطان هو مولانا (محمد) فلا بد أن يحتج (خليل) باشا
مهما كانت الظروف وحتى لو كنا منتصرين فهو سيجد
دوماً سبباً للشكوى).

نظر (يحيى) بفضول إلى (زاجانوس) وكأنه يريد المزيد
من الحديث حول هذا الأمر فقال الأخير:
(أنت مقرب من السلطان مثلي لكنك لا تعرف كل شيء
في السياسة والصراع في هذا البلاط العثماني فأنا بجوار
مكائتي متزوج من أسرة السلطان).

قال (يحيى) وقد زاد فضوله:
(أنا رجل عسكري وصديق للسلطان وكذلك أحب
السياسة ودهاليزها ومع هذا فأنا لا أفهمك أيها القائد).
شرد (زاجانوس) ببصره للحظات وهو يستعيد تلك
الذكرى القريبة نسبياً شديدة الحساسية والتي لا يقدر
أحد بالبلاط على الخوض فيها تجنباً لغضب السلطان أو
سخط الصدر الأعظم أو خوفاً من اتهامه بالخيانة

وزعزعة الاستقرار في البلاط الملكي ثم عاد ينظر إلى تلميذه (يحيى) وقال:

(منذ إحدى عشر عامًا كما تعلم اعتزل السلطان الراحل (مراد) الحكم بعد موت (علاء الدين) ابنه وتركه لولده سلطاننا (محمد) وكان وقتها (خليل) باشا الصدر الأعظم وقد تحفظ وقتها على تولية السلطان (محمد) إذ كان صبيًا عمره اثني عشر عامًا فقط ولكن بعد هذا بشهور قليلة كونت أوروبا بدعم البابا (أوجين) حملة كبرى من الهنجاريين والصرب والبلغار وغيرهم وهاجمت قواتنا في أوروبا وأحرزت نصرًا فساد الارتباك بين القادة في القتال وكنا في حاجة للسلطان (مراد) وكان السلطان (محمد) وقتها أول من أرسل لوالده ليأتي ويقود القتال، مع هذا لم يقبل السلطان (مراد) المجيء حتى أرسل له السلطان (محمد) يقول له لو كنت سلطانا فتعال وقد جيشك ولو كنت أنا سلطانا فإني أمرك بالمجيء من أجل الإسلام فلم يملك السلطان (مراد) إلا أن يعود وقاد الجيش بمعونة (خليل) باشا وانتصرنا وحطمنا جيش أوروبا في (فارنا) وقتلنا معظم ملوك تلك البلاد أثناء المعركة وهربت باقي قواتهم، كان الكل يتوقع أن السلطان (مراد) سيبقى لكنه أصر على الاعتزال فغضب (خليل) باشا وصرح بأن السلطان (محمد) صبي مرتبك ولا يصلح للحكم في سنه وقال صراحة إن السلطان (مراد) لا يريد من توليته لابنه (محمد) إلا أن يبعد

العرش بعد موته عن ابنه الأوسط الأحق بالحكم (أورهان) لصلاته بالبيزنطيين فغضب السلطان (محمد) ومنذ ذلك اليوم بات يبغض تدخل الصدر الأعظم في شئونه وتصورنا أن الأيام ستنتهي تلك العداوة لكن بعد عامين أي منذ سبعة أعوام وتحت ضغوط تمرد قوات الإنكشارية طالب (خليل) باشا بعودة السلطان (مراد) وأثار القادة العسكريين ضد بقاء السلطان (محمد) فلم يجد السلطان (مراد) بداً من العودة وإنهاء عزلته وتخلي سلطانه (محمد) عن العرش لوالده وظل يحكم في البلاد مع الصدر الأعظم حتى وفاته منذ عامين وطبعاً بعودة السلطان (محمد) اشتعل الماضي بينهما وباتا يتربصان ببعضهما).

كان (يحيى) يستمع في دهشة حتى انتهى (زاجانوس) من حديثه فقال:

(كأنك تتحدث عن بلاد لا أعرفها وبشر لم أخالطهم، لقد عاصرت ما رويت وعاشرت رجال البلاط لكن ما ترويه لا يجب أن يعيق الفتح ويصنع تلك الحساسيات).

ابتسم القائد القدير بمرارة الكاره لما يقول مضيفاً:

(لا أحد يجرو على الحديث عن هذا أبداً حتى لا يغضب السلطان والصدر الأعظم وإني واثق من أن السلطان يتخوف من سطوة وقوة (خليل) باشا والأخير مثله ولولا هذا لأطاح به منذ زمن فهو وإن كان السلطان إلا أن الصدر الأعظم رجل قوي واسع النفوذ ولا يمكن القضاء

عليه ببساطة فالأمر في حاجة لزيادة قوة السلطان
بوسيلة ما حتى يطيح به دون اضطرابات كبيرة).

عقد (يحيى) حاجبيه وقال:

(تقصد أن (خليل) باشا يخشى من سطوة السلطان
المطلقة إن دخل (إستانبول) منتصرًا؟).

سارع (زاجانوس) بالقول:

(لم أقل هذا! ولا تدفعني لشيء لم أقله أنا فقط أفكر
معك).

أكمل (يحيى):

(أنا كذلك أفكر فقط ولي رأي خاص قد يبرر كيف بقيت
تلك العداوة حتى اليوم فقد لاحظت أن أستاذي (شمس
الدين) ليست علاقته على ما يرام بالصدر الأعظم
وبينهما من النفور ما ليس بقليل بخلاف المربين
الآخرين للسلطان ممن لا يروق الصدر الأعظم لهم وأظن
أن تلك العلاقة المتوترة سبب آخر للمشكلات بين
السلطان و(خليل) باشا فلربما نقل الشيخ هذا التوتر
للسلطان وحرّضه ضده بشكل أو آخر أو أن السلطان
يعتبر هذه العلاقة الصعبة تحديًا له شخصيًا بحكم أن
الشيخ أستاذه الجليل ومعلمه الأول).

شعر (زاجانوس) أن الحديث قد استغرقهما بعيدًا عن
الظرف الدقيق الذي يحيط بهما فقال:

(ماذا عن سفننا ألا تستطيع الهجوم دفعة واحدة بشكل
يربك دفاعات العدو؟).

أجاب (يحيى):

(حسب معلومات الجواسيس ورسالة الحاخام المجهول هذا وحسب شهادات رجال البحرية فالسلسلة تحتاج للمواجهة الثابتة وحينها فمدافعهم ستغرق كل سفننا). هم (زاجانوس) يقول شيء ما إلا أن ضابطاً عثمانياً اندفع فجأة للداخل وقال بصوتٍ لاهتٍ دون أن يحيى القادة من فرط تعجله:

(سفن إمداد من جمهورية (جنوة) تقترب من خطوط البيزنطيين البحرية وتسعى للعبور إلى (إستانبول) والقائد (بالدوغلو) خرج بنفسه لمواجهتهم).

تبادل (يحيى) و(زاجانوس) نظرة واحدة ثم هرعا للخارج وامتطى الثلاثة جيادهم وانطلقوا سريعاً يذهبون الأرض حتى وصلوا للشاطئ ليروا أغرب مشهد في حياتهم إذ كانت في الأفق عدة سفن عثمانية تتقدم وأصوات الانفجارات تأتيهم مدوية بينما سفن إيطالية أحصاها (يحيى) بأربعة تناور في براعة وتدور حول السفن العثمانية المرتبكة حتى أصابت سفينة زميلتها دون قصد ومع هذا كان السلطان بنفسه على حصانه أمامهم يتابع بوجهٍ شديد الحمرة ما يحدث ويدور برأسه كل ثانية مع حركات السفن وصوت الانفجارات وبدا أن الأمر يسير إلى الهزيمة فالسفن العثمانية كانت بطيئة مرتبكة على عكس السفن القادمة والتي بدا على مقاتليها المهارة القصوى واعتياد القتال البحري حتى

مرّ الوقت وبدأت السفن العثمانية تتراجع بعد هزيمتها الواضحة فصاح السلطان في غضب هادر:
(أسطول كامل يتراجع أمام أربع سفن يا (بالدوغلو)..
اهجم يا رجل ولا تسمح لهم بالمرور).
وما إن أنهى عبارته حتى اندفع بفرسه إلى البحر وحراسه مرتبكين يهرعون خلفه فلم يجد (يحيى) بدءاً من النزول هو الآخر للمياه وعبثاً حاولوا إثناء السلطان الذي راح يصيح فيهم بالعودة ثم ينظر للسفن العثمانية المتراجعة ويصيح باسم (سليمان بالدوغلو). ظل الوضع على هذا الحال حتى غابت سفن جمهورية (جنوة) عن أنظارهم وعادت سفن العثمانيين المتبقية بعد المعركة والسلطان التائر لما حدث يصيح فيهم بإحضار (بالدوغلو) إلى خيمته فوراً ثم عاد ومعه جُل القادة إليها وما إن جلس حتى التفت إلى (زاجانوس) و(يحيى) صائحاً:

(ما حدث فضيحة! كيف يتراجع أسطول أمام أربع سفن وكيف يفشل في مهمة كهذه ألا يدرك أننا قد نخسر الحرب بسببه؟).
لم يملك أحد القدرة على الحديث وما رأوه بأعينهم أصابهم بالصدمة فعاد السلطان يقول:
(الله وحده يعلم كم من الرجال وصلوا إلى (إستانبول) الآن وماذا سيكون رد فعل هؤلاء البيزنطيين الآن).
قال (يحيى):

(فلننتظر القائد (بالدوغلو) و..).

قاطعه السلطان:

(كلا يا (يحيى) ليس بعد الآن).

نظر الكل للسلطان في تساؤل فأكمل:

(منذ الآن يعزل (سليمان بالدوغلو) من القيادة البحرية ويحل مكانه (حمزة) بك أما القائد المهزوم فلا مكان له هنا ولا في الحياة وإني أمر بإعدامه الآن).

هو قلب (يحيى) بين ساقيه في حين فقد (زاجانوس) القدرة على الحديث وتبادل القادة النظرات الملتاعة دون أن يجروا أحدهم على الحديث والسلطان جالس وأنفاسه تتصاعد دون أن يهدأ ومرّ وقت قصير قبل أن يدلف عدد من قادة السفن في ارتباك وهم مطأطئو الرؤوس فعاد السلطان يصيح:

(مرحبًا بأبطال البحرية العثمانية! لا داعي لوصف بطولتكم فأنتم حتمًا رأيتموني أكاد أعبر بفرسي لكم من شدة غيظي).

لم يجروا أحدهم على الحديث فقال السلطان:

(أين (بالدوغلو)؟ أريد أن أعزله بنفسه وأن ينفذ فيه حكم الإعدام حالا).

شحبت وجوه القادة البحريين حين سمعوا الحكم و تجرأ أحدهم على الحديث قائلاً بتردد:

(إعدام؟.. القائد؟).

قال السلطان (محمد):

(في هذه الآونة لا مكان لقائد يعجز عن إيقاف أربعة سفن بينما لديه أسطول).

اختلس الرجل النظر لرفاقه ورأى على وجوههم التشجيع فعاد يقول:

(لكن القائد (بالدوغلو) قاتل كالأسد الهصور وكان في مقدمة السفن ولم يقصر حتى أن عينه اليمنى قد أصيبت وفقدتها تمامًا).

قال (زاجانوس) بانزعاج:

(ماذا تقول؟.. (سليمان) حدث له هذا؟).

نظر (يحيى) برجاء إلى السلطان الذي سأل الضابط وقد هدا قليلا:

(فقد عينه اليمنى حقا؟).

أجاب القائد متلهفا:

(أقسم لك أنه حتى بعد أن أصيب ظل يقف على مقدمة السفينة ويقود المعركة ولولا هذا لكان الطبيب قد أنقذ عينه لكنه رفض التداوي حتى لا يغيب عن المعركة).

نظر السلطان إلى باقي ضباط البحرية وسألهم:

(هل تشهدون بأن هذا ما حدث؟).

اختلطت أصوات الضباط وهم يؤكدون على صحة الحديث

وهم الرجل الأول بمعاودة الحديث حين دلف (بالدوغلو)

وعلى وجهه عصابة تغطي عينه اليمنى وعليها بقع

الدماء متكنا على مرافق من الجنود فساد الصمت حتى

جلس الأخير وقال بصوتٍ ضعيف:

(يحزنني أيها السلطان ما جرى لكن ما يقتلني حقا هو أنك تتهمني بالضعف والفشل كما سمعت! فأنا قاتلت وهُزمت فالحرب وأنت أدرى بها كُرّ و فرّ فلا أحب أن أسمى بالجبان وقت الفر وإني بين يديك فافعل ما تشاء).

قال السلطان:

(بهذه البساطة يا (سليمان) تعبر سفن جنوة أمام أسطولكم بأكمله دون خسارة سفينة واحدة؟).

كشف (سليمان بالدوغلو) العصاة عن عينه التالفة وقال:

(تشهد هذه معي أيها السلطان بأنني قد قاتلت ولم أقصر فإن لم يدافع عني أحد فهي كفيلة بالدفاع).

أطرق السلطان برأسه أرضاً مفكراً وقد شعر بتسرع في الحكم وبالآلم لما أصاب وزير بحره ثم رفع رأسه إليه وقال:

(إني مقدر لك دورك وكفاءتك لكن لا شيء سيتغير في نظام البحرية الذي أمرت به فأنت معزول من قيادة البحرية العثمانية ويحل بدلا منك (حمزة) بك أما عن الحكم بموتك فأنا أعفو عنك لما فعلته ولشهادة الضباط الجيدة في حقك).

التقط ضباط البحر أنفاسهم بمشقة وقد أنجوا قائدهم العظيم من الموت والأخير يعود للنهوض ويحيي قائده وسلطانه ثم يغادر و(زاجانوس) ينظر إليه بإشفاق بينما راح السلطان يرتب أفكاره محاولاً ألا يدخل مشاعره في

تفكيره وقد تبين له أن الحل البحري غير ناجح بالمرّة فلا مفر من تجاوز السلسلة، عند هذه النقطة من أفكاره تجمد عقله عند مشهد واحد رآه سابقاً في (أدرنة) لطابور من الجنود يعبر نهراً صغيراً ولم يعره اهتماماً وقتها لكنه الآن يبدو ملهماً بحق فبرقت عيناه في ظفر وقال لـ(زاجانوس):

(أريد خريطة لموقع (إستانبول) والبحر والمضيق والقرن الذهبي وأرضنا الأخرى قبالتة).

توجه الأخير إلى منضدة كبيرة في طرف الخيمة وفحص الأوراق المكدسة عليها ثم التقط إحداها وسلمها للسلطان وهو لا يفهم غرضه منها فالتقطها الأخير في لهفة والفكرة تسيطر عليه تماماً وراح يدقق في المسافة.

ثم التفت إلى (يحيى) و(زاجانوس) وقال:

(الليلة أريد كل قادة الجيش الكبار ومعهم القائد الجديد (حمزة) بك فإن توافقتا في الرأي فإني أعدكم بأن سفننا بعد الغد بإذن الله ستكون في القرن الذهبي وحينها مهما فعلوا فإننا سننتصر إن شاء الله).

تبادل القادة النظرات بحيرة وهم لا يفهمون قصد السلطان بينما تراجع الأخير على عرشه واسترخى وعلى شفتيه ابتسامة واسعة لم تظهر عليه منذ زمن طويل وفي عقله العبقري خطة جديدة عبقرية بحق.. ومفاجئة.

كونستانتينوبوليس، الثاني والعشرون من إبريل، العام ١٤٥٣.

جلس (جولياث) على حجر كبير في تلك المنطقة غير
المأهولة في شرق المدينة وفي يده عصا صغيرة يعبث
بها في حصى الأرض غير آبه بوحشة المكان من حوله
حتى سمع صوت حجر صغير ينقلب فابتسم دون أن يتكلم
و مضت ثوان ثم سمع صوت (لوكاس) يقول:
(بت أشك في عقلك أيها العايب بالعصا).

نظر إليه (جولياث) وقال:

(كانت لـ(موسى) عصا مثل هذه ألا تقرأ التوراة؟).
لم يكن البارون الأكبر بحالة تسمح له بالحديث خارج
الموضوع فجلس على حجر بجوار الحاخام وقال
مباشرة:

(هل ترسل لهم بانتظام؟).

أوماً (جولياث) برأسه دون نطق فعاد (لوكاس) يسأل:

(هل كل ما ترتب له يسير بانتظام؟).

لم يجب الحاخام وهز رأسه للمرة الثانية مما أثار انفعال
(لوكاس) فقال بغضب:

(لو تجاهلني أحد أفراد البلاط هكذا لألقيته في البوسبوروس).

ابتسم (جولياث) وقال:

(بكل أسف هذا ليس ممكنا الآن فسفن العثمانيين تملأ المياه ولا يمكنك رفع رأسك لتطل على البوسبوروس).

قال (لوكاس) بنفس الغضب:

(أنت تتجاوز حدودك معي كثيرا و..).

قاطعته (جولياث) بسؤاله:

(ما هي آخر أخباركم؟).

كظم (لوكاس) غيظه بصعوبة وأجاب:

(الكل فرح وسعيد جدًا بما حدث وبوصول السفن الأربع إلينا سالمة تسلل إليهم شعور بأن النصر ممكن).

اتسعت ابتسامته (جولياث) وسأله :

(وما رأيك أنت؟).

أجاب (لوكاس):

(كل هذا هراء! فالأربع سفن حملوا أبرع الجنود ويمتازون بالخفة وكان عامل المفاجأة معهم وأي محاولة منهم للهجوم البحري على سفن العثمانيين من داخل القرن الذهبي لن تؤدي للنصر بل لغرق سفن المهاجمين وحتى مع تلك الإمدادات ارتفع عدد المهاجمين لتسعة آلاف فماذا يفعل هؤلاء التسعة آلاف أمام ثمانين ألف مقاتل يحاصرون أسوار (كونستانتينوبوليس) على أية حال مهما كانت كفاءتهم،

بالأمس تشاجرت مع كل الضباط لإصرارهم على شن هجمات بحرية ضد سفن الأتراك و هي هجمات نهايتها الخراب).

قطب (جولياث) حاجبيه وقد بدت المعلومة خطيرة وسأل (لوكاس):

(وهل حددوا موعد للهجوم؟).

أجاب (لوكاس):

(كلا لقد اختلفنا وتم تأجيل المقترح).

سأله (جولياث):

(هل هذا كل شيء؟).

أوماً (لوكاس) برأسه فنهض الحاخام وقال:

(إلى هنا هذا يكفي! فلتعد لنلا تلفت لك الأنظار وأنا أظل مواظباً على مخططي ولا تنسى ففي حالة أوشكت المدينة على السقوط هناك ضرورة لنلتقي فوراً).

قال (لوكاس):

(أعلم فأنت تريد شيئاً ما مني في تلك الحالة ذلك الشيء الذي لا تريد الإفصاح عنه الآن).

لم يجب (جولياث) وغادر المكان بهدوء بينما (لوكاس) يراقبه بحذر حتى إذا ما غاب لملم الأخير أطراف ثوبه ونفض عنها الغبار وغادر وخلفه برز حراسه المخلصون واقترب أحدهم منه وقال:

(الذهب خبأته يا سيدي كما أمرت).

قال (لوكاس):

(عظيم، هل وضعته في العمق؟).

أجاب الحارس:

(نعم في عمق حفرة (بازيل) ولا أحد يعرف هذا المكان إلا أنا).

بدا الاستحسان على وجه البارون الأكبر وأكمل طريقه وقد اطمأن على نجاح مخططه الخاص لنيل رضا الأتراك بعيداً عن مخططات (جولياث) المجهولة وأكمل الطريق سيراً هو ورجاله حتى شارف قصره ليجد مشهداً عجيماً، كان عشرات الحراس بسلاحهم يحيطون بالمكان وعربات حربية تندفع باتجاه الشاطئ والكل مرتبك بشدة فأسرع (لوكاس) لقائد الحرس وسأله بلهفة:

(ماذا يحدث يا هذا؟).

أجاب القائد باضطراب:

(سفننا تتجمع قرب القرن الذهبي للهجوم على الأتراك). شحب وجه (لوكاس) وهرع جرياً إلى القصر وحراسه خلفه حتى ما إذا دلف لقاعة الإمبراطور صاح بغضب:

(ما هذا الذي يحدث ألم نتفق على تأجيل الهجوم؟).

أجاب (جوستنياني):

(لن نهجم بل نجهز لهجوم حاسم في خلال أيام لنطرد سفنهم خارج القرن الذهبي).

بدا عدم الفهم على وجه (لوكاس) وقال:

(تقصد بعيداً عن السلسلة؟).

قال الإمبراطور:

(يبدو أنك لا تعرف يا (لوكاس) أن سفن الأتراك دخلت القرن الذهبي وتجاوزت السلسلة).
 غابت الدماء تمامًا عن وجه (لوكاس) ونظر بذهول مذعور إلى (جوستينياني) الذي قال:
 (فوجيء رجالي بسفن الأتراك تتمركز في القرن الذهبي أمام السلسلة والعجيب أنها سليمة والأعجب أنها لا تأتي من اتجاه السلسلة بل من البر).
 قال (لوكاس):

(البر؟؟؟؟.. كيف هذا هل تبحر فوق الأشجار؟؟؟).
 أجاب الإمبراطور:

(لقد أخبرنا رجال البحر مع هبوط الليل أنهم لاحظوا حركة محمومة لقطع الأشجار على طول الطريق من مرسى العثمانيين إلى القرن الذهبي وكنا نتصور أن الأتراك سيبنون سفنا لكن يبدو أن السلطان قد فعل ما نتصوره خيالاً، إنه قطع الأشجار من مرسى سفنهم ومهد الطريق ثم فرد عليه ألواح الخشب المقطوع الممتزج بالشحوم والزيوت على الأغلب وانزلت سبعين سفينة عليه حتى هبطت للماء وهكذا باتت قواتنا تتواجه داخل القرن الذهبي معهم وهذا كله دون أن نرى شيئاً أو ننتبه والأدهى أن هذا حدث ليلاً).
 لم يتمالك (لوكاس) نفسه فقال:
 (إنه رجل مذهل بحق لا مثيل لعقله على صغر سنه).

احتقن وجه (جوستنياني) للعبارة الأخيرة بينما تجاهلها
الإمبراطور وسأل الأول:
(ماذا ستفعل الآن؟).
أجاب (جوستنياني) باقتضاب:
(سنراقب سفنهم ثم نهاجمها لاحقاً).
عاد الإمبراطور يسأل:
(هل لديك يوم للهجوم).
هز (جوستنياني) رأسه نفياً وقال:
(كلا فنحن سنختار اللحظة حين تأتي في أي وقت حسب
الأحوال و ليس هناك وقت محدد).
عاد الجدل للقاعة والأصوات تختلط من جديد والكل يبدي
قلقه وتخوفه من الحادث الجديد المحتمل بينما راح
(لوكاس) يعيد ترتيب أوراقه بعد هذا الحدث المفاجيء
فالسُلطان (محمد) ليس مجرد ملك غاز بل قائد له عقل
مبتكر قادر على الحكم والتخطيط والإدارة كذلك جيشهم
الذي سيهاجم بثمانين ألفاً يحيطون بالأسوار الآن
واحتياطي يرتفع في الخلف الى مائتين وخمسين ألف
متحدين على قلب رجل واحد متفقين على الموت في
سبيل النصر ودخول تلك العاصمة القديمة بينما الجيش
البيزنطي والمتطوعين الأوروبيين الآن تسعة آلاف
مقاتل فقط تفرق بينهم المذاهب الدينية والمخاوف التي
ستجعلهم يتقاتلون حتماً إن انتهت تلك الغمة، كل هذا
يجعل قراره الأول بالتعاون مع (جولياث) هو القرار

الصواب وها هي الأيام قادمة والله وحده يعلم ما تدخره
له الأقدار ولمدينته الغالية..
(كونستانتينوبوليس).

معسكر الجيش العثماني / الثامن والعشرون من إبريل / العام
١٤٥٣.

سار (حمزة) بك قائد البحرية الجديد بسرعة تقارب
الركض حتى وصل إلى مقر السلطان في معسكر الجيش
ودلف مؤديًا التحية له قبل أن يقول بصوت ممتلئ
بالفخر:

(تحقق النصر وثأرنا لما حدث منذ ثمانية أيام يا مولاي).
ارتسمت ابتسامة واسعة على شفطي السلطان وقال:
(بلغتني الأخبار قبلًا لكن أود سماعها منك).

قال (حمزة) في حماس:

(مع تمركز سفننا في القرن الذهبي وجدت سفن
الأوروبيين والبيزنطيين ضرورة للهجوم وقد توقعت هذا
فظللت منتظرًا إياهم طوال الأيام الماضية ويبدو أنهم
أخروا الهجوم حتى يضللوننا ويوهموننا بأن نيتهم
للهجوم ليست حاضرة لكنني توقعت هذا أيضًا مع وجود

الداهية (جوستنياني) معهم فقسمت فرق المراقبة طول الليل والنهار حتى أخبروني بتجمع سفنهم في تشكيلات كبيرة فانتظرنا حتى اقتربوا وبادرناهم بالهجوم وكثفنا النيران فارتبكوا بشدة واضطربت صفوفهم فانتهزت الفرصة وأمرت كل سفننا بالاشتراك في القتال فلم تنقطع النيران لحظة حتى أغرقنا لهم كثيرًا من السفن وفروا هاربين).

قال السلطان:

(الآن أثبت لي أيها القائد جدارتك وكفاءتك في منصبك الجديد، اذهب للراحة ولا تتوان عن متابعة كل شيء بنفسك لنلا تهاجمنا سفنهم فجأة).

قال (حمزة):

(بعد هذه الضربة القاتلة هم في انتظار معجزة ليقوموا بهجوم مشابه وعلى كل حال فأنا أقود الأسطول بنفسي وأتابع المراقبة).

بدا الاستحسان على وجه السلطان وأشار للقائد بالانصراف فأدى (حمزة بك) التحية للسلطان وانحنى مغادرًا بينما تسري كلمات التهئة بين الحضور والسلطان صامت ليترك لهم الفرصة لإفراغ إنفعالاتهم والذي لم يشك للحظة أنها تختلف عن مشاعر البيزنطيين وقت عبور السفن الأربع إلى (إستانبول) وهزيمة أسطول العثمانيين، دقائق مرت ثم قال السلطان:

(الآن ليغادر الكل ولا يبقى إلا الشيخ (شمس) وشيخ الإسلام (حكيمي) وقادة الجيش الكبار وأنت يا (يحيى) أيضاً).

انصرف الحضور من المجلس وتبقى القادة المعنيين الذين نظروا إلى السلطان بانتباه متسائلين عن الأمر فدار في وجوههم بغاية ثم قال:

(بعون الله وحده وتوفيقه استطاع رجال الجيش نقل السفن من المرسى إلى القرن الذهبي و بهذا نجد أنفسنا أمام حل وحيد هو الهجوم البحري عليهم لكن كذلك لا نجد إلا التخوف من نتائج هذا الهجوم عليهم وفي نفس الوقت سنخسر الكثير حتى نعبّر برجالنا إلى الميناء البيزنطي فلا أطمئن إلى هذا الحل ولا إلى أي فكرة تقود لهجوم على سطح الأرض أو الماء).

سأل (زاجانوس) باهتمام:

(هل تقترح الحصار حتى الاستسلام؟).

أجاب الإمبراطور:

(هذا ليس حلاً فيمكن أن تتجمع ممالك أوروبا لتتقدم وبدلاً من أن نفتح (إستانبول) نكون قد وحدنا أوروبا ضدنا).

قال (حمزة بك):

(لكن لا حل إلا الحصار أو الهجوم).

همّ السلطان بالإجابة لولا أن (خليل) باشا دلف إلى المكان حتى بدون انتظار الإعلان عن مجيئه وهو

غاضب عابس الوجه، ودون كلمة واحدة انحنى أمام السلطان وجلس وسط الحضور في تحدٍ بين لإرادة السلطان الذي لم يدعه لهذا الاجتماع ولم يهتم الأخير كثيراً فقد قال كأنما لم يحدث شيء:
(فليعبر رجالنا من باطن الأرض).
بدا الفهم على وجه (زاجانوس) فقال:
(الحفارون! فكرة رائعة بحق).
قطب أحد القادة حاجبيه وقال:
(هل من توضيح أكثر؟).
قال السلطان:

(منذ فترة أرسل لي (يورا برانكوفيتش) أمير الصرب عرضاً لتدعيم قوانا الحربية بحفارين خبراء يستطيعون تجاوز العقبات الأرضية في أرض بيزنطة فيحفرون أنفاقاً طويلة آمنة وسريعة ومنها ندلف إلى داخل (إستانبول) وقد أجبته بالموافقة وقبل مجيئكم أبلغني الرجال في أدرنة أن الحفارين قد وصلوا).
قال (خليل) باشا في شك:
(أمير صربيا العدو يفعل هذا؟!..
أجاب السلطان بمكر:

(نعم فهو لا يريد إلا السلام ويختلف عن (جون هونيادي) الملك الهنغاري فلا داعي لأن تخاف منه كما تخاف من (هونيادي) أيها الصدر الأعظم).

أخفى القادة ابتسامتهم بينما اندفع الدم لوجه (خليل) باشا دون أن يجد ردًا فأكمل السلطان وقد رد الإهانة التي قام بها الصدر الأعظم بمجيئه دون طلبه:
 (الآن ستكون فرق الحفارين مدعمة بجنود وضباط
 عثمانيين من جيشنا وستصير من فرق قواتك يا
 (زاجانوس) فلا تدخر مالا ولا جهدًا وفي أقل من عشرين
 يومًا بإذن الله ستكون عمليات الحفر قد بدأت فلا
 تتكاسلوا فإن طول الحصار من أكبر الأخطاء فهو يدفع
 الوهن إلى صدور الرجال ويطيح بما تصنعه الأيدي
 وربما يجعل من الهزيمة نصرًا لدى العدو فنكون
 بحصارنا قد حررناهم وهزمتنا أنفسنا بأيدينا وإني أسأل
 الله أن يوفقنا في فتح (إستانبول) كما وفق جيش (ابن
 الخطاب) في فتح القدس).

كونستانطينوبوليس / الخامس والعشرين من مايو / العام ١٤٥٣ .

بخطواتٍ واثقة سار (جوستنياني) حتى دلف إلى القاعة
الإمبراطورية وانحنى للإمبراطور الذي أشار له
بالجلوس وهو يسأله بلهفة:

(هل انتهى كل شيء؟).

أجاب (جوستنياني):

(نعم كل شيء انتهى وعدنا لوضعنا السابق مع الأتراك
الذي كنا عليه يوم الثامن والعشرين من الشهر الماضي،
لقد أنهينا بؤر الحفر العثمانية تمامًا وقضينا على كل
رجالهم الصرب والأتراك ولم تعد تلك الأنفاق تشكل
خطرًا).

سأله (لوكاس) باهتمام:

(كيف حدث هذا ومتى؟).

قال الإمبراطور مجيبًا بدلاً من القائد الإيطالي:

(أنا من أمر بجعل المسألة سرية حتى لا يتسرب الأمر بشكل أو آخر يا (لوكاس) للأتراك).
شحب وجه الأخير مع كلمات الإمبراطور فلم ينطق بينما أكمل:

(لقد قمنا بتوظيف ذلك الخبير الجرمانى (يوهانس جرانت) حين علمنا سرًا بوجود تلك العمليات الحفرية وتكتمت الأمر فلم يغادر (جوستنيانى) وقادة معدودين تولوا العملية وذلك الأوروبي الخبير ومنذ تسعة أيام وصلنا لنفقتهم الأول وبدأنا عمليات تدميره وقتل الأتراك والصرب بداخله ومنذ يومين أسرنا عددًا من ضباط الأتراك وبتعذيبهم قبل قتلهم أخبرونا بأماكن الحفر الأخرى فتولى (جوستنيانى) بنفسه تطهيرها وها قد نجح الآن).

قال (لوكاس) بتردد:

(هل القائد متأكد؟).

أجاب (جوستنيانى) :

(نعم والأتراك الآن لا يملكون نفقا واحداً وكل ضباطهم إما فروا أو قتلوا فلم نترك نفقا إلا وأفرغنا فيه النار حتى قضينا على الكل).

سادت تنهدات الراحة وتنفس الحضور الصعداء والإمبراطور يكمل:

(هي ضربة كبرى أحبطت كل مخططات سلطانهم ولا شك
أننا بهذا نطيل أمد الحصار مما سيجعله يفشل حتمًا كما
اعتدنا من حصار المسلمين لنا).
قال (جوستنياني):

(نعم ولعل الأنباء التي ترد لنا بقرب وصول أسطول جديد
تتحقق وهنا نستطيع الصمود أكثر فأكثر حتى يرحلوا
بالفعل وإن كنت أتمنى قتالا نربحه لننهي فيه أسطورة
حصار تلك المدينة التي لا تتوقف أبدًا عن التكرار، إن
الشيء الذي أرغب في معرفته حقا هو ماذا سيفعل قائد
الأتراك الآن وكيف سيكون رد السلطان على تلك
النكسة؟).

معسكر الجيش العثماني صباح السادس والعشرين من مايو/ العام
١٤٥٣.

كانت أجواء الحرارة خارج المعسكر أقل بكثير من
الأجواء داخل خيمة السلطان الكبيرة حيث سادت حالة
من الهرج والكل يصيح في الآخر وصوت (زاجانوس)
يظهر حيناً ويختفي حيناً بينما اشتبك (يحيى) مع (خليل)
باشا في حوار محتدم حول الحصار وكاد (حمزة) بك
يستل سيفه وهو يتشاجر مع أحد قادة الجيش ممن لا
يعجبهم رحيل (بالدوغلو) ووسط هذا أعلن قائد حرس
السلطان وصول الأخير فساد الصمت والوجوه محتقنة
محمرة والسلطان يدلف إلي الخيمة ويجلس في مكانه
ويشير لهم بالجلوس ثم أجال النظر في وجوههم وقال:
(سمعت أصواتكم من الخارج قبل وصولي ولا يليق بكم
أن تتشاجروا هكذا).
قال أحد القادة الكبار:

(إنها مصيبة أن نخسر كل هؤلاء الرجال بعد أن كدنا
ننهي الأنفاق).

اندفع قائد ثان يقول:

(الخطأ أن نستمر هكذا في الحصار يجب أن نهجم
وسريعا قبل أن يتحمس بعض ملوك أوروبا ويرسلوا
قواتهم للمدينة).

عادت الكلمات تتوالى من هنا وهناك فقال السلطان:

(لنأخذ الرأي فيما يجب أن نفعل).

بدأ القادة في الحديث واحداً تلو الآخر وكانوا متفقين
على ضرورة الهجوم إلى أن وصلت الكلمة إلى (خليل)
باشا فقال:

(فلننه الحصار وكفى ما حدث لجندنا).

قال السلطان:

(ونكون قد هُزمنّا من تسعة آلاف ونحن ثمانون ألفا، هل
هذا ما تقترحه أيها الصدر الأعظم؟).

قال الأخير:

(بل نحقق دماء لا حدود لها فملوك أوروبا لن يظلوا
صامتين وإن صمتوا اليوم لن يصمتوا للأبد ونحن بهذا
نفتح الباب لحروب لن تنتهي مع أوروبا أبداً).

تدخل (زاجانوس) قائلا:

(الصدر الأعظم يتحدث بما لا يجب أن يكون من رجل في
مكانته فهذا الأسلوب الرعدي الجبان عن المواجهة

المتخاذل سيحطم همم الرجال وينهي كل ما بدأه السلطان
(أرطغرل) منذ قرن ونصف).
التفت إليه (خليل) باشا وصاح بغضب:
(كيف تجرؤ أيها الألباني على إهانتني؟).
أكمل (زاجانوس) بقوة:
(نحن هناك نقاتل وأنت هنا تحفر لنا القبور فلا يمكن
لأحد أن يصمت بعد الآن إنني حتى بثّ أشك في ولائك لنا
بكلماتك هذه).
ازداد احتقان وجه الصدر الأعظم والتفت للسلطان قائلاً:
(أتقبل بتلك الإهانة لصدرك الأعظم؟).
أجاب السلطان:
(منذ البداية كلاكما تصيحان ولا تحترمان مجلسي فلماذا
أهتم بأي شيء؟).
بدأ الارتباك عليهما قبل أن يتنح (خليل) باشا ويقول:
(إن قصدي أن السلام هو الحل بينما الحرب خراب لا
لزوم له والإسلام قد أعطانا الحق في طلب الجزية فلماذا
نرفضها؟).
أجاب السلطان:
(كأنك تعيد حديثاً سبق وأنهيناه فطلب الجزية ليس
مقبولاً، بل المقبول هو دخول آمن لنا بدلاً من الدخول
الحربي لكن أن نترك (إستانبول) فهذا غير مقبول).
قال (يحيى):

(أول أمس كما علمتم أرسل السلطان لإمبراطور بيزنطة طالبًا تسليم المدينة فرفض التسليم مفضلًا الموت على أسوارها كما قال في رده وعرض دفع الجزية لكننا متفقون الآن على أن الجزية ليست مقبولة وإلا سقطت (بيزنطة) كلها في يد الأوروبيين الذين يتواجدون الآن بألفين من قواهم لكن مع رحيلنا سيأتي عشرات الآلاف مستغلين ضعف بيزنطة وبهذا نجد أوروبا وقد استولت على (إستانبول) وباتت تهددنا هنا وفي أدنة كذلك).
بدا الاستحسان على وجه السلطان مما شجع (يحيى) على الإكمال:

(كلنا نعلم بالبشارة النبوية عن الأمير وجيشه الذين يدخلان (إستانبول) ونحن أولى الناس بهذا الآن).
بدت السخرية على صوت (خليل) باشا وهو يقول:
(بالتأكيد فحسب البشارة إن تحققت ولم نفن في سبيلها فنحن أفضل من الصحابة أنفسهم الذين حاصروا (إستانبول) منذ قرون ولم يدخلوها أليس كذلك؟).
بدت نظرة المقت في عيني السلطان وقد أصاب الصدر الأعظم وترًا حساسًا لديه
وعلى الرغم من الخوف الذي تسلل إلى الصدر الأعظم إلا أنه أكمل بثبات:
(إنني لا أعتقد بصحة البشارة أصلا وأظنها مجرد إضافة من الأمويين إبان حصار المدينة في عهد (معاوية بن أبي سفيان) وأظنها باتت سببًا في الحصار المتكرر

للمدينة عبر العهود المتتالية ويشجع الملوك على تكرار الأمر لينالوا البشارة).
كانت إشارة (خليل) باشا واضحة للسلطان فالتفت بوجه يتقد من الغضب إلى الشيخ (شمس الدين) وشيخ الإسلام (حكيمة) وقال:
(هل الحديث سليم أم لا يا علماء الأمة؟).
سارع الشيخان إلى التأكيد على مصداقية الحديث فالتفت السلطان إلى الحضور قائلاً:
(فلينهض منكم من يؤيد الهجوم).
نهض الكل وبقي الصدر الأعظم جالساً فقال السلطان وعيناه تشتعلان لهيباً من غضب:
(قُضي الأمر إذن! ولا كلمة للمتخاذلين.. فلنحشد القوات استعداداً للهجوم النهائي في جميع أنحاء الحصار ولتعلنوا في الرجال أن الإعداد النهائي للحرب المقدسة بدأ الآن ولن ينتهي إلا باقتحام أسوارها..
(استانبول) اللعينة).

(كونستانطينوبوليس) / صباح التاسع والعشرين من مايو / العام
١٤٥٣.

في باحة قصره وأمام خليط من الجنود والقساوسة
يتوسطهم الكاردينال (إيزدور) وقف الإمبراطور الأخير
(قسطنطين الحادي عشر) وهو شارد البصر مذهول بما
بات حقيقة يحياها كأنها الكابوس الذي يجثم على الصدر
فلا يتركه بل ينتزعه حتى يقضي عليه، وقف الإمبراطور
وطبيبان يداويان جروحه الغزيرة وهو لا يشعر بالألم
منها فألمه أكبر من الكلمات، وقف قبالة القائد الوحيد
الكبير الذي بقي حيًا من قادة التسعة آلاف رجل قاتلوا بلا
استسلام ثمانين ألفا من الغزاة المتعطشين لأرض لا
ينتمون إليها ولا يعرفونها، يستمع إليه وهو يبلغه بأن
جيش العثمانيين قد اقتحم الأسوار وانتشر في المدينة
يقاتل من طريق إلى طريق ومن بيت إلى بيت وبقايا
قوات البزنطيين والأجانب الأوروبيين لا يستسلمون وإن

أصابتهم الجراح بل يقاتلون حتى الموت، كم هي مشاعر العجب التي انتابته فهو غادر الميدان منذ قليل وها هي الدنيا تنقلب وهو ليس فيها بل هو في قصره حيث يداويه الأطباء وجنوده يموتون وكل واحد فيهم يواجه تسعة جنود من الأتراك حيث لا أمل ولا نجدة.

خرج الإمبراطور من شروده على صوت أحد القساوسة الشرقيين وهو يقول:

(الرب لا يرضى بهذا ولا يترك أبناءه لهؤلاء الغزاة يقتلونهم ويأخذون أرضهم المقدسة، الرب سيرسل لعناته عليهم والنجدة لنا).

رسمت الكلمات اليانسة بسمة الحزن على شفاه الإمبراطور ونظر إلى الحاضرين الخائفين ثم ركزت عيناه نظراتها على (إيزدور) وقال له:

(أيها الكاردينال قد أديت مهمتك هنا وأن لك أن تعود لروما!).

بدا عدم الفهم على وجه الأخير فقال:

(أترككم الآن وقد جاءت النهاية؟ إنني لم آت لأهرب بل..).

قاطعته الإمبراطور:

(كفى ولا تزدد من الحديث فقد نتحدث حتى نجد عمائم المسلمين تقتحم باحتنا فلا تضيع الوقت وأبلغ رسالتي الأخيرة لبابا روما، حين تراه قل له إن الإمبراطور البيزنطي الأخير يبلغك أن (كونستانتينوبوليس) قد

سقطت وما يليها إلا روما وبعدها فيينا وفلورنسا وسائر مدن أوروبا لا شيء إلا لضعفنا فهؤلاء بالخارج ما كانوا ليدخوا المدينة إلا بانقسام الأراضي المسيحية فقوتهم لا تظهر إلا بضعفنا وعفتهم لا تبين إلا بفسادنا وحين نتمدد أرضاً فحتمًا سيأتي من يظأ أجسادنا بدلا من الأرض! أبلغ العالم المسيحي أيها الكاردينال أن مدينة المسيحية بالشرق منذ الغد سترفع كلمات الإسلام لتكون درساً للأمم المسيحية حتى تتوقف عن التناحر والجدال وتتوحد في المسيح بدلا من أن تتفرق في سبيل التاج).
 أنهى الإمبراطور كلماته ونظر إلى الطبيب وقال:
 (لا أريد العلاج! فقليل من الوقت يفصلني عن الموت فلا فائدة من الطب الآن).
 قال القائد معترضا:

(لا داعي للتشاؤم يا مولاي ولنرحل الآن إلى أوروبا حيث نحشد القوى من أجل..).
 قاطعه الإمبراطور بصوته القوي:
 (فلندع أوروبا لما فيها! فلو كانت تريد المساعدة لفعلت منذ زمن إني لا أريد منها إلا أن تعي الدرس فقط ومن يدري!.. أيها القائد، لعل يوما ما تدخل أساطيل أوروبا ظافرة للميناء بعد حرب طويلة فيرى الميناء الذي دخلته سفن العثمانيين سفنا أوروبية منتصرة بعد حرب طويلة وحينها لن نجد أي شيء الأتراك وسيرون ذل الغزو كما

نراه ولا شئ سينجدهم حينها إلا المعجزة.. فقط المعجزة).

حاول القائد الاعتراض قائلاً:

(هل نكتفي بالجلوس حتى يأتوا فقط؟).

هز (قسطنطين) رأسه نفياً بهدوء لا يتناسب مع الموقف وقال:

(بل سنقوم الآن ونقاتل كما يقاتل (جوستنياني) المصاب الذي يريد الاستشهاد فداء للصليب كرفاقه الأوروبيين الذين سبقوه في السماء ولكن قبلاً أريد منك أن تساعدني لخلع كل شاراتي الملكية ودروعي الإمبراطورية لأتساوى مع كل جنودنا وأقاتل حتى الموت).

بدت الصدمة على وجه القائد فقال (قسطنطين):

(لا تيأس يا رجل فقد سقطت القسطنطينية وأنا حي ومعها لا بد أن أموت فأحدنا لا يبقى دون الآخر وإن موتي كجندي لا يميزه أحد هو خير ما أختتم به حياتي وليشهد العالم الغربي كيف يقاتل آخر أباطرة بيزنطة حتى يموت دفاعاً عن المدينة المقدسة).

وساد صمت إلا من أصوات الانفجارات وصيحات الموت الأسود..

على مسافة ليست بكبيرة من القصر كان الحاخام (جولياث) يواجه (لوكاس) قائلاً:

(الآن حانت اللحظة أيها البارون الأكبر وحن وقت الطلب الأكبر).

بدا التوتر على وجه (لوكاس) وقال:
 (الآن؟.. إنني أخشى أن أرى جنود الأتراك هنا وكنت
 سأختبئ لولا أن جاء (بنيامين) هذا وأخبرني بطلب
 رؤيتي فهل تراني ذا نفوذ الآن؟).
 اجاب (جولياث):
 (طلبي تقدر عليه.. ضعني و(بنيامين) في السجن).
 بدت الدهشة على وجه (لوكاس) للحظة ثم انقلبت إلى
 نظرة إعجاب وقال:
 (يهودي ماهر أيها العجوز!).
 قال (جولياث):
 (بهذا تكتمل الخطة ولتعلم أنني من اليوم (جولياث)
 المسلم منذ عام كامل لا تنسَ هذا أبداً).
 ازداد الإعجاب على وجه البارون الأكبر وقال:
 (نعم! مسلّم أتى ليتجسس لصالح بني دينه أفهمك أيها
 الماهر).
 وساد صمت إلا من أصوات الانفجارات وصيحات الموت
 الأسود..

كونستانتينوبوليس، أمام كاتدرائية آيا صوفيا، التاسع والعشرون من
مايو، العام ١٤٥٣.

وسط الهرج الشديد والفوضى التي سادت في
(كونستانتينوبوليس) شق (يحيى) الطريق المؤدي إلى
(آيا صوفيا) بصعوبة وعلى الجوانب تكدست جثث جنود
البيزنطيين والناس تعدو في كل مكان وسط ارتباك هائل
لحركة جنود العثمانيين الذين لم يتوقعوا أن تنهار أسوار
المدينة بسرعة فدلخوا إليها مسرعين بدون توجيه من
قائد كبير لتنتشر أعمال السلب لكل ما يصلح كغنيمة حتى
امتد الأمر للبشر ليصير بعضهم غنيمة للحرب وسط
محاولات بعض الضباط منعهم بصعوبة و(يحيى) الأكبر
رتبة يرى ما يحدث ويمنعه بيده حتى ترجل من على
حصانه ليفض بعض أعمال الجند بنفسه وبينما هو في
تلك الحالة وصل إليه أحد معاونيه قائلاً:
(أيها القائد! أنجدنا سريعاً قبل أن يصيبنا غضب الله!).
التفت (يحيى) إلى الجندي بتساؤل فقال الأخير:

(جنود الإنكشارية تفرقوا وتوحشوا في كل أرجاء المدينة وعمليات سلب ونهب تجري في كل مكان والدماء غزيرة إنهم يقتلون بلا رحمة كل من يرونه حتى طال الأمر النساء ويتردد بين الجند أنهم يهتكون الأعراض).

بُهِت (يحيى) لما سمع وقال:
(كلا! هذا غير حقيقي القائد (حسن) قائد فرقهم لا يمكن أن يأمر بهذا).

خفض الجندي رأسه بحزن وقال:
(إننا نحتسب عند الله القائد (حسن أو غلوباتلي) فقد كان من أوائل من دخلوا وقاتلوا ضد فرقة (جوستنياني) الأوروبية واستشهد).

لم يدر (يحيى) ماذا يقول فقد هوى عليه الخبر كالصاعقة فضم قبضتيه في ألم للحظات ثم قال:
(فليرحمه الله وليرزقنا شهادته إنا لله وإنا إليه راجعون ولتعلم أيها الجندي لن يقبل السلطان بهذا الذي يحدث أبداً، أين جنود الإنكشارية الآن؟).
أجاب الجندي بلهفة:

(في كل مكان إنهم يتوسعون كالجراد حتى بات الجنود الآخرون يقلدوهم في أعمالهم لكن أكثر الإنكشاريين يحاصرون كنيستهم الكبرى (أيا صوفيا) حيث احتشد فيها الآلاف من سكان المدينة والرهبان والراهبات يصلون ويرتلون منذ الأمس وقد استعصموا فيها منتظرين نجدة ما، وأخشى أن يسلبها هؤلاء الجنود الحمقى).

ما إن سمع (يحيى) اسم المكان حتى غادر بحصانه مسرعاً بكل ما يستطيع وسط تلك الفوضى إلى حيث الكنيسة التي يعرف مكانها جيداً من خرائط المدينة وقد هاله ما يراه في الطريق من تخريب وفزع لكن حتماً ما رآه حين وصل إلى الكاتدرائية كان بشعاً بحق ففي تلك اللحظة كان البعض من المتحصنين داخل الكاتدرائية قد فتحوا الأبواب فاندفع مئات من الجنود المحاصرين للداخل لترتفع أصوات الصراخ والعيول وصيل السيوف فهبط (يحيى) من على حصانه وركض إلى أقرب الضباط الإنكشاريين وصاح فيه:

(ماذا تفعلون أيها التعساء من أمركم بهذا؟).

لم يكن الضابط يعرفه لكن بنظرة واحدة لزي (يحيى) أدرك أنه من القادة على الرغم من صغر سنه فقال باحترام:

(إن المرابطين داخل الكنيسة وافقوا على الاستسلام وفتحوا الأبواب ونحن الآن ننظفها منهم ليدخلها السلطان بعد قليل).

قال (يحيى):

(تنظفون ماذا؟؟.. ألا تسمع صوت الناس بالداخل ألا تسمع الصراخ وترى الدماء من هنا؟).

أجاب الإنكشاري:

(إن هؤلاء من أهل المدينة ورجال دينهم! لكن لا أحد يعلم ماذا يحدث فربما هناك مقاتلون بالداخل).

لم يكن (يحيى) مستعداً لسماع كلمة أخرى فامتطى جواده واقتحم ساحة الكنيسة ليرى بعينه الجنود وهم يعبرون فوق جثث رجال ونساء إلى الداخل ولا أثر لجندي بيزنطي بينهم فلكرز جواده حتى بات داخل المكان ليرى ما هو أسوأ حيث كان جنود الإنكشاريين يرفعون كل ما هو نفيس من ذهب وفضة حتى الصلبان رفعوها وعلى الأرض مئات من الجثث والجرحى من رهبان ومدنيين في حين كان صراخ النساء المدنيات والراهبات لا يتوقف فراح يجول بعينه بين ضباط وجنود يعبثون بالمكان كما يشاءون ولا يعترضهم أحد والباقون من المعتصمين يفرون في كل اتجاه للهرب من داخل الكنيسة، دقائق مرت وهو يحاول السيطرة عليهم ويصرخ في الجنود بالتوقف عن السلب والقتل لمن يعترضهم حتى انضم له بعض الجنود والضباط من غير الإنكشاريين وراحوا يفرضون النظام قدر الإمكان بالداخل ويدفعون المدنيين ورجال الدين للخارج ووسط هذا وقعت عينا (يحيى) على مشهد غريب.

كانت هناك امرأة تصارع جندياً يريد حملها للخارج وذراعه مصابة وهي تصرخ بكلمات غير مفهومة فهبط (يحيى) من على الجواد واستل سيفه صارخاً:

(اتركها أيها الجندي وإلا تعرضت لغضب السلطان!).

تراجع الجندي للخلف وقال:

(فلتتركني هي لقد قتلت جندياً حتى الآن انظر للخنجر الماضي في يدها).
 بدت الدهشة على وجه (يحيى) ونظر إليها وهو يتراجع إلى جوار الجندي بدوره قائلاً:
 (هل أنت مقاتلة من البيزنطيين؟).
 لم تجب بحرف وظلت ممسكة الخنجر بثبات وعينا (يحيى) تلاحظان الضابط الذي حدثه بالخارج وهو يقترب منها بحذر فقال محاولاً لفت انتباهها بعيداً عنه:
 (ما أعرفه أنكن معشر النساء لا تحملن السلاح!).
 ظلت على صمتها الحذر والضابط يقترب أكثر لكن كانت عينا الجندي بجوار (يحيى) متركزتين عليه فانتبهت لما يحدث لتلتفت صارخة إليه وتقفز عليه مغمدة الخنجر في ذراعه فصرخ ويده تمتد إلى سيفه لكن (يحيى) قفز إليهما بخفة وضرب مؤخرة رأسها بقبضته فاتفقت انتفاضة شديدة ثم سقطت مغشياً عليها والضابط يقول:
 (تلك الحقيبة لن يشفع لها جمالها وسأقتلها!).
 نظر له (يحيى) بازدراء وأشار إلى ثلاثة جنود من فرقته كانوا قد وصلوا تَوّاً فهرعوا إليه فأشار لهم قائلاً:
 (خذوا هذه الأسيرة إلى معسكرنا وضعوها في خيمتي واطلبوا لها الطبيب).
 حملها الثلاثة بسرعة وانطلقوا للخارج و(يحيى) يجيل النظر حوله بحزن وآثار الدماء على الأرض والنهب مستمر وإن خف قليلاً ثم عاد إلى حصانه بخطوات

متناقلة ليلحق بالجنود الثلاثة إلى المعسكر مندفعاً مباشرة إلى خيمة السلطان حيث دخل بصعوبة وسط الحشد الكبير من الشيوخ وعلى رأسهم (شمس الدين) وشيخ الإسلام وعدد من القادة الكبار بينهم (زاجانوس) فاخترقهم (يحيى) حتى مجلس السلطان الذي نهض واحتضنه قائلاً:

(انتهى الأمر يا (يحيى)! لقد حققنا البشارة وهوت (إستانبول) ونحن الآن نجهز لدخول المدينة جميعاً فحسن فعلت أن جئت الآن).

قال (يحيى):

(فليعذرني مولاي! فقد كنت في ميدان القتال كأى ضابط بالجيش يجب أن يكون هناك بدلاً من ترك أكثر الجنود بلا ضباط).

سأله السلطان:

(ماذا هناك يا (يحيى) تبدو متغيراً؟).

أجاب (يحيى) بمرارة:

(ما حدث ستسجله كتب التاريخ يوماً أنه جريمة في حق الناس والدين إنني أتيت من مدينة تنتهك وتستباح فلا آمن فيها لقد مررت على جثث الناس مختلطة بجثث جنودهم فلم أفرقها ورأيت جنوداً في فوضى المعركة ينهبون بيوت الأمنين وحتى الناس بعضهم تم اقتياده كعبد يباع بعد أن كان حراً، أين الضباط لوقف هذه الفوضى؟).

نظر السلطان بتساؤل لضباطه الكبار فاتبرى أحدهم قائلًا:

(هذه الفوضى تحدث في كل المعارك الكبرى ولا أحد منا أمر بهذا بل إن السلطان نفسه الآن قد أقر لكل الهاربين بني الحصار العودة والسلام والأمن لهم ولعباداتهم ومالهم).

قال السلطان:

(وأضيف الى هذا تعويض كل من أضير فليس (محمد بن مراد) من يقبل بهذا أبدًا وإنني قد أضفت الآن أمرًا بسحب كل جنود الجيش من المدينة وإعادة من كانوا يديرونها من البيزنطيين لها لحفظ النظام والأرواح). سرت كلمات الاستحسان بين الأفواه وبدأت الراحة على (يحيى) وظل يتابع ما يجري بين الحضور في ترقب وبين الحين والآخر يهمس له أحد القادة بمعلومة هنا وهناك فالإمبراطور اختفى والقائد (جوستنيان) مصاب واختفى هو الآخر أما الكاردينال (إيزدور) فقد هرب ولا أحد يعلم عنه شيئًا أما الخبر الأهم فهو أن (لوكاس) البارون الأكبر مازال حيًا وبمقتضى أمر السلطان فهو سيعود ليتولى إدارة المدينة جزئيًا لفرض النظام والحفاظ على أرواح الناس وأموالهم وكان هذا الخبر أكثر ما أراحه فالمدينة ستستعيد هدوءها بحق حين يديرها من يعلم بخباياها.

مرّت ساعات النهار حتى اقترب على نهايته فنهض السلطان ومعه القادة والشيوخ في موكب عظيم سار حتى أبواب المدينة ثم توقف لبرهة ينظر إليها من الخارج وقد هابه الموقف العظيم ثم نظر إلى الأرض متأملاً وهبط من على جواده إلى الأرض منحنياً عليها ليقبض على حفنة من ترابها ثم يسقطه على رأسه وسط دهشة من حوله ونظر إليهم قائلاً:

(هذا حتى لا ننسى أننا من الأرض وإليها مرجعنا وإن طال الأمد ولنحمد الله على فتحه العظيم لنا ولكيلا يتسلل إلينا الكبر والعظمة فنهلك بلا عودة).

عاد السلطان إلى فرسه وأكمل المسيرة ليستقبله عدد كبير من بقايا سكانها وعلى رأسهم رهبان وقساوسة فحياهم السلطان مربتاً على جواده الأبيض الذي أهداه له أهل (كونستانتينوبوليس) في إشارة لهم بالشكر وساروا جميعاً في الطرقات التي تهدم معظمها متلقين تحيات أهلها بعد أن علموا من القساوسة قرارات السلطان التي بدت لهم كمنحة لا تعوض من الغزاة، متأملاً ما حوله كأنه طيف وصار حقيقة راح السلطان (محمد) يجيل البصر فيها هي المدينة تخلق عليه لقب الفتح وتجعله محقق البشارة النبوية وتلك الرؤوس قد انحنت لسيف الأتراك.

انتهى الطريق بكاتدرائية (أيا صوفيا) فهبط السلطان تقديراً واحتراماً وسار إليها في صمت وحوله حاشيته

حتى عبر ردهتها الواسعة ودخل إليها يتأمل ما حوله في انبهار وقال:

(إن معناها في لسانهم حكمة الرب وهي كذلك فلن تتغير أبداً وستظل (أيا صوفيا) لكن منذ اليوم وإلى يوم الدين ستظل مسجداً يذكر فيه اسم الله فليأت من يؤذن بنا للصلاة).

تعالى صوت المؤذن وأُمَّ السلطان الصلاة وسارت المراسيم الدينية بهدوء الظافرين ثم تلتها مراسيم مقابلة وفود طوائف المدينة الدينية ومندوبي طوائف عمالها وتجارها ثم لقاء القساوسة ورجال الكنيسة الذين تلقوا خبر تأمين السلطان لدينهم ومقر كنيستهم الكبير ونصف كنائسهم براحة بعد أن كانوا متشائمين جداً وتلى هذا وفد قليل يضم باقي مسئولى المدينة من غير المنتمين للحكام والآخرين من كبار القوم ومنهم (لوكاس) الذي بدا مرحباً جداً بالسلطان مثنياً على عدله وذكائه بشكل أثار ابتسامات السخرية بين الحضور جميعاً في حين شعر (يحيى) ببعض الضيق مما يجري حوله فتلك الكنيسة الكبيرة التي هي قبلة المسيحيين بالشرق بعد أماكنهم المقدسة بفلسطين باتت مسجداً ومعها نصف كنائس (كونستانتينوبوليس) أيضاً لتصير مساجد وتتغير أسماؤها فذلك لا يفهمه كرجل مسلم وضابط يعرف تقاليد الحرب في الإسلام لكنه على شعوره هذا لم يبد شيء على وجهه وظل مبتسماً وهو يرى احتفالات النصر

ويسمع تلاوة القرآن وعيناه تراقبان بحذر الصدر الأعظم (خليل) باشا وقد اكفهر وجهه وبدا عليه الضيق والترقب ورجاله محيطين به بشكل كان يوحي بالتحدي لأي خطر قد يحيق به في حين أخذ (زاجانوس) وعدد من الضباط ركنا يراقبون منه كل ما يحدث استعدادًا للتدخل لو حدث ما لا يخطر على بال أحد، بمرور الوقت وجد (يحيى) نفسه يغادر بعقله كل الحضور ويفكر في تلك المرأة الغاضبة التي قابلها في (آيا صوفيا) صباح اليوم فكم هي جميلة تلك المرأة وكم تبدو بعيدة عن سفك الدماء بعينيها الجميلتين وذلك الشعر المنسدل بلون الذهب، إنه اطمأن على أمانها في خيمته وعلاجها من إصابة في ساقها لا يعرف من أين جاءت وليضمن بقاءها معه عرض أمرها على السلطان وطلبها كغنيمة حرب منه فوافق على الفور، لكن من هي! ولماذا تلك الكراهية على وجهها دون نطق كلمة واحدة ولماذا كانت في تلك البقعة التي لم يتواجد فيها حتى في أيام الحصار إلا الرهبان والقساوسة والراهبات فقط بينما هي لا ترتدي زي الراهبات؟ أسئلة عدة شغلت باله وجعلته يشفق للعودة إلى خيمته ليتحدث معها ويعرف من هي تلك الفاتنة سارقة فؤاده منذ أن رآها تقاتل كالجندي المحترف.

كان الكل بالمدينة بين محتفل ومنتحب، بين من يخرج السيف ويرقص فرحًا أو يكسر سيفه وقد شعر أنه غير جدير به وكذلك الجنود القلائل الفارين بيبكون مدينة

الشرق التي سقطت بأيدي رجال قبائل أتوا يوماً من
وسط آسيا متنقلين واليوم باتوا في أعز أجزائها حكماً
آمرين وأهلها محكومين أو فارين ينتظرون إذن الغازي
للعودة، باتت المدينة بين منتصر ومهزوم مدينة رحل
من حكموها ألف سنة وأتى إليها من قد يحكمها ألفاً
أخرى، نهضت دولة جديدة يرفرف عليها شعار جديد
ودين جديد بينما انزوت بيزنطة بشعارها ودينها لترقد
في كتب التاريخ كحضارة انتهت وإمبراطورية سقطت
تحت سنانك خيل الأتراك وبسيوفهم اللامعة وتخاذل إخوة
الصليب في أوروبا تماماً كما كان يخشى آخر أباطرتها
(قسطنطين الحادي عشر) فسقطت بيزنطة
و(كونستانتينوبوليس) و معها سقطت هي الأخرى..
(أيا صوفيا).

* الفصل الثالث : *ابنة البارون*

إستانبول، صباح الأول من يونيو، العام ١٤٥٣.

بشغف كبير تأمل (يحيى) شروق الشمس من نافذة كبيرة بمنزله الجديد بـ(إستانبول) الذي منحه له السلطان (محمد) الذي تلقب بالفتح تيمنا بهذا النصر الكبير حتى يضيء له طريق الفتح والسياسة لاحقا، كانت الشمس مثار إعجابه دوماً فهي تذكره بتلك السلطنة التي ينتسب إليها الآن في ضوءها الذي يبدأ لمحة صغيرة تزداد حتى تغطي ولا يغلبها شيء فهم كذلك قبائل أتت من وسط آسيا وتنقلت بين السلاجقة والمغول حتى أسست لنفسها دولة قوية سيطرت على الأناضول وما جاورها من إمارات بيزنطية مفككة حتى بلغة أوروبا ثم (إستانبول) نفسها فتلك شمس في السماء والأتراك شمس على الأرض.

استغرق (يحيى) وقتا ليس بقليل حتى أنهى تأمله وسار في ردهة طويلة قاصداً غرفة مغلقة في نهايتها ظل واقفاً بتردد أمامها وهو لا يعرف أيدخل أم ينتظر المزيد من ضوء النهار فالفاتنة التي نالها من السلطان لم يرها أو يقابلها منذ يوم (أيا صوفيا) حيث استغرق وقته كله في تنظيم انسحاب الجيش من (إستانبول) وعودته لما وراء الأسوار وبعدها كان في حضرة السلطان منشغلا بالمشاركة مع بقايا البيزنطيين وعلى أسهم (لوكاس) في تنظيم المدينة وإدارة شئونها وتأمين الكنائس الممنوحة لنصارى المدينة ومازال إلى الآن لم يقابلها ولم يبت ليلة في بيته إلا ليلته السابقة، همّ (يحيى) بالعودة إلى جناحه لكنه سمع حركة بالداخل توحى باستيقاظ ساكنة الغرفة الأثيرة ففتح باب الغرفة ودلف إليها قائلاً:

(السلام عليكم.. كيف أنت هذا الصباح؟).

انتفضت ساكنة الغرفة بقوة لسماعها صوته والتقطت حرملة فضفاضة وضعتها على جسدها ثم التفتت إليه قائلة بحدة:

(كيف تدخل غرفتي دون إعلان عن وجودك واستئذاني؟).

بدت الدهشة على (يحيى) لهذا السلوك من جارية غنيمة حرب وقال:

(أستأذن على إحدى نساء بيتي؟).

صاحت في إستنكار:

(إحدى نساء بيتك؟.. هل جننت يا هذا؟).
 قال (يحيى) بغضب:
 (إياك أن تخاطبيني هكذا فمهما كنت جميلة فأنت جارية
 لا تزيدين عن هذا).
 قالت بدورها:
 (وإياك أن تسميني جارية فليست (صوفيا) ابنة البارون
 (ميراكوريس) من تسبى أو تكون لرجل من العدو).
 كانت لهجة (يحيى) ساخرة غاضبة وهو يقول:
 (لا تنس إذن يا ابنة البارون أنني من أنقذك في مسجد
 (آيا صوفيا) حين كدت تقتلين بعد أن قتلت جندياً منا).
 رفعت (صوفيا) سبابتها في وجهه قائلة:
 (شيء آخر لا تقله أمامي يا خادم اللصوص! فليست (آيا
 صوفيا) مسجداً لكم تمارسون فيه طقوسكم بل هو بيت
 الرب الذي سرقتموه إنها كنيسة ولن تتغير مهما
 نهبتموها أو حرفتم اسمها).
 صرخ (يحيى) بوجهها:
 (إن الغزو ليس سرقة ونحن غزاة وملوك يا بنت البارون
 فلا تسيئي الأدب وتتجاوزي الحدود ولا نلت عقابك).
 سألته بلهجة امتزج فيها الغضب بالغضب:
 (وهل للفارس العظيم (يحيى) أن يخبرني ما هو عقابي
 في قانون بني عثمان غزاة العصر الجدد؟).
 أجاب (يحيى) وقد فسد صباه تماماً:

(القتل.. فلو أنني قتلتك الآن يا بنت البارون السابق فلن يحاسبني أحد جراء ما قتلته).
وعلى الرغم من حساسية الموقف فقد ضحكت بصوت عال وراحت تهز رأسها فصاح فيها:
(هل تستهزئين بي يا هذه؟).
أجابت بمرارة:

(بل أنت من يستهزىء بعقله يا هذا فتهديك لي بالقتل لا قيمة له فلا أحد منكم سيحاسبك لو قتلت بيزنطية ولا سيما من أسر بارونات سابقين قتلتموهم بسيوفكم وسرقتهم بيوتهم أم أنك لا تعرف من كان صاحب بيتك هذا الذي تحيا فيه؟).
تقدم إليها (يحيى) وهوى على وجهها بصفعة قاسية وقال:

(إياك أن تكرري إهاناتك هذه فأنت اليوم جارية بعد أن كدت تصيرين أقل وأحق من هذا لولا أن وقعت في يدي أنا ولا تتصورى أن جمالك سيشفع لك لو سمعك جاسوس للسلطان وأبلغه فمصيرك القتل).
رفعت (صوفيا) وجهها إليه مباشرة وقالت:
(وأنا كذلك أذكرك من أن تكرري إهانتك هذه فأنت اليوم غاز لبلادي وعدو لي قتلتم أباه وخطيبها وأسرتموها ولا تتصور أن كلمات الرب التي تجعل قتل النفس خطيئة ستمنعي من قتل نفسي لو فعلتها ثانية).
قال (يحيى):

(حتى لو كنت ابنة الإمبراطور نفسه فأنت الآن جارية مملوكة لي وهبك لي السلطان بعد أن هزمتكم قوات بلادنا هذا هو القانون إن كنت تعين عصر القوة الذي نحيا فيه الآن).

قالت (صوفيا) و قد امتلأت بالكراهية:

(لا تزيدون عن أصولكم القبلية التي جعلتكم مجرد مرتزقة من وسط آسيا تقاتلون المغول لصالح السلاجقة ثم تنتقل بكم الأيام لتصيرون ملوكا فلم تغير فيكم الأيام شيئا ولن تفعل، لكن هل تظن أن الأيام لن تدور بكم وتصيرونا مثلنا؟).

أجاب (يحيى):

(لسنا بفسادكم و انحلالكم لنصير مثلكم).

أنهى (يحيى) كلماته والتفت مغادرا وقبل أن يصل لباب غرفتها الكبيرة سمعها تقول:

(يوما ما في هذا الميناء الكبير الذي عبرتم إليه سترسو سفن مسيحية أخرى تحرر المدينة و(أيا صوفيا) وكل كنائس الأرض التي استوليت عليها وفي شوارع (كونستانتينوبوليس) سيمرح جنودهم وينهبونها كما نهب جنودكم ممتلكاتنا فالدنيا لا تتجدد بل تتجدد وحينها لن ينجدكم أحد).

لم يستطع (يحيى) أن يكمل الحديث الصارخ وقد امتلأت رأسه بصداع غريب فاكتفى بالقول:

(نحن لا نختلف عنكم وراجعي حكمكم وفتوحاتكم فنحن
غزاة وأنتم كنتم غزاة فحاسبي (بيزنطة) قبل أن
تحاسبيني فتلك سيرة الملوك التي لقتك إياها أبوك
البارون حتمًا وهو يربيك).

غادر (يحيى) غرفتها عائداً إلى النافذة يشاهد الشمس
تمخر عباب السماء في رحلتها اليومية حتى الغروب
الذي يكرهه بقدر حبه للشرق فشمس (بيزنطة) غربت
وأشرقت شمسهم فهل تتحقق مخاوفه وكلمات (صوفيا)
ويأتي يوم تغرب فيه شمس بني عثمان وتسقط الدولة
العثمانية لتشرق شمس أخرى..

هل؟

إستانبول، مساء الأول من يونيو، العام ١٤٥٣.

لأول مرة منذ الغزو اجتمع مجلس السلطان بأكمله في قصر (لوكاس) الجديد الموكل من السلطان بالإشراف على المدينة المفتوحة وإعادة النظام لها وتسليم كل شيء لأصحابه وبدأ الشيخ (شمس الدين) الجلسة بخطبة طويلة حول تاريخ الفتوحات الإسلامية منذ العهد الخطابي حتى عهد السلطان (محمد الفاتح) وأسهب كثيراً في وصف المعركة حتى تأثر الكل باستثناء (خليل) باشا الذي كان مصفر الوجه وبين الحين والآخر ينظر إلى حرسه في نهاية الخيمة وقد شعر بأن طارنا سيقع، أنهى الشيخ خطبته فالتفت السلطان إلى (زاجانوس) وقال:

(هل وصلتنا رسائل جديدة من ملوك العالم الإسلامي؟).
أجاب (زاجانوس):

طنطا بوك هاوس

(كل الإمارات الإسلامية المجاورة أرسلت التهنة وحتماً ستتوالى التهاني لاحقاً فمازلنا في الوقت الأول بعد الفتح والبشارة المباركة والأخبار لم تصل لكل الملوك بعد).

نظر السلطان إلى (خليل) باشا وقال:

(وكيف حال صدرنا الأعظم؟ أراك غير مرتاح).

أجاب الأخير:

(أنا بخير والحمد لله لكن حراستي قلت للنصف على الأقل

وبات معظمها من حرس السلطان و..).

قاطعها السلطان:

(الحراسة ليست مهمة فالجيش يحيط بالمدينة وهي من

الداخل مؤمنة أليس كذلك يا بارون (لوكاس)؟).

أجاب (لوكاس نوتراس):

(بالطبع فكل شيء عاد كما كان في معجزة حقيقية

فالناس عادت لبيوتها قبل الغز.. أقصد قبل الفتح

والكنائس عادت تستقبل زوارها والكل سعداء).

هنا تدخل (يحيى) قائلاً:

(لكن يا بارون هناك كثير من الغضب بسبب تحويل

كنيسة (أيا صوفيا) لمسجد وقد علمت أن البعض من

القساوسة والرهبان ماتوا في لحظات دخول الإنكشاريين

وهذا لا بد من علاجه سريعاً).

قال البارون:

(حتى هذا له علاجه فهذه أشياء بسيطة لا يجب أن نشغل

بها ذهن (الفتاح) العظيم).

عاد (يحيى) يقول:

(لكن الناس بالمدينة وبعض الفارين العائدين يشعرون بالكراهية طبيعياً تجاهنا بسبب الفتح وقد زاد الطين بلة هذا الموقف ولا يمكن التهوين من هذا الأمر).

قال (لوكاس):

(حكمة ورحمة السلطان تكفي لعلاج كل المشكلات).

كانت كلمات النفاق تثير ضيق (يحيى) خاصة مع تقبل السلطان لها وشعر بأن ملامح الحاشية تبدو منتشية بالنصر أكثر من اللازم خاصة مع انضمام بعض البيزنطيين لها مما قد يؤثر على سلوك السلطان نفسه لكن لم يملك (يحيى) إلا الصمت وهو يتابع تهافت الحاشية على السلطان واحداً تلو الآخر وشعوره بالحيرة يزداد مع سلوك السلطان المتفاعل مع النفاق الواضح على عكس سلوكه السابق قبل الفتح الذي كان لا يقبل مثل تلك الكلمات فكان (الفتاح) كأنما يتسلل إليه غرور السلاطين المرافق للفوز والنصر مما جعل (يحيى) يتدخل في الحديث طول الوقت محاولاً إزالة تأثير الحاشية بكلماته وتعليقاته لكن دون جدوى فالحاشية أكبر من قدرته المحدودة كقائد بالجيش حتى مع كونه صديقاً للسلطان، وظل الحوار يتنقل بينه وبينهم حتى دلف أحد قادة الحرس وقال:

(ضيف السلطان جاهز للقاء).

أشار (الفتاح) بالموافقة فغادر القائد والعيون تتابعه بفضول متسائلة عن الضيف الذي لا ينتمي للحاشية حتى عاد وبرفقته (جولياث بن نون) الذي لم ينظر إلى أحد من الحاشية بل اتجه إلى السلطان وانحنى له ثم اعتدل وقال:

(السلام على مولانا السلطان وعلى حاشيته العظيمة).
رد الكل السلام بخفوت متسائل بينما أشار السلطان له بالجلوس فجلس قائلاً:

(الشكر للسلطان على كرمه الكبير).
كان (لوكاس) شاحباً وهو يتأمل وجه الحاخام الهادىء تماماً بينما قال السلطان:

(أنتم لا تعرفون شيئاً عن هذا الضيف المخلص لكن سمعتم عنه بالتأكيد أثناء حصار (إستانبول) تحت اسم الحاخام، لقد قابلته بالأمس وتحدثنا كثيراً ومنذ الآن هو من حاشية السلطان كمستشار لي).

كانت أنظار الحاشية تتركز على (جولياث) وهو يقول:
(أنا كنت عين السلطان الوفية المخلصة التي ساعدت بالمعلومات رجال الجيش على فتح المدينة وتحقيق بشرى النبي (محمد) صلى الله عليه و سلم فيكون خير جيش وخير أمير).

قال (يحيى):

(تحدث كالمسلمين بينما أنت يهودي).

نظر (جولياث) إلى (يحيى) متأملا الرجل الوحيد الذي علق على حديث ضيف السلطان الجديد من بين حاشيته التي التزمت الصمت تجاهه وقال:
(يبدو أن القائد الشاب يستنتج ديني من لقيبي وهذا ليس من شيم العسكر).

رد (يحيى):

(أنت مسلم إذن؟).

أجاب (جولياث) وهو يلتفت للسلطان:

(أطلب الإذن من مولانا لكي أقص على حاشيته ما قصصته عليه بالأمس).

أشار السلطان لـ(جولياث) بالموافقة فنهض وتوجه إلى الحاضرين ثم قال:

(أنا (جولياث بن نون) من نسل (رام بن نون) أحد كبار مستشارين (الحكم المستنصر) حاكم الأندلس الراحل ومن نسله تفرق الإخوة ليحوزوا مناصب المستشارية والدراسة العلمية كثيرا وقد عملت أنا مستشارا لفترة طويلة لدى بني الأحمر لكن كنت على ديني وقتها وبعد أن كدت أتعرض للموت على يد حملة قشتالية وأنجاني الله غيرت ديني وانتقلت للإسلام ولما كنت قد تركت العمل لظروف الأندلس التي تعرفونها فقد قررت المجيء مع ابن أخي (بنيامين) إلى (إستانبول) بعد أن سمعنا بنية مولانا (الفتاح) لكي أجند نفسي عينا لجيش البشارة الذي يفتح المدينة ويحقق المراد لكل المسلمين، في

المدينة بدأت أنتقل بين البيوت وأجمع المعلومات وأرسم الأسوار وأرسلها لكم بحمام اشتريته من جندي فار من جيش بيزنطة والباقي تعرفونه إلا أنه وقبل الهجوم النهائي بيوم ألقى علي الجنود القبض بعد أن رأوني أطلق حمامة وشكوا في أمري وحمدًا لله أن وجدني جنود السلطان وابن أخي قبل أن يقتلونا).

كانت روايته وتصديق السلطان معًا كافيين لتستقبلها الحاشية بالترحاب ويبدأون في تبادل أطراف الحديث حول الأندلس معه ومن بين الحوار قال (يحيى):

(أتعشم في قريب السنين أن تصل قواتنا إلى الأندلس ومعها جيش عرمرم من أبناء العرب ففسير بهم حتى نحرر كل شبر من الأندلس).

وعلى الرغم من هدوء ملامحه إلا أن قلب (جولياث) انتفض مع تلك الكلمات التي تنسف كل ما يخطط له فنظر إلى (يحيى) وقال:

(هل السلطان قرر الزحف للمشرق؟).

أجاب (يحيى):

(كلا ليس بعد! فهو يجهز العدة ولا يصرح أبدًا بمكان الزحف والفتح لكن آمل أن يأمر بالزحف على الممالك الإسلامية الممتدة حتى الأندلس فهي الأفضل للدولة وللدین).

لم يعلق (جولياث) وظل يتبادل أطراف الحديث حول الفتوحات القادمة مع الحضور متجاهلاً تمامًا إبداء الرأي

حريصاً على سماع كل اتجاهات الحاشية ولا سيما الضباط العسكريين فوجدتهم منقسمين بين مجموعة تضم (زاجانوس) والتي ترى أن أوروبا جاهزة للفتح وأنها الأفضل بينما طرف آخر يضم (يحيى) يرون أن المناطق العربية هي التي يجب التوجه إليها ووسط هذا كان الصدر الأعظم صامتا تماماً لا يفعل إلا التلفت حوله دوماً والنظر بحدة إلى السلطان والتأمل في جلسته.

مرّ الوقت سريعاً وأشار السلطان للكل بالانصراف فكانت الجلسة قد انتهت وغادرت الحاشية كلها إلا (لوكاس) الذي طلب الإذن من السلطان بالبقاء وما إن رأى القاعة خالية حتى انحنى للسلطان وقال:

(السلطان عندي هدية كبيرة أرجو أن يقبلها مني).

بدا التساؤل على (الفتاح) فقال البارون:

(الذهب.. هناك كميات كبيرة جداً من ذهب بيزنطة قد خبأته إبان الحصار كهدية لمولانا سلطان البلاد المقبل وإنني أقدمه لكم الآن).

تغيرت ملامح (الفتاح) في تعبير مبهم لم يستشف منه (لوكاس) شيئا فعاد يقول:

(إن الذهب بأمر جلالكم هناك في حفرة بازيل المجاورة لبيتي وحرس المنزل يعرفونها جيداً فلو أمرت الآن فهم جاهزون لاستخراج الذهب).

قال السلطان ببطء وتفكير:

(وفاء كبير منك يا (لوكاس) تجاهي أن منعت الذهب عن مدينتك المحاصرة وادخرته لي دون أن تفكر كثيرًا في قومك).

بدأت السعادة على وجه (لوكاس) نوتراس) وقال: (إن كل ذهب الأرض في خدمة مولانا السلطان وإنني على رأس كل هذا في خدمته مدى العمر). ابتسم السلطان وقال منهياً الحديث:

(فليكن، سأمر الجند الآن بالذهاب لبيتك ومساعدة الحرس في إخراج الذهب أما أنت فلك مني مكافأة تتناسب مع كل هذا الذهب الذي سيفيدنا كثيرًا). عاد (لوكاس) ينحني وغادر القاعة والسلطان يراقبه حتى اختفى تمامًا ودلف في أثره قائد الحرس قائلاً: (البارون أخبرني بأن مولاي السلطان يريد تكليفي بمهمة).

قال السلطان:

(بل ثلاث مهمات، الأولى أن تذهب لبيت البارون وتساعد الحرس على استخراج ذهب بكميات كبيرة من حفرة ما بالتأكد هم يعرفونها، الثانية سيعاونك فيها عدد كبير من الإنكشاريين وهم أيضاً من سيقومون بنفس المهمة الثالثة بحضورك لتتأكد من التنفيذ بدقة). بدأ التساؤل على وجه القائد فقال السلطان وعينه كعيني الصقر الذي أبصر فريسته:

(المهمتان في منزل البارون (لوكاس) وبيت الصدر
الأعظم..
البيتان في وقت واحد).

إستانبول، صباح الثاني من يونيو، العام ١٤٥٣.

استيقظت (صوفيا) من نومها المتقطع الذي لا يغزو
جفونها بسهولة منذ أن فتحت عينيها لتجد نفسها داخل
خيمة تركية يحرسها جنود من الأتراك لتكون مجبرة منذ
لحظتها على تفهم حقيقة أنها الآن ليست الفتاة التي
تخضع لرقابة ورعاية الكنيسة تمهيداً لأن تصبح راهبة
بل هي أسيرة لدى العدو وربما تصير في وضع أسوأ فلا
أحد يعرف حينها ماذا يصير، هل تنسى تلك الأوقات
المخيفة التي قضتها وسط الرهبان والراهبات
والقساوسة يصلون متضرعين للرب لإنقاذ المدينة؟ كلا
إنها لن تنسى وإن فعلت فكيف تزيح من عقلها لحظات

اقتحام العثمانيين (آيا صوفيا) حين بدأت السيوف عملها
 لتقتل من تطوله وسط يأس فادح وصراخ لا يتوقف من
 القابعين فيها بل ومن ضباط الأتراك أنفسهم الذين لم
 يستطيعوا السيطرة على الجنود، إنها لم تتحمل مشهد
 (يوساتس) العجوز وهو يموت بطعنة تلقاها بينما
 يحميها من جندي يحاول اختطافها فاستخدمت خنجرًا
 عتيقًا ورثته عن أبيها لقتل ذلك الجندي وكاد رفيقه
 يقتلها لولا ذلك الضابط التركي الذي أنقذها وها هي الآن
 تراه أسوأ منهما فقد باتت جاريته فعلت بقرار سلطان
 العدو بوهبها جارية له مع سماعها خبر جعل الكاتدرائية
 المقدسة بيتا للعبادة لهؤلاء الغزاة فكيف لها النوم
 والنسيان؟ وماذا لها إلا التضرع للرب أن تموت قبل أن
 يمسه ذلك الغازي فقط لا أكثر.

انتبهت (صوفيا) من شرودها على صوت (يحيى) وهو
 يقول:

(هل استيظت يا (صوفيا)؟).

نهضت إلى الباب وفتحته دون أن تترك مكانا لعبوره
 وقالت:

(ماذا تريد هذا الصباح؟).

أزاحها (يحيى) ودلف حيث جلس قبالة فراشها وقال:

(أريد أن أتحدث إليك بتعقل بدلا من حديث الأمس).

جلست (صوفيا) على مقعد بعيد وقالت:

(حديث الأمس هو حديث كل يوم أم تراني قد أرسلت في طلبك حتى تتصور أنني سألين معك؟).

أجاب (يحيى):

(حتمًا ستكونين أكثر لينا مع كل يوم يمر فليس أمامك إلا أن تستسلمي لوضعك الجديد كجارية مملوكة لي).

تمالكت (صوفيا) نفسها بصعوبة و قالت:

(لو كنت تريد جسدًا فقد صار لك بأمر سلطانك العادل لكن قبل أن تقربه سيكون جسدًا ميتًا لتدفنه مع آلاف الأجساد التي عبرتم عليها إلى أرضنا).

قال (يحيى):

(لا حل إذن و لا تراض؟).

أجابت:

(الحل أن تطلق سراحى وتنسى تمامًا وجودي وسأجد طريقي بنفسى).

لم يجب (يحيى) ونهض من مقعده مغادرًا الغرفة وهو يشعر بالإهانة فحتى لو كانت ترفضه فذلك التعالي لا يقبله أبدًا بالذات من امرأة أنقذ حياتها ولولاه لكانت الآن في عداد الموتى.

كانت الشمس تلقي بضوئها على نوافذ البيت حين رأى (يحيى) أحد الحراس يستأذن ويسرع إليه هامسًا:

(لقد تم تنفيذ حكم الموت في الصدر الأعظم والبارون (لوكاس) وصادر الجند كل أموالهم).

ارتسمت الصدمة على وجهه و لم يستوعب الحديث للحظات ثم قال:

(هل جننت أم أنك تمزح يا هذا؟).

تراجع الحارس وقال:

(إنها الحقيقة لقد توجهت بالأمس فرق من الإنكشاريين إلى منزليهما وألقوا القبض عليهما وتمت مصادرة ممتلكاتهما ثم قتلًا باسم السلطان وتنفيذًا لأمره).

قفز (يحيى) من مقعده وسارع إلى جناحه حيث التقط ملابسه بلهفة وارتداها ثم توجه إلى حصانه بملحق المنزل وهرع به وبعض جنود الحراسة المرتبكين يلحقون به إلى قصر السلطان وعند الوصول إليه راح ينظر للوجوه آملًا أن يكون الحارس قد أخطأ فيرى الصدر الأعظم أو البارون لكن طول الطريق حتى مجلس السلطان لم ير أحدهما حتى وصل إلى المجلس ورأى (جولياث) و(زاجانوس) مع جمع من فلاسفة بيزنطة وعلمائها فجلس بجوار (زاجانوس) في صمت منتظرًا المبادأة والتي أتت من الأخير بقوله:

(هل بلغتك ليلة الأمس يا (يحيى)؟).

أجاب :

(سمعت أخبارًا غير مفهومة بخصوص الصدر الأعظم والبارون (لوكاس) وحتى الآن لا أعرف ماذا حدث فعلاً).

اختلس (زاجانوس) نظرة جانبية للحاخام الذي كان يبدو مشغولاً في محاورة أحد الفلاسفة وقال:

(لقد أمر السلطان بالقبض عليهما ثم قتلتهما ومصادرة أموالهما بتهمة الخيانة والتي وجهها لهما معاً).

لم يبد الفهم على وجه (يحيى) فأكمل (زاجانوس):
(السلطان عاقب (لوكاس) بهذا لأنه أخفى مالا من ذهب (إستانبول) كان مخصصاً للدفاع عن المدينة وقدمه له كهدية فرأى السلطان أن من خان بلده لا يستحق إلا الموت حتى لو كان هذا البلد عدواً بالذات مع كونه بارونا أكبر).

قال (يحيى):

(هذا معقول وحكيم! لكن ماذا عن (خليل) باشا ماذا فعل؟).

تردد (زاجانوس) قبل أن يقول:

(السلطان اتهمه بتقاضي أموال من البيزنطيين لإقناعنا بفك الحصار عن المدينة ولعلك تذكر ماذا كان يفعل قبل الهجوم الأخير و..).

قاطعه (يحيى):

(كفى هراء يا قائد (زاجانوس)! الصدر الأعظم ليس بخائن إنه رجل مسلم يصلي وله في منصبه من السنوات ما جعله شديد الثراء من مخصصاته وهدايا فلا تقنعني أنه بحث عن بعض الذهب لدى العدو).

عاد (زاجانوس) يختلس النظر للحاخام وقال:

(حتى إن لم تقتنع فابتلعها بالقوة فلسنا في أيامٍ يسهل فيها ألا تصدق كلمات سلطائك).

شحب وجه (يحيى) من مغزى الكلمات وقال:
(كأنك تقولها لي؟).

أجابه:

(لي ولك ولكل أم نسيت حديثنا القديم قبل طرد (سليمان بالدوغلو) ألم نتحدث بهذا الشأن وقلت لك بالصراع بين البلاط السلطاني والصدر الأعظم؟ ها قد تحققت كل المخاوف وانتصر السلطان بـ(إستانبول) وهنا أيضا).

سأله (يحيى) بانكسار:

(ومن هو الصدر الأعظم الجديد؟).

تردد (زاجانوس) ثم قال بلهجة لم يستطع كتمان نبرات السعادة فيها:

(لم يعلنها بعد لكنني من الآن القائم بأعمال الصدر الأعظم حتى يعلن أنني كلفت بمنصبه بصورة دائمة الغد على الأكثر).

ابتلع (يحيى) الجملة في ألم وأحنى رأسه للأمام والكلمات تكاد تصيبه بالجنون وهنا التفت لهما (جولياث) وقال:

(ألا يرغب القائد (يحيى) بإلقاء التحية هنا؟).

نظر إليه الأخير بود وقال:

(كل التحية لك! فأنت من أعلام الفتح بتلك المعلومات التي أرسلتها).

قال (جولياث):

(أنا مسلم وهذا وضعي الطبيعي و لو كنت في أي مكان يفتحه إخواني المسلمون لفعلت المثل).

لم يكن (يحيى) في حالة تسمح بحديث طويل فقال:
(فلتعدرنى أيها المستشار (جولياث) فأنا متعب وأريد العودة).

حيّاه الحضور وهو يغادر متوتر الأعصاب مذهولا إلى حد كبير بما سمعه من (زاجانوس) وما لم يكن يتخيله يوماً بينما قال الأخير للآخر:

(تقاليد الضيافة تحتم عليّ دعوتك لبيتي اليوم وكذلك تقاليد الفروسية لبطل مثلك).

ابتسم (جولياث) في تواضع ظاهر وقال:

(أنا أقبلها بكل الود منك أيها القائد الكبير).

عاد الحضور يتجاذبون أطراف الحديث حول المدينة وتاريخها وبعض الأمور الفلسفية والعسكرية حريصين على ألا يتحدثوا عن ليلة أمس بأي صورة خوفاً من غضبة السلطان التي لا تتوقف أبداً ووسط أحاديثه كان (جولياث) يهنيء نفسه فقد نجح ثلث الخطة وبات في حاشية السلطان وتبقى ثلثها الأخطر واليوم سيبدأ مع (زاجانوس) عمله الذي توارى عن الكل حتى هذا العربي المندفع صديق السلطان والأهم..
عن السلطان نفسه.

إستانبول، مساء الثاني من يونيو، العام ١٤٥٣.

أنهى (جولياث) ارتداء ملابسه الغالية الموشاة بالخياوط الذهبية والتي حضّرها خصيصاً لتلك الزيارات التي يتحتم فيها ارتداء زي خاص وتأمل نفسه في المرأة بسخرية ثم التفت إلى (بنيامين) وقال:

(ألا ترى الأمر عجيّباً يا بن أخي؟ أنا في طريقي لمقابلة قائد كبير بجيش العثمانيين وهو نفسه الصدر الأعظم الآن ومنذ أيام كنت أقابل البارون البيزنطي الأكبر وكل هذا في مدينة واحدة لكن في دولتين مختلفتين).

تمتم (بنيامين):
(أنت علمتني أن الدنيا هي كالمياه دائماً.. لا شكل لها
وتتقلب).

أوماً الحاخام برأسه استحساناً وقال معقّباً:
(هذا بالضبط ما يجب أن تؤمن به حتى تكون الغلبة لك).
سأله (بنيامين):

(الآن أنت هادىء فكيف تخلّيت عن هذه الثورة التي
انتابتك حين علمت بإعدام البارون والصدر الأعظم؟).
أشاح (جولياث) بيده مجيباً:

(لا أهتم بهذا الصدر الأعظم بل إنني كنت أتخوف منه في
الواقع فهو كاره للحرب وربما يعيق مخططاتي لكن ما
شعرت بالغَيْظ منه هو موت البارون نتيجة غبائه، هذا
الأحمق تصور أنني سأغدر به فحضر خطته الخاصة مع
الأتراك عبر الذهب المسروق متصوراً أن السلطان
سيكافىء الخونة فمات ضحية ضالة عقله وعدم فهمه
للسلطان وجعلني أخسر أهم رجل كنت أعتمد عليه في
حاشية السلطان فهو كاره للأوروبيين وبتلك الكراهية
سيخدمني كثيراً لكنني الآن مضطر للبحث عن بدائل أقل
كفاءة منه).

عاد (بنيامين) يسأل:
(ألم يحن الوقت لأفهم أي شيء عن مهمتنا هذه؟).
لم يجبه عمه وغادر البيت في صمت متجاهلاً الخوض
في الحديث المكرر وهو يرتب في داخل عقله ما سيتبادله

من أحاديث مع (زاجانوس) وكيف سيخدم مخططاته بلقاء الليلة المهم، وفي بيت المضيف كان حديث الرجلين بسيطاً منذ البداية مع حرصهما على ألا يتحدثا في شأن الإعدام الذي تم ولا ما يخص السلطان وتبسط الحديث بينهما وراح (جولياث) يروي حال الأندلس وبني الأحمر المتداعيين و(زاجانوس) يشعر بالحزن لما يسمع و يمتلئ غضباً ونقمة على الأوروبيين جميعاً وكان هذا في حد ذاته سبباً لسعادة (جولياث)، كان الرجلان يتناولان الطعام حين قال الحاخام:

(إننا معاً هنا وهناك أيها القائد العزيز في نفس الحالة بكل أسف).

سأله (زاجانوس):

(ماذا تقصد؟).

أجاب (جولياث) :

(هنا متساويان فلا ثالث معنا وهناك أيضاً في مجلس السلطان متساويان بينهم وهم أفضل منا قدرًا واحترامًا).

قال (زاجانوس) باستنكار:

(عمن تتحدث؟).

اصطنع (جولياث) التنهد الحار قائلاً:

(أتحدث عن الأتراك فهم من قبيلة واحدة معاً يعدون أفضل الدرجات ثم نليهم نحن من كنا على غير الإسلام ثم آمنا وانضممنا لهم أنا كنت يهودياً وأنت كنت نصرانياً من الكاثوليك أليس كذلك؟).

أجاب (زاجانوس) بضيق:
(لا شيء في هذا فأنا مسلم الآن و..).
قاطعته (جولياث) بقوله:

(يا عزيزي (زاجانوس) إننا إخوة في هذا فأنا وأنت على حد سواء كنا من الكتابيين وبتنا من المسلمين لكن هذا شأن الدين أما شأن السياسة فنفوذ أبناء قبائل الترك كبير وليس لأحدنا كلمة في هذا بل كل شيء لهم فالأتراك هم أهل الحكم وليس الدين كالحكم فإن تساويننا في الدين لا نتساوى في الحكم).

هز (زاجانوس) رأسه نافيًا وقال:
(حتى هذا غير حقيقي فهناك من يدير شأن السياسة من غير الأتراك، أنا نفسي كالأباني جذوري غير مسلمة اليوم الصدر الأعظم و(يحيى) ليس تركيًا بل عربي وهو متنفذ في الحكم).

رفع (جولياث) سبابته وقال: (إن (يحيى) عربي والإسلام ظهر في بلاده فأعطاه هذا قدرًا خاصًا ولا تنس أنه رفيق السلطان منذ الصبا وأنت نفسك كرجل كبير في القدر وصدر أعظم قد تغادر منصبك سريعًا لصالح تركي ما يراه السلطان دير عنك فقط لأنه يشاركه فرع قبيلته ثم إن (يحيى) نفسه علامة فبينما قائد مثله أقل منك درجة عسكرية متنفذ مثلك وله قوة كلمتك تقريبًا لدى السلطان ألا ترى أن في هذا عيب كبير يظلمك كصدر أعظم وقائد

أكبر وأهم منه ويظلمني كرجل أكثر خبرة منه وسنا ويظلم الكل؟).

لم تكن كلمات (جولياث) جديدة لكنها أثارت نقطة في صدر (زاجانوس) لم يكن ليقر بها علنا بينما هي بداخله فهو لا يقبل بطبيعة الحكم العثماني الذي لا يتورع عن التقاط غير المسلمين مثله وتحويلهم للإسلام ثم يقاتل بهم دون تنفيذهم للسياسة وقصر هذا على الأتراك أو الأجناس شديدة الارتباط بالسلطان بغض النظر عن جذورهم بينما هم يقاتلون فقط.

كان (جولياث) يشعر بما يمر به مضيفه فعاد يصطنع التنهد الحار وقال:

(حتى بلادك نفسها الآن تقاتل ضد السلطان مما سيجعل كثيرا من قومك في مرمى نيرانك).

قال (زاجانوس):

(إن فتح بلادي سيكون بيدي أنا، لقد وعدني السلطان بأن أقود الحملة في البلقان).

كانت كلماته هي صلب هدف (جولياث) فالتقط الخيط فوراً وسأله:

(هل السلطان سيذهب إلى أوروبا قريباً؟).

أجاب (زاجانوس):

(للسلطان عادة ألا يتحدث في هذا الشأن أبداً إلا بعد خروج الجيش حتى لا يتسرب الأمر للعدو لكن أعتقد هذا).

عاد (جولياث) يسأله بلهفة:
(لكنه الآن يجهز قواته لفترة قتال بعد استقرار الأوضاع
أليس كذلك؟).

أوماً (زاجانوس) برأسه دون نطق فقال الحاخام:
(لكن القائد الشاب (يحيى) لا يؤيد فكرة التوسع في
أوروبا و يفضل الذهاب لبلاده.. أقصد الذهاب لبلاد
العرب).

قال (زاجانوس) بصرامة:
(السلطان والضباط الكبار يقررون وليس الصبية
والسلطان لن يقاتل مسلمين ليضم أرضهم بل سيقاتل
النصارى كما يفعل دومًا).

كانت كلمات الرجل منفعة بشكل أشار لـ(جولياث) بنجاح
هذه الزيارة تمامًا فاكتمت بأن قال:

(أتمنى هذا فكما تعلم هناك ثأر بيني وبين الكاثوليك
الأوروبيين لما فعلوه بالأندلس لكن أعتقد أن رؤية القائد
العربي (يحيى) أكثر أهمية لدى السلطان من غيره فهو
عربي و..).

هنا قاطعه (زاجانوس) بقوله:
(ليس لأحد أن يقرر شيئًا للسلطان وأعداء الدولة هم
الأوروبيون لا غيرهم).
كانت تلك الكلمات كافية لـ(جولياث) حتى يغادر البيت
فنهض قائلاً:

(أتعشم هذا! أنا الآن مضطر للمغادرة لحاجتي للراحة في سني هذه ولقد سعدت بضيافتك أيها القائد الكبير). ودّعه (زاجانوس) وراقبه حتى انصرف ثم عاد يجلس مفكرًا فيما سمعه فالحديث ليس بجديد لكن أن يطرحه رجل غريب عن البلاط فهو يؤكد مخاوفه أن يميل السلطان لحرب المماليك والتيموريين بعيدًا عن الأوروبيين فيترك (ألبانيا) وباقي البلقان كما هي وربما يكون متأثرًا بهزيمة السلطان (مراد الثاني) المنكرة منذ ثلاث سنوات أمام الألبان الكاثوليك فيقود (يحيى) حملات الشرق ويفوز بالمجد بدلًا من أن يقود هو حملات الغرب ويظفر بالنصر، عاد (زاجانوس) يدير مسألة النفوذ بالبلاط في عقله فـ(يحيى) مجرد مرافق للسلطان يشارك بالقتال منذ الصبا لكن هذا لا يعطيه حقًا لا يمتلكه هو كضابط أكبر منه وخبير يتجاوز ذلك العربي ولا يحق له تصور غير هذا فعروبوته لا تعطيه تميزًا على غيره من الأوروبيين المسلمين الذين يغرقون السلطنة بأعدادهم الكبيرة بالجيش وكذلك فإن قاد (يحيى) القوات للشرق فلا مجد بعد مجده أما لو قاد هو قوات الغرب فهو الفائز بكل الأحوال.

غادر (زاجانوس) تأملاته بذهابه للفراش وفكرة واحدة فقط تسيطر عليه أن أوروبا يجب أن تكون الهدف القادم و(يحيى) يجب أن يدرك قدره الأقل منه داخل البلاط.. بأي ثمن.

إستانبول، صباح الخامس من يونيو، العام ١٤٥٣.

بخطوات قوية اندفع (يحيى) إلى غرفة (صوفيا) وفتح الباب بقوة صائحًا:
(يبدو أنك في حاجة للتأديب).
انتفضت (صوفيا) للمفاجأة وقالت بصوت لا يقل غضبًا عن صوته:

(إن الأدب عملة ذهبية أحتفظ بها منذ تلقيتها على يد المعلمين الكبار بـ(إستانبول) فلا داعي لئن تتحدث عما تجهل أيها البربري).

توجه إليها (يحيى) وهوى على وجهها بصفعة قاسية أسقطتها أرضاً ثم قال:

(منذ الآن هذا جزاء كل كلمة تتفوهين بها ولا تروق لي، بالأمس ضبطك الحرس تحاولين الفرار ولما أمسكوك قمت بسب السلطان والإسلام والأتراك فهل تتصورين أن شيئاً كهذا سيمر دون عقاب؟).

نهضت (صوفيا) ونظرت في عيني (يحيى) مباشرة قائلة:

(إن المرأة التي يضربها رجل عليها أن تدرك أنه أقل منها شأنًا وهذا لست في حاجة لإدراكه فحين تصير ابنة بارون جارية لدى عربي يعمل كقاتل لصالح الأتراك فالأمر ليس بحاجة للضرب، أما محاولة الأمس فأنا أسيرة بعد حرب دموية مما يجعل لي الحق في الهرب من الأسر فأنا فعلتها ولن أتوقف عن فعلها).

لم يكن التصميم وحده أو قوة الكلمات ما دفع التشتت إلى عقل (يحيى) بل كانت عيناها الزرقاوتان النافذتان إلى أعماقه، إنه قد أنقذها شفقةً عليها وغضبًا من مذبة (آيا صوفيا) التي ارتكبها الإنكشاريون لكن بعدها ومنذ رآها في غرفتها حتى ومع شجارهما كانت (صوفيا) تثير قلبه كما تثير غضبه فهو يريد خضوع قلبها بقدر ما

يرفض تمرد عقلها، كانت خواطره تربكه عن الرد
فاكتفى بالصمت متأملاً وجهها الصبوح مما جعلها
تراجع إلى الخلف قائلة:

(لن أصير جاريةً لك فلا داعي لتلك النظرات القبيحة فما
يجول بخاطرك لن يحدث أبداً).

نفض (يحيى) عن نفسه تلك المشاعر وقال:

(بالبيت لا يوجد إلا خدم وجارية واحدة ومن الآن لن
تكوني إلا خادمة ما دمت أقل من أن تصيري جارية،
سأمرهم بأن تتولي عمل التنظيف والطهي مثلهم، كلا لن
أثق في طعامك فلتكوني منظفة فقط فهذا يناسب ابنة
البارون ويناسب البربري أيضاً).

التفت (يحيى) للمغادرة لكنه تجمد مع قول (صوفيا)
الساخر:

(اطمنن فأنا لن أقتلك فسلطانك سيتكفل بهذا فالبارون
خائن ووزيره الأكبر خائن وحتماً حين يزداد نفوذك
بالدولة سيكتشف أنك خائن فيقتلك).

صرت (يحيى) أسنانه من الغيظ وغادر غرفتها متوجهاً
إلى الخدم وألقى تعليماته بأن تصير (صوفيا) من الآن
خادمة بالبيت وأن تشاركهم طعامهم وعملهم إلا الطهي.

كان نهاره قد فسد ككل يوم حين يتشاجر معها صباحاً
فغادر مكفهر الوجه ومرّ على قوات الجيش خارج أسوار
المدينة وتأكد من مزاولتهم مهام الحراسة والتدريب
بانتهاء ثم اتجه إلى مجلس السلطان ليحييه كما تقتضي

التقاليد ليرى الشيخ (آق شمس الدين) وعدد من القادة الكبار يتوسطهم (زاجانوس) الذي حيا (يحيى) دون أن يتحدث معه كعادته معه.

بعد أن أشار له السلطان بالجلوس قال الأخير: (كنت على وشك إرسال من يأتي بك يا (يحيى) لتسمع الأخبار التي جلبها لنا رسلنا من كل مكان حول مصير كبار قادة (إستانبول)).

بدا الانتباه على وجه (يحيى) بينما أحد القادة يقول: (الإمبراطور (قسطنطين) تأكدنا من موته لكن لم نجد جثته فالغالب أن الرجل قد تخلص من دروعه الإمبراطورية واشترك بالقتال حتى لا نعرف جثته وسط جنوده فهو حتمًا مع من تم دفنهم من الجنود، الكاردينال (إيزدور) كان ذكيًا فقد عثرنا على جثته كما تصورناها من الملابس التي عليها وطفنا برأسه في المدينة لكن علمنا صباح اليوم أنه تنكر وتخفى فأخذناه على أنه من الذين تم أسرهم من المدينة بعد الفتح وأرسلناهم للأناضول كعبيد وهناك افتدى نفسه بالمال وهرب في طريقه حتمًا إلى روما، (جوستنياني) أصيب بجروح نافذة ونقله جنوده إلى جزيرة (ساكيز) التابعة لجنوة وهناك مات وتم دفنه وقد علمت بهذا صباح اليوم كذلك من نفس العين التي أخبرتنا بقصة (إيزدور) التي يتداولها الناس هناك بالجزيرة ويبدو أننا في مأزق كبير

فلا لدينا جثة للإمبراطور ولا جثة الكاردينال حقيقية ولا توجد جثة لجوستينيانى).

قال (يحيى) بضيق وقد تذكر وصف (صوفيا) لهم بالبرابرة:

(لم التمثيل بالجثث والإسلام حرّم هذا؟).

التفت إليه القائد وأجاب:

(مثلما يفعلون نفعل! ويوم يموت لنا قائد هناك يفعلون المثل فتلك علامة النصر وإذلال الخصم).

قال (يحيى):

(بهذا يصدقون حين يشبهوننا بالبرابرة).

تدخل الصدر الأعظم (زاجانوس) وقال:

(أنت لا تفهم الأمر جيداً لحدثاة سنك وخبرتك فنحن نفهم الأمر لخبرتنا والسلطان كذلك لسابق عهده بالحكم فلا ترهق نفسك).

تسللت إلى شفتي (جولياث) القابع في أقصى المجلس يستمع ويرصد ابتسامة فقد كانت كلمات (زاجانوس) دليلاً على مدى تأثيره بحوارهما في بيته فهي هو يأبى تدخل (يحيى) بالأمر وحتماً سيكون موقفه دوماً مضاداً لموقف (يحيى) بالذات في تخطيط الفتح وتحديد مساره، كان (يحيى) و(زاجانوس) يتحدثان في حدة حينما نهض الحاخام وتقدم إلى السلطان قائلاً:

(هل يسمح مولاي القيصر لي بإبداء الرأي؟).

سرت الهمسات بين الحضور بينما قال السلطان:

(القيصر ليس لقبى يا (جولياث) بل السلطان أو الخان).
قال (جولياث):

(هذا هو المقصود فجلالة الخان لا يعطي لنفسه القدر الذي يستحقه فهو الآن يحكم أرض البيزنطيين لذا فهو يستحق لقب القيصر لحكمه الأرض الخاصة بهم ولكونه الآن راعي الكنيسة الأورثوذكسية الشرقية وهذا اللقب سيجعل لقدر وهيبة السلطان وقع أقوى في نفوس الغرب ويجعل رعاياك النصارى أكثر تقبلا لك).

كانت كلمات (جولياث) مقبولة لدى الحاشية فيما يبدو بينما شعر (يحيى) بالمقت تجاهها فهي في رأيه ليست إلا كلمات نفاق وتزلف وكم كانت دهشته حين قال السلطان معلقا:

(اقتراحك جدير بالنظر أيها المستشار الأندلسي.. أكمل).
أكمل (جولياث) قائلا:

(هذا بخصوص اللقب المستحق أما مشاكل بسيطة كجثث الإمبراطور وغيره فحلها سهل).

بدأ التساؤل على السلطان فشرح (جولياث) قائلا:
(جثة الإمبراطور حتمًا مدفونة فلن يثبت أحد شيئا فلتأتوا بجثة أحدهم وضعوا عليها دروعه ونياشينه وأرسلوها إلى مختلف البلاد كعلامة النصر أما هنا فاعرضوها دون الرأس لئلا يميز أحد أنها ليست جثته).

قال (زاجانوس):

(اقتراح رائع أيها الأندلسي فماذا عن الكاردينال؟).

أجاب (جولياث):

(هو هارب من الموت بعد هزيمة النصارى فلتعلنوا الأمر
ليعلم الكل كيف هرب رجال أوروبا فهذا كاف، أما
(جوستنياني) فموته كاف جداً كهزيمة له ولأوروبا
ولنعلن بين الناس هذا الخبر وحتماً سيكون مولانا على
قبره حين يطأ بقدمه جزيرة ساكيز بعد تمام فتحها).
كانت كلمات (جولياث) سلسلة ومنطقية مما دفع الحاشية
إلى تأييدها وبدا السلطان متفقاً معهم على خلاف (يحيى)
الذي كان يتقطع من الغيظ وهو يرى الكل كالبرابرة كما
وصفتهم (صوفيا) وتأمل (زاجانوس) الذي يتعامل معه
بغلظة غير مفهومة والسلطان الذي منح نفسه لقب
قيصر بدون مبرر أو منطق حتى الشيخ (شمس الدين)
نفسه بات مجرد مؤيد ديني لتصرفات السلطان حتى لو
خالفت الدين كما فعل حين أفتى بحلة تحويل (أيا صوفيا)
لمسجد خلافاً لحكم الدين الصريح بالأمر.
انتهى السلطان من شئون المدينة سريعاً وغادر المجلس
ومعه جل الحاشية وانتظر (يحيى) حتى النهاية ثم غادر
إلى بيته وهو لا يفهم ما يدور وقد شعر بتهميش لدوره
بالمجلس بينما يتضخم دور (جولياث) بشدة حتى بات
صديقاً لـ(زاجانوس) ومؤثراً في مجلس السلطان.
وفي بيته رأى (صوفيا) تقوم بأعمال الخدم متجاهلة
تماماً النظر إليه أو الحديث معه فذهب مكفهر الوجه

لجناحه حيث تمدد على الفراش وشيء واحد يشغل باله..
من هذا الأندلسي؟..
وماذا يريد من الخان؟..
ماذا يريد؟

إستانبول، صباح العاشر من يونيو، العام ١٤٥٣.

وقفت (صوفيا) في سكون قبالة (يحيى) صامتةً وعيناها
تحدقان في وجهه منتظرة كلماته التي كانت ممتنعة عن
الخروج من صدره وهو يشعر بالحرَج الممزوج بالغضب
لما باتت عليه أسيرته الجميلة (صوفيا) ومع كل ما
يجيش في صدره إلا أنه قال بصوت هادئ:

طنطا بوك هاوس

(هل الآن أصابك بعض التعقل وتوقفت عن الهروب والشغب؟).

لم تجبه وظلت على وضعها الصامت فقال:
(من الآن ستعودين إلى غرفتك وستتركين العمل بالخدمة على أن..).

هنا تكلمت (صوفيا) مقاطعة إياه بقولها:
(بل الآن أنا حرة فلست جارية وهبها لك سلطانك القيصر الجديد المضحك لكن خادمة أسيرة لدى فرد من جيش العدو فلا تعدني لقيد الجواري فلست الا أسيرة).

زَمْ (يحيى) شفتيه غاضباً وقال:
(إذن فالخدمة تروق لك! حسنا فليكن ولتبقى هكذا).
انحنت له (صوفيا) وقالت:

(أرجو أن يأذن سيدي للخادمة الأسيرة أن تعود لتنظيف البيت فضيوف مولاي على وشك الحضور).
صاح فيها بقسوة:

(فلتذهبي للشيطان نفسه لو أردت).
عادت (صوفيا) تنحني وغادرت تاركةً (يحيى) يشتعل غيظاً بينما هي تبتسم في الخفاء وقد شعرت بتلك الفرحة تتسلل إليها وهي تتحدث إليه، كم تشعر بأنها حرة وهي تجادله في كلمات قليلة محدودة كل صباح ومساء إنها حينها فقط تتذكر أيام شجارها مع (ياروس) حين تتشاحن بكلماتها القليلة مع (يحيى) فهو يشبهه قليلا لكن الأخير أكثر عصبية.. ووسامة، نفضت (صوفيا) عن

رأسها تلك الخواطر وعادت تنظف الباحة الكبيرة التي تسبق باب البيت الكبير الذي تعرفه جيداً وعيناها تتذكران كل شيء في هذا البيت وذلك الحي الكبير بقلب المدينة وقلبها يبكي على ما صارت عليه عاصمة الشرق الأورثوذكسي من أسلمة وضياع، وبينما هي تنهض من الأرض وقعت عيناها على رجل متقدم في العمر يدخل ويقوده أحد الحراس إلى الداخل ولمحته يختلس النظر إليها ويبطئ من حركته إبانها فتسللت إليها علامة استفهام عن هذا الرجل الذي تتذكر أنها قد رآته قبلاً لكن لا تعرف أين.

وفي الداخل استقبل (يحيى) المستشار (جولياث) بهدوء حذر وهما يتبادلان كلمات الود المعتادة وانتظر (يحيى) حتى قدم الشراب وبدأ (جولياث) يلاطفه بكلمات تقليدية عن دوره في الفتح وتاريخه الذي سمع به من كثير من القادة و(يحيى) يستمع إليه وهو يشعر أن الأندلسي لا يفعل غير ما يجيد في البلاط السلطاني من ملء محدثه أيًا كان بالغرور واجتذاب وده بالنفاق والزيف. قليل من الوقت مرّ بعدها قبل أن يقول (يحيى) وهو ينظر في عيني (جولياث) بالطريقة المربكة التي تعلمها من (صوفيا):

(الآن فلتتوقف عن التزلف ولنتكلم بصدق.. من أنت؟).

تصلبت ملامح (جولياث) وعيناه تدرسان ملامح (يحيى) وأيقن أنه أمام رجل يختلف عن السلطان و(زاجانوس) كثيراً ثم اعتدل في مجلسه وقال:
(القائد الشاب (يحيى) حديثه غامض في أذني!).
قال (يحيى):

(سؤالي لا يحتمل إجابتين! فمنذ البداية وأنا أقرأ رسائل مجرد بيزنطي يريد خداعنا أو جاسوس متبرع بالخيانة ثم ظهرت لنا بصورة المسلم التقي البارح حسن النصح لتتغلغل في مجلس السلطان حتى بتت أكثر قوة من أي أحد فمن أنت وماذا تريد من الأتراك؟).
أجاب (جولياث):
(أريد نصرة الدين فقط كما تريده أنت ومصلحتي كذلك كما هي مصلحتك تماماً فلا تحدثني بصوت التخوين هذا).

ضحك (يحيى) بصوت عالٍ وقال:
(إن كلماتك كلمات التهديد ونحن بعد في بداية الحديث فماذا حين نسير لنهائته.. أيها الحاخام؟).
أجاب (جولياث):
(هذه الكلمة لم يعد أحد يقولها لي فأنا مسلم مثلك وليس..).
قاطعته (يحيى) بصوت صارم:
(لا تقل هذا فمثلي لا يكون مثلك فمهما كنت أنت فإنني مسلم حقيقي ولست مثلك دونمة).

رفع (جولياث) حاجبيه في تساؤل فقال (يحيى):
(عذراً نسيت أنك أجنبي، إن الكلمة تعني من له دينان
دين بالظاهر ودين بالباطن وأنت كذلك أيها الأندلسي).
التقط (جولياث) نفساً عميقاً وقال:

(يا عزيزي (يحيى) إننا إخوة في هذا فأنا وأنت على حد
سواء فكلانا لا ينتمي لتلك الأرض، أنا أتيت هرباً من
الموت بسيوف الكاثوليك النصارى بأوروبا وأنت أتيت
طالباً مع (شمس الدين) من دمشق وقبلها كنت في بلدك
مصر، ربما نحن مسلمين لكن هذا شأن الدين أما شأن
السياسة فننفوذ أبناء قبائل الترك كبير وليس لأحدنا كلمة
في هذا بل كل شيء لهم فالأتراك هم أهل الحكم وليس
الدين كالحكم فإن تساويننا في الدين لا نتساوى في الحكم
أم أنك ترى غير هذا؟).

عاد (يحيى) يضحك من جديد فانتظر (جولياث) حتى
انتهى ثم سأله:
(ماذا يا ترى في حديثي يضحكك هكذا؟).

أجاب (يحيى) :
(هل هذا هو نفس ما قتلته للقائد (زاجانوس) صدرنا
الأعظم الجديد حين زرته منذ أيام ببيته لينقلب ضدي
وضد من بالبلاط؟).

هنا أيقن (جولياث) وأقرّ بذكاء (يحيى) وأضمر في نفسه
أنه لو تخلص من تلك العصبية المفرطة لبلغ الكمال كذلك
كانت عصبية (يحيى) لدى (جولياث) لا تعني إلا أنه بات

عدوًا له بالبلاط وعدوًا خطيرًا أيضًا لتأثيره على السلطان وخصمًا لا مجال لتحجيده فاكتمل بالنهوض من مقعده قائلاً:

(شرفتني دعوتك التي لم تقابلها ضيافة كريمة أيها القائد (يحيى) أستاذن بالانصراف).

لم ينطق (يحيى) وراقب الضيف حتى غاب عن ناظره، خرج الحاخام من الداخل للباحة حيث رأى (صوفيا) تمارس عملها فتوجه إليها بقوله:

(أنت (صوفيا) من الكاتدرائية المسجد الآن أليس كذلك؟).

نظرت إليه (صوفيا) بحيرة فقال:

(لقد مررت بالمكان أكثر من مرة وأنا بالمدينة قبل الفتح وسمعت عنك الكثير، إذن فأنت التي أهداك السلطان لـ(يحيى) كجارية؟).

أجابت (صوفيا) بغضب:

(لست جارية لأحد! إنما أنا أسيرة).

ابتسم (جولياث) متأملاً حالها وقال:

(واضح جدًا أنك لا تقومين بعمل الجواري وكذلك عدم اتفاقك مع مولاك).

ألقت (صوفيا) ما بيدها أرضاً وصاحت:

(أنا حرة سلبني غزاتك وليس لي مولى ولا سيد أنا أسيرة).

هم (جولياث) بقول شيئا حين سمع صوت (يحيى) وهو يقول:

(في تقاليدنا أيها الأندلسي لا يصح أن تتحدث مع نساء البيت فهذا أمر خطير غير مقبول فإن لم تكن تعلم فقد أخبرتك وإياك أن تكررهما).

كانت (صوفيا) تشعر بالحيرة للقب الأندلسي بينما التفت (جولياث) إلى (يحيى) الغاضب قائلاً:

(كنت أرحب بصاحبة البيت فقط).

قال (يحيى):

(هي خادمة لا أكثر).

أكمل (جولياث) وهو يغادر للبوابة الكبيرة:

(نعم خادمة، هذه الخادمة كانت صاحبة هذا البيت الذي تقيم فيه الآن وورثته عن أبيها قبل أن يمنحه لك السلطان كجزء من ممتلكات (آيا صوفيا) التي انتقلت لنا بعد الفتح).

نظر (يحيى) بدهشة عارمة لـ(صوفيا) بينما اكتفت هي بمزاولة عملها كأن الحاخام لم يقل شيئا وهم (يحيى) بقول شيء ما لها إلا أنه شعر بسخف الموقف وغبابته فاكتفى بالعودة للداخل بينما أكملت (صوفيا) عملها في صمت وشيء لم يتغير إلا دمة واحدة منها سقطت على أرض بيتها الكبير.

إستانبول، مساء الثالث عشر من يونيو، العام ١٤٥٣.

جلس (بنيامين) في لهفة بالقرب من عمه منتظرًا أوامره
وقد شعر بالسعادة لأن الرجل أخيرًا سيوكل إليه مهمة ما

طنطا بوك هاوس

١٦٨

بعد أن كاد يسقط من الملل والحيرة وراح يراقب الحاخام وهو يرتب بضعة أوراق أندلسية فارغة متجاهلاً الحديث مع ابن أخيه كأنما يريد أن يجعله أكثر ترقباً ولهفة، أنهى الحاخام عمله وجلس أمام ابن أخيه وابتسم لتلك اللهفة البادية ثم قال:

(هناك عمل أجدته أنت في (كونستانتينوبوليس) قبل الغزو وأريدك أن تكررّه هنا).

قال (بنيامين):

(التجسس أليس كذلك؟).

هز (جولياث) رأسه نفياً وقال:

(مهما كنت قادراً على جمع معلومات فقدرتي بالبلاط أكبر من قدرتك حتماً، إن مهمتك هي استمالة الحرس).

قال (بنيامين):

(حرس البيزنطيين كانوا يقبلون الذهب أما هؤلاء..).

قاطعه (جولياث) بهدوء قائلاً:

(هؤلاء الجنود أسوأ فهم غزاة يريدون المال وقد رأيت بعيني كيف يسلبون وينهبون فلا تقلق فالذهب طريقك، لقد أخطأ السلطان حين سحبهم خارج المدينة ولم يترك لهم الفرصة للمزيد من السلب والنهب فأتثناء الحصار كانت عيونهم تلمع بالذهب وبعد الدخول وجدوا أنفسهم مغادرين المدينة فمهمتك سهلة لكن عليك توخي الحذر واختيار الجنود المنفردين حتى لا يتسرب خبرك).

أوماً (بنيامين) برأسه موافقاً وسأله:

(أين مكان الجنود، قصر السلطان؟).

أجاب (جولياث):

(كلا، هدفك يا بن أخي هو بيت القائد (يحيى) أريدك أن تستميل الجنود ليكونوا مطيعين لك حين تأمرهم بشيء أو تطلب منهم تمرير أحد).

سأله (بنيامين):

(هل تريد قتل الرجل؟).

أجاب الحاخام:

(وماذا يفيد القتل على أية حال إنه إن مات انقلبت الأوضاع وعدو كهذا حي خير من أن يموت ويظل شبحة معك).

لم يبد الفهم على (بنيامين) فاكتفى بالقول:

(فليكن مع أنني أرى أن تدس له السم أفضل من أي شيء آخر فبقاء العدو قد يجعلنا في خطر ويجعل مهمتك المجهولة في خطر كذلك).

تجمد (جولياث) مع تلك العبارة مفكراً ثم قال:

(هل تعرف سبب المشكلة التي نواجهها اليوم مع المسلمين؟ إنها عنزة مسمومة كانت وسيلة للقتل بدلا من السيف).

قال (بنيامين):

(نبيهم تقصد؟).

أوماً (جولياث) برأسه مضيفا:

(لو كان أحد أجدادنا هناك تجرأ وأخرج سيفه وقتله بينما هو وسطهم لما مررنا بكل هذا لكنهم جبنوا وأصرروا على أسلوب السم ليدرك هو الأمر بوسيلة ما ويغادر وحتى حين غادر دون أكل لم يتجرأوا هؤلاء الحمقى ويقتلوه وهو بينهم).

غمغم (بنيامين):

(لو كان هذا ما كنا غادرنا أرض العرب وما كنا تشتتنا بعدها بين بلادهم وما كنا لنأتي هنا في بلاد الأتراك الجديدة اليوم).

نهض (جولياث) للفراش وهو يقول:

(لا تنس أن سرعة العمل هي مفتاح النجاح لكن بلا عجلة حتى لا تخسر، من الغد ابدأ بعملك ولحسن حظنا فهذا السلطان ثبت الحرس على البيوت فلن تواجه مشكلات تبديل الحرس بل ستتعامل مع نفس الحرس بلا تغيير وأعطهم ما يطلبون وزدهم حتى يتفانوا في تنفيذ مطلبك).

أوماً (بنيامين) دون تعليق بينما تمدد (جولياث) على الفراش مغمض العينين وعقله يدرس مخططه إلى الآن الذي يواجه النجاح إلا مع عقبة العربي (يحيى) والذي بدأ الآن خطة التخلص منه فمهما كان الثمن فالحاخام القدسي (يعقوب الناجي) كلفه بمهمة بالبلاط العثماني لم تكن لتتحقق لولا صبره وذكاؤه فغامر وقامر بحياته كثيراً

وحقق نجاحًا إلى الآن فلن يسمح لشاب مثل هذا العربي
بإعاقتها بعد أن بلغت أوجها مهما كان الثمن.

إستانبول، ظهيرة الخامس عشر من يونيو، العام ١٤٥٣.

طنطا بوك هاوس

في خفوت وبعد تردد طويل طرق (يحيى) باب غرفة (صوفيا) وانتظر حتى سمع إزنها بالدخول ودلف إليها في صمت متجاهلا النظر إليها مباشرة وجلس على مقعد كبير بعيد عن فراشها وقال مباشرة دون النظر إليها: (قد أمرت بعودتك هنا من اليوم بعد أن تأكدت من أنك كنت يوما ابنة صاحب البيت ووريثته).

تأملت (صوفيا) ملامحه الجامدة وهي لا تستطيع الرد بقسوة كالمعتاد وقد أنهكتها الأيام السابقة كثيرا وباتت تتجنب إثارة غضبه قدر الإمكان فاكتفت بالصمت فقط دون رد و(يحيى) متجنب الحديث معها بدوره، استمر الوضع هكذا حتى شعر (يحيى) بسخف موقفه فنهض ليغادر الغرفة لكن صوت (صوفيا) جمده وهي تسأل: (لماذا طرقت الباب؟).

أجاب (يحيى): (أنت قلتها يا (صوفيا) فأنت هنا أسيرة أو ضيفة ولست جارية أدخل غرفتك بلا استئذان). أنهى (يحيى) كلماته وغادر الغرفة سائرا في طريقه للخارج لكن صوت (صوفيا) التي لحقته عاد يوقفه وهي تقول:

(لا شيء سيتغير فأنت غاز من معسكر العدو وأنا أسيرة في بيتها إن غادرته بث غريبة وإن بقيت صرت جارية

وليس لهذا حل فذلك أمر تقرر منذ أن غزوتكم
(كونستانطينوبوليس)).

سار إليها (يحيى) حتى باتا قريبين تمامًا بشكل دفع
الحذر إلى عروقها مما ينتويه وبدت مشاعرها على
وجهها لكن (يحيى) تجاهل هذا تمامًا وقال:

(إنني لست بتلك البشاعة يا (صوفيا) ولست غازيًا
محاربًا أقل من قومك فكلنا نقاتل نقتل ونقتل كذلك نحب
يا (صوفيا) أوليس من حقي أن أحب وأن تبادلني
محبوبتي ذلك الهوى؟).

أجابت (صوفيا) بدهشة:

(تحبني؟.. في أيام لم نتحدث فيها إلا بكلمات السباب
والشجار تحبني، أنت تسخر مني بقولك هذا).

أمسك (يحيى) كتفها برفق وقال:

(كلا إنها أشياء لا أستطيع وصفها يا (صوفيا)، أشياء
صغيرة بدأت يوم رأيته في (آيا صوفيا) ثم تجمعت
كأمطار صنعت نهرًا ليست كلمة أو نظرة من عينيك بل
هي الأيام حتمًا التي جمعتنا معًا في بيت واحد، نعم هي
الأيام).

حاولت (صوفيا) الابتعاد عنه لكنه ازداد تشبثًا بها وهو
يكمل:

(لا أملك أن أغير ما بقلبي وأنت تفهمين حديثي وقد
خبرته قبلا مع فارسك الذي قُتل في غارة حصن
الروملي كما أخبروني، لو كنت أملك كراهيتك لكرهتك

لكنه فؤاد لا أملك إدخال شيء فيه أو إخراجة إنما هو الله وحده من يملك مفاتيح قلوبنا).

نجحت (صوفيا) في الابتعاد عنه وتراجعت حتى غرقتها وقالت قبل أن تدخلها:

(أسيرتك ولست جاريك أيها الغازي! وإلا فالخدمة أحق بي).

أغلقت (صوفيا) الباب خلفها واستندت عليه بظهرها وعيناها مغلقتان وعقلها شارد في كلمات (يحيى) لها فها هو الغازي يستعطفها بكلمات الحب كامرأة لأول مرة وليس كجارية أو خادمة لا ثمن لها وهبها له سلطانه كغنيمة حرب، سارت (صوفيا) حتى الفراش وعيناها تغرقان صدرها ببحر من الدمع وذكرى (ياروس) تخنق فؤادها ودماءه ما زالت تشتم رائحتها على يديها كيوم وصلت بقايا قوات الغارة ومعها جثتا أبيها وحبيبها، جففت (صوفيا) دموعها واستلقت على فراشها مرخية جسدها وقد باتت الآن في حاجة للنوم.

كان (يحيى) قد أنهى كلماته معها وترك البيت إلى حيث ثكنات الجند خارج المدينة وقد شعر بالاختناق من وجوده بالقرب منها بعد أن صرح لها بما يشغل فؤاده فأفرغ ما بداخله هناك وهو يدور حول ثكنات الجند ويصدر تعليماته الصارمة هنا وهناك وبداخله الكثير من اليأس ، ظل (يحيى) يباشر عمله إلى أن رأى عددًا من

الضباط وعلى رأسهم (زاجانوس) يقتربون والضيق على محيا الأخير فابتدره (يحيى) بالسؤال قائلا: (كيف حال قائدنا الكبير؟).

أجاب (زاجانوس) باقتضاب: (بخير في رعاية السلطان، فلتذهبوا إلى حيث أعمالكم لقد أنهيت تفتيشي اليوم).

تفرق الضباط من حوله والتفت هو إلى (يحيى) قائلا: (من الجيد أن رأيته الآن فهناك ما لا بد من أن نتحدث فيه بعيداً عن السلطان ومجلسه).

شعر (يحيى) بالقلق من كلمات (زاجانوس) التي لا يلمس فيها مودة كعهده منذ زيارة (جولياث) له وأنصت إليه وهو يكمل:

(إن خططك لإقناع السلطان بأن يلي الفتح بأرض الممالك غير مقبولة فهو قد حسم الأمر سلفاً بفتحه (إستانبول) وبات ملوك أوروبا أعداء لنا بلا شك فلا تشتت انتباهه بحديثك عن بلاد العرب).

عقد (يحيى) ذراعيه بحزم مجيئاً: (تبدو كلمات القائد (زاجانوس) صدرنا العظيم الجديد على غير ما اعتدت عليها فلا ود فيها ولا حرص! كأن هناك شيطاناً أوحى له بها).

قال (زاجانوس): (لا تنس أنك مجرد ضابط تتبعني في الرتب حتى لو كنت بدرجة تفوق سنك بالجيش وصديق للسلطان فلا تتجاوز

قدرك في الحديث ولا تظنني غافل عن غرضك بأن تقود حملات الشرق لتصير الصدر الأعظم القادم وتكون أقوى رجل بالبلاط).

تمالك (يحيى) نفسه من الغضب وقال:

(تحدث بلا مراوغة إذن يا قاندي، ذلك الأندلسي (جولياث) أتى لك منذ ثلاثة عشر يوماً وألقى بسُمه في أذنيك ليجعلك رجلاً آخر غير قاندي الذي أعرفه، لقد بتّ تؤكد أصولك الألبانية بالمجلس وتشير لأوروبا بالفتح كأن لا رأي لنا بالأمر ومعى ازددت غلظة وصرامة حتى بتّ كالعدو).

رد (زاجانوس):

(لست تافهاً حتى يحركني أحد أيها الضابط (يحيى) فأنا قائد كبير بهذا الجيش بخلاف كوني الصدر الأعظم وسأتغاضى عن كلماتك هذه فقط لأنك رفيقي وتحت قيادتي منذ زمن لكن لن أقبل منك بتجاوز، الآن عليك بالتوقف عن طلب فتح ديارك العربية لتصنع مجدك الخاص وعليك القبول برويتي ورؤية كبار الضباط بفتح أوروبا وإلا اعتبرتكَ عاصياً).

قال (يحيى) باستنكار:

(أين هذا العصيان ومن هو الذي أعصيه؟).

أجاب (زاجانوس) بصرامة:

(عصيان ضباط السلطان وربما السلطان نفسه، إن ثقة السلطان في رجاله كبيرة لذا فلم يبحث عن أعوان للصدر

الأعظم السابق في خيانتته فلا تجعلني أبحث فما سأجده
لن يروق لك).

بدأت الصدمة على وجهه (يحيى) مشابهة لصدمة حين
حضر مجلس السلطان لأول مرة بعد قتل (خليل) باشا
فكلمات (زاجانوس) توضح كيف تسير الأمور بعد الفتح
بلا مراوغة فعناصر القوة تصفي بعضها والباقيون
يتقاسمون فيما بينهم كل شيء من سلطة ومال ونفوذ
لدى السلطان حتى الفتح يقيّمونه بمكاسبهم فالأوروبي
سيقود فتح أوروبا ويفوز بالمغانم أما العربي فليس له
الحق في طلب فتح بلاد العرب حتى لا يحوز أكبر من
قدرهم بالبلاط، لم يفق من صدمته حتى ابتعد
(زاجانوس) ومعه عاد (يحيى) إلى رشده ووعيه وتلك
الكلمات سافرة التهديد تصنع أمامه هالة من السواد تشي
ببدء عصر جديد ببلاط الأتراك صنعه نصر على أسوار
(إستانبول) جعل من العسكر وحدهم دعامة حكم الأسرة
العثمانية وعنصر قوة لا تضاهيه قوة حتى بات كبيرهم
الصدر الأعظم وبعض كبار قادتهم وزراء بدولة الأتراك..
إنه عصر قوة العسكر.

إستانبول، مساء السادس عشر من يونيو، العام ١٤٥٣.

بسط السلطان (محمد الفاتح) خريطة كبيرة شملت الأناضول وبلاد الشام والعراق ومصر وبلاد المورة وشرق أوروبا وعلى كل بقعة إشارة بحاكمها وعلاقته بالأتراك كان صديقاً أو عدواً وبدأت عليه علامات التفكير القلق وهو يفاضل بين الشرق والغرب أيهما يسير لفتحه وضمه لسلطانه الممتد، كان السلطان يدقق في رسوم الخريطة حينما أعلن الحارس وصول (زاجانوس) فاعتدل ونظر إلى القائد الكبير وهو ينحني له ثم ينضم إليه في دراسة الأمر وكان واضحاً مسعى الأخير في السير لأوروبا بينما السلطان يجادله في الأمر حتى يرى كل شيء بوضوح من أحد مؤيدي غزو أوروبا وكان قد فعل المثل ذلك الصباح مع (يحيى) حين طلبه وقام بنفس الأمر معه لكن كلماته كانت أقوى من كلمات (زاجانوس) كثيراً.

أنهى السلطان عمله وعاد يجلس مشيراً لقائده الأثير بالجلوس قائلاً:

(ما زال الأمر غائماً يا (زاجانوس) فلا صديق في السياسة أو الحرب وأمراء الأناضول لا أثق فيهم وبلاد فارس مضطربة قد تشتتت من الخلف لو ذهبنا لأوروبا أما بلاد العرب فلو ذهبنا إليها قد تضربنا أوروبا من الخلف فكل المخاطر موحدة).

قال (زاجانوس) :

(الخطر الأكبر يا مولاي هو أوروبا فبلاد فارس لا تحكمها إدارة موحدة مثلنا وحتى (أبو سعيد التيموري) كبير الأسرة التيمورية هناك وأقوى رجل بتلك البلاد لا خطر منه فهو ضعيف وأقصى قوته أن يفكر في تحالف مع أوروبا وحتى هذا لا قيمة له لو كنا في حرب مع الأوروبيين، أما لو ذهبنا لبلاد العرب فنعطي ظهورنا لأوروبا لتطعننا وربما يتحالف معها التيموريون فنكون الخاسرين).

تفرّس السلطان البارغ في الأعياب السياسية والحرب بملامح (زاجانوس) وقال معلقاً:

(لم تقل إننا نملك ضم بلاد العراق والشام بلا خطر علينا وننتظر هناك دون مد للفتح بعدهما إلى أن نكون منهم في سنوات خمس أو سبع جيشاً قوياً لا يشق له غبار لنكمل بالشرق إلى طنجة لو أردنا دون مشكلة بالغرب وفي كل الأحوال فخيرات تلك البلاد غنيمة كبرى لا تقدر بثمن لا يمكن أن نجد ريحها في بلاد أوروبا الثلجية). علم (زاجانوس) أن حديثه المتواري لا يصلح فقال مباشرة:

(قد وعدني السلطان أن أقود حملات من حملاته لأوروبا وأن أدخل بلادي ومسقط رأسي بجيوشه الجرارة). كان السلطان في سبيله للرد لكن أحد الحراس أعلن وصول (يحيى) و(جولياث) فابتسم السلطان مرحباً

وتلقى تحياتهما الحارة بمودة دون أن يخفى عليه النفور بينهما وتجاهل (يحيى) التام لوجود (زاجانوس)، نهض السلطان إلى حيث الخريطة وبسطها بأقصى اتساعها والحضور الثلاثة يتبعوه بصمت حتى أشار إلى (زاجانوس) وقال:

(رؤيتك جديرة بالاحترام وكذلك رؤية (يحيى) فقد ناقشته من قبل وكلاكما يمتلك نفس التصور لكن من زوايا مختلفة).

قال (يحيى) مختلساً النظر لـ(زاجانوس):

(كل الأفكار مطروحة وللسلطان الرأي الفصل).

نظر السلطان إلى (جولياث) وقال:

(لم تتحدث يا مستشارنا الأندلسي).

تقدم (جولياث) خطوة وانحنى للسلطان ثم قال:

(أولا الشكر لمولانا الذي أخذ بمشورتي وأعلن العثور على جثة الإمبراطور وأرسل بقايا الجثة التي عليها أوسمة الإمبراطور لبلاده العظيمة كدليل نصر، كذلك رأيي في الكاردينال والفارس (جوستنياني) فهذا يرفع من شأنى ويعزز ثقتي في نفسي).

علق السلطان قائلا:

(رأيك كان سديداً وجديراً بأن يؤخذ به فلا تشكر إلا عقلك

الذي يمتلئ بالذكاء والحكمة والخبرة).

انحنى (جولياث) ثانية وأكمل حديثه الأول:

(إنني على علم بالرويتين وقد رجحت أكثرهما خبرة وتعقلا ودراية بقدراتنا ألا وهي رؤية القائد (زاجانوس) الذي أؤكد على وجهة نظره).

اندفع (يحيى) قائلاً:

(رؤية القائد لا تهتم بالمكاسب بقدر ما تهتم بالذهاب لأوروبا فقط).

نظر إليه (زاجانوس) بغضب وقال:

(هل تجرؤ على التشكيك في رأيي وأهدافي أيها الضابط أم تريد فقط مجداً زائفاً لنفسك حين تسير برجالنا لبلاد المماليك؟).

همّ (يحيى) بالرد لولا أن قال السلطان بلهجة حادة:

(يبدو أن صديقي وأحد الضباط الذين أثق بهم والآخر الذي يقود إحدى أقوى فرق جيشي ويتولى منصب الصدر الأعظم كلاهما لا يحترمان رأي السلطان ولا وجوده).

شعر الاثنان بالحرج والسلطان يشير لـ(جولياث) قائلاً:

(أكمل يا (جولياث) ولا تلتفت لأحد.. أياً كان).

قال (جولياث) وابتسامة كبيرة بداخله لم تظهر للسطح:

(إن الرأي المتكلم بتوجهنا لأوروبا يحمي ظهركنا المكشوف لو ذهبنا لبلاد العرب ويجعلنا فاصلين بين أوروبا وفارس بشكل كلي مما يمنع أي تحالف بينهما لو توحدت تلك البلاد يوماً وقاتلتنا معتمدة على الخلاف المذهبي، العرب سيقاتلونا ويسئون لنا بقولهم أننا

نسفك دماء المسلمين وفي نهاية الأمر فأوروبا هي
الخطر).

أشار السلطان إلى (يحيى) وقال:

(رأيك يا (يحيى) كيف تجيب؟).

أجاب (يحيى):

(كل ما يقوله المستشار لا يستند لرأي سليم فأوروبا
ليست دولة بل عدة دول ضعيفة جبانة تمت هزيمتها في
الشام بيد المماليك وتقاتلوا بينهم بعدها حتى استنفزوا
وباتت قوتهم لا تساوي شيئا ومن يتحالف مع العدو
سيكون قبيلته من يتحالف معنا والآن طاغية الصرب
نموذج لهذا فهو متحالف معنا وبلاد مورية تطالب
بالسلام وكثير من الممالك الأوروبية كذلك فلا يبقى لنا
إلا حساب الثروة وما سنناله من جنود وثروات من بلاد
العرب لا يخطر على بال وكفيل بصناعة دولة لم تسبق
في أي مكان بالعالم من القوة والثروة).

أشار السلطان لهم بالصمت بعد نهاية حديث (جولياث)
وقال:

(هنا تكتمل رؤيتك فلن تضيفوا إلا شجاراً، فلنتوقف عن
الحديث بهذا الشأن ولنتحدث في شأن آخر يخص
الأسوار).

على الرغم من رغبة الثلاثة في الخوض بالأمر إلا أن
الكل اضطروا لإطاعة أمر السلطان وتناقشوا في شأن
الأسوار وتدعيمها وعقولهم متفرقة، (يحيى) يزداد يقينه

بوجود سر خفي وراء هذا الأندلسي الغامض الذي يثق أن روايته كاذبة تمامًا بقدر صدق ما كان يرسله من (إستانبول) لهم موقنا أن هذا الرجل هو الشر بعينه والعدو، (زاجانوس) امتلأت نفسه ثقة بالنصر المحقق وقد باتت رؤيته هي القريبة من السلطان وضمن أن بلاده لن يطأها أحد غيره وأنها عما قريب ستكون قطعة من الدولة المضطربة في الاتساع وكذلك امتلأت نفسه غضبًا فوق غضب من (يحيى) الذي بوضوح لا يريد إلا نفس مسعاه الخاص بضم بلاده العربية للسلطنة مما سيبقى (ألبانيا) والبلقان ربما لعقود طويلة خارج نطاقه ونطاق السلطنة.

بين هذا وذاك كان (جولياث) قد قرأ عقل السلطان وفهم دواخله فتلك المقابلة لم تكن لحسم شيء بداخل الرجل وما أتى بهم اليوم إلا ليتأكد من انقسامهم وتنافسهم ليضمن ألا يتآمر عليه أحد، هو وحده فهم الأمر بخبرته الكبيرة في بلاط الأندلس فكثيرًا ما رأى حكمًا مثل (محمد الفاتح) يمتلئون بالشك تجاه الكل بعد أي نصر ولو كان ضعيفاً فيخافون على نصرهم ويضربون من حولهم ببعضهم محافظين على انقسامات الحاشية وتنافس الأبناء حتى يضمنوا ألا يتحدوا ضدهم، علم (جولياث) أن السلطان قد بات مهياً الآن فقط للضربة الأخيرة الخاتمة التي تحقق مهمته الغالية وحتى (يحيى) نفسه بعد الآن لن يقدر على الوقوف أمامه فهو في

مواجهة (زاجانوس) والأخير يسيطر على كل قادة الجيش حتى من هم أكبر سنا منه فيوم يتصادم مع (يحيى) فله حليفه (زاجانوس) فالمهمة التي كلفه بها الحاخام (يعقوب الناجي) جاهزة للنجاح الآن بشرط إزالة (يحيى) وما يمثله من صوت العقل بالبلاط لتتحقق أمنية حاخام (صهيون) (مدينة داود) بيد حاخام (غرناطة) هنا..
في (كونستانطينوبوليس).

الفصل الرابع: *دعاء في بلاط السلطان*

إستانبول، قبل منتصف ليل الأول من يوليو، العام ١٤٥٣.

أنهى الحاخام (جولياث بن نون) صلاة مهمسة قصيرة يهودية في غرفته الخاصة ونهض من على الأرض وسار لطابق منزله الأرضي حيث رأى (بنيامين) في انتظاره بترقب فجلس بالقرب منه متأملاً ملامح ابن أخيه الشاب بتمعن وقال:

(الآن وجب أن أخبرك بكل شيء عن سفرنا ومهمتنا هنا بـ(كونستانتينوبوليس) فالقادم سيحمل الكثير ولا أضمن حقا حياتي فلا بديل عنك لتتوب عني بالأمر إن رحلت عن عالمنا).

تسرّب القلق لملامح الفتى وسأل عمه:
(مهمتنا ليست قتل السلطان ولا الخلاص من أحد فما هي؟).

أجاب (جولياث):

(دعك من هذا للنهائية ودعني أجيبك على ما سألتني عنه قبلاً، كيف استطعت زرع الشقاق بين (زاجانوس) الأحمق و(يحيى) المتهور بتلك السهولة، إنني لم أفعل بل هم فعلوها بأنفسهم وليس لي فضل في هذا).

نهض (جولياث) إلى حيث الشراب المُسكر وصب لنفسه القليل وعاد إلى مكانه مكملًا:

(هذا درس مهم يا بن أخي فلست ساحرًا لأغير ما بنفوس الناس وليسوا أغبياء حتى أحرّكهم كما أشاء إنني فقط أخرجت ما بنفوسهم أمامهم وأمام غيرهم فالعربي يريد أن يفتح بلاده وهكذا يريد الألباني فتحًا سيتقاتلان، العربي يرى نفسه في ركاب صديقه السلطان والألباني يرى نفسه الأكبر والأحكم ويستحق أن يكون ظهر سلطانه بعد طرد (سليمان بالدوغلوا) فكان الصدام حتميًا).

قال (بنيامين) باهتمام:

(لذا فأنت حدثتهما عن مكانتهما بالبلاط والفتح فقط حتى تثير خلافا في الرأي دون أن توقع بينهما بمكيدة).
أوماً (جولياث) برأسه مؤيدًا وهو يرتشف الشراب وقال:
(كان أجدادنا أغبياء من فرط ملاصقتهم للعرب عبدة الأوثان مكتفين بالمكائد ضد المسلمين فقط فحين ظهر نبينهم اكتفوا بمحاولة قتله بالسم ثم الخيانة العلنية حتى إذا هزم حلفاءهم حاصرهم نبي العرب وطردهم، حتى بعد وفاته حاولوا المكيدة بدس التوراة في أحاديث نبينهم حتى اختلطت ثم فشلوا مع ظهور من صحح تلك الأحاديث فالمكيدة لا تفلح بل إخراج شرور الناس وحده وإلا مرّ الزمان وانكشفت كذبتك ودسائسك وأطاحت بك من مجدك إلى باطن الأرض).
قال (بنيامين) بلهفة:
(الآن أريد معرفة كل شيء عن مهمتنا.. كل شيء).

أنهى الحاخام كأسه وبدأ يروي تفاصيل المهمة لابن أخيه المندهبس حيناً والمستنكر حيناً آخر حتى انتهى فبادره بالقول:

(لا أعرف كيف تصور ذلك الحاخام من أورشليم أنك قادر على فعلها وكيف قبلت أنت هذا من البداية فلا وسيلة لتحقيق الأمر ولولا الحظ لكنا الآن في قبر بيزنطي أو تركي).

أشار (جولياث) إلى رأسه وقال:

(ما دام رأسك يعمل فستجد طريقك دوماً للنجاح فانت تعاش في خطئك على فساد القلوب والأطماع وهما الغالبان بين البشر فأينما وليت وجهك فستجد طريقك ولو كان (لوكاس) غير موجود لوجدت غيره وكذلك العربي والألباني فكلهم مكررون دائمون لا ينتهون وحتماً ستجد طريقك بينهم).

أشار (بنيامين) بيده إشارة مبهمة وقال:

(مهمتك لا تبدو ذات قيمة بالنسبة لي ولكنك أكثر معرفة مني ولن أعرض لك أمراً على أمل أن تتكلم مهمتنا بالنجاح ونعود إلى حيث بلادنا أو أفضل منها).
(تبقى شيان فحراس العربي أغرقهم بالمال وأنتظر أن تأمرني بشيء لأبلغهم به كمقابل لهذا الذهب كله).

أجاب (جولياث) وهو ينهض:

(اقترب وقت مهمتهم ولا تدعهم يركنون للكسل فمهمتهم صعبة).

قال (بنيامين):

(الشيء الثاني هو ذلك الصندوق الذي دفنته فور مجيئنا بتلك البقعة حيث قابلت (لوكاس) فما هو وما سره؟).

أجاب (جولياث):

(الصندوق ستراه بنفسك عما قريب جدًا).

لم يضيف الأندلسي شيئاً إلى جملة مكثفياً بما دار حتى الآن وصعد إلى غرفته مستلقياً على الفراش بلا نوم كعادته حين يفكر، الآن هو أعطى كل شيء لابن أخيه بعد أن تأكد من مهارته وكونه مدركاً لخطورة المهمة التي تجعل السيف على رقابهم لو أخطأ لمرة واحدة وحتى لو مات فالمهمة ستكمل أو على الأقل سيبلغ (بنيامين) كل شيء للهاخام بأورشليم فالآن فقط يستطيع الاطمئنان على استمرارية الأمر حتى من بعده لو حدث له مكروه وليبدأ خطوته الأخيرة لسحق عظام العربي والقضاء عليه نهائياً ثم يعود إلى أرضه الحقيقية ليحيا هناك حتى وفاته..

وليذهب السلطان إلى الجحيم..

جحيم أوروبا الثلجي.

إستانبول، صباح الثاني من يوليو، العام ١٤٥٣.

اختلفت أيام (صوفيا) منذ أن باح لها (يحيى) بحبه واختلفت علاقتها تمامًا به لتنشأ علاقة جديدة تجعلها أشبه بالضيقة، كان طعامها وشرابها معه دون حديث إلا قليلا ثم بدأت الكلمات بينهما في خجل لتزداد وبات من المعتاد لدى الخدم والحراس المندهشين لتقلب أوضاعها رؤيتهما يجلسان معًا ليتبادلا الحديث في شتى الأمور قبل أن تغادر (صوفيا) لغرفتها ثم يذهب (يحيى) في شروء طويل ينتهي بأن يذهب لجناحه للنوم وبين الليل والنهار كانت (صوفيا) تقضي وقتها بين الصلاة أمام صليب ذهبي كبير أهداه لها (يحيى) من مقتنيات كنيسة (آيا صوفيا) لجذب ودها وبين قراءة بعض من كتب بيزنطية بمكتبة ضخمة بناها أبوها البارون عبر سنوات طويلة كرمز للفلسفة البيزنطية والأدب الشرقي، (يحيى) كذلك تغيرت أحواله ونظرته لها فهو على خجله من نفسه لما باح به لـ(صوفيا) إلا أنه تجرأ وتقرب إليها ثانية في حدود ما لا يضايقها من كلمات وتصرفات وحرصًا على رضاها منحها صليبًا ذهبيًا من غنائم (آيا صوفيا) وسمح لها بالتجول في كل أنحاء البيت كعلامة على إقراره بكونه بيتها قبل أن يصير إليه وفي المقابل تحسنت علاقتها به وبادلته الأحاديث والسهر بالليل دون تجاوز بينهما لتصير أشبه بالنديم أو الضيف الصديق منها إلى

جارية أو خادمة فتقبل منها هذا واكتفى به ولو مؤقتا
بحرص لئلا تعود لسابق عهدها من الخصام والشجار
والقطيعة.

في ذلك الصباح أفطر (يحيى) معها ككل صباح وهو
يتحدث نشر الجيش خارج المدينة وما جره من متاعب
وخلافات حتى أتى على ذكر البلاط السلطاني فقالت
متسائلة:

(قلت لي إن ذلك الأندلسي أتى للبلاط بعد احتلال المدينة
فكيف بات بتلك القوة التي حدثتني بها بالأمس؟).
وعلى ضيقه من استخدامها لكلمة احتلال إلا أنه أجاب
دون تعليق:

(إنه ماكر خبيث أجاد استغلال دوره قبل الفت.. أقصد قبل
سيطرتنا على المدينة ليحوز موضعا ضئيلا لكنه تسلل
إلى (زاجانوس) الصدر الأعظم وبه استطاع أن يصل
لغيره من قادة الجيش ويكون نديم بعض ليااليهم ثم نافق
السلطان بذكاء حتى أرضاه خاصة مع استشاراته حول
الإمبراطور السابق و..).

انتبه (يحيى) لخطأ حديثه بالأمر فتوقف عن الحديث ثم
استدرك قائلا:

(بدون حديث طويل فهو أقنع السلطان بكفاءة مشورته
وسلامتها وتسلل إلى قلوب الكثيرين حتى بلغ مبلغا قد
يجعله يوما الصدر الأعظم بدلا من (زاجانوس) باشا
نفسه).

علقت (صوفيا) بقولها:

(حين رأيت هذا الرجل لأول مرة شعرت بالانقباض منه
وسألت الراحل (يوساتس) عمن يكون فلم يعرفه وحين
تحدث إليه عاد وأخبرني أنه أندلسي هارب من الكاثوليك
وأتى هنا ليتنصر ويصير على ديننا ومع هذا فلم أشعر
بالراحة له قط).

غمغم (يحيى):

(هناك يهودي ولديكم نصراني ولدينا مسلم ولو كان في
فارس لكان شيعياً من الأئمة).

سألته (صوفيا):

(ألم يفكر السلطان في كونه خائناً أو جاسوساً؟).

أجاب (يحيى) بضيق:

(على العكس لقد علمت مؤخراً أنه بحث وتقصى الأمر
من قبل حتى أن نراه للمرة الأولى فقد أرسل من يبحث
في شأنه بالأندلس منذ يوم ميلاده حتى مغادرته
لـ(إستانبول) وعلم من أيام أن قصته فعلاً كما روى ولم
يكذب على أن أحداً لم يعلم شيئا عن إسلامه).

نهضت (صوفيا) وقد أرادت إنهاء الحديث لتحافظ على
حدود معينة بينهما وقالت:

(أرجو فقط أن تحذر منه فهو رجل لا تأمنه ولا تعرف ما
بداخله فهو لم ينس وجهي الذي لم يره إلا مرتين فقط
وجمع كل المعلومات عني لمجرد قربي من أحد كبار (آيا

صوفيا) وذلك من شيم الجواسيس والخبثاء فقط الذين يجمعون الأخبار لغرض في أنفسهم). لم يعلق (يحيى) على حديثها الذي لا يفعل أكثر من زيادة قلقه أكثر وتركها تصعد لغرفتها وعيناه تلاحقها وتشيان بالهيام الذي لا يخطئه من يراها، بدوره غادر (يحيى) البيت الفخم إلى الثكنات كل يوم ثم توجه لقصر الحكم حيث أدى التحية اللائقة للسلطان وكبار الحاشية وعلى رأسهم الصدر الأعظم (زاجانوس) و(جولياث) الذين تجاهلاه تمامًا واستكمل (جولياث) حديثًا قطعه وصول (يحيى) قائلًا:

(وقد نفذنا الأمر ومنذ اليوم يلقب مولانا (الفتاح) بالخان سلطان الأتراك وقيصر الروم وراعي الكنيسة الشرقية و(بادنشاة) الكبير).

وجد (يحيى) نفسه يندفع سائلًا:

(ماذا قلت (بادنشاة)؟).

التفت الحاخام إليه وقال بلهجة ساخرة:

(نعم (بادنشاة) أي ملك الملوك وكبيرهم فهذا أمر قررناه منذ أول أمس وأعدنا أختامه السلطانية للسلطان لكن غيابك منذ أول أمس وحتى هذا الصباح جعلك آخر من تعلم، كان الله في عونك فمشاغلك كما يبدو أكبر من مشاغل الصدر الأعظم نفسه).

احمرّ وجه (يحيى) لكنه لم يشأ الرد حتى لا يثير ضيق السلطان كل مرة فاكتفى بالسؤال:

(لكن أيها السلطان ألا ترى اللقب غير ملائم لهذه المرحلة وقد يستتب في سخرية البعض من كثرة الألقاب).

قال (جولياث):

(فتح) (إستانبول) يستحق الكثير أيها القائد (يحيى) وقد تباحثنا في اللقب ووجدناه ملائمًا ولا تنس كبار القادة هنا ورأيهم).

نهض (يحيى) وقال للسلطان مباشرة:

(إن بلادنا تواجه خطرًا حقيقيًا لو ظلت هذه الكلمات تسود البلاط وظللنا نتصور العالم ضعيفًا لا يقدر على مواجهتنا ولا هزيمتنا أبدًا، يومًا ما ستقل قوتنا وتتضاءل بفعل توسع قواتنا العسكرية وصدامنا مع غيرنا من الأمم مع منح أنفسنا ألقابًا لا تزيدنا إلا غرورًا).

قطب السلطان حاجبيه بشدة وقد أثارتها الكلمات فنهض لتنهض الحاشية كلها معه وقال لـ(يحيى) بصرامة ملكية قاسية:

(إن حديثك طاعن في قدراتي وقدرات بلادك ويتجاوز الحديث مع سلطانك تمامًا يا (يحيى) فاعلم حدودك وقدرك).

سرت رجفة في أوصال (يحيى) من فرط قوة الكلمات فقال مرتبكًا:

(إنني لا أخشى إلا وحدة لأوروبا تصنعها غزواتنا وحروبنا معهم بينما نحن نعطي لأنفسنا قدرًا أكبر وأكبر من الألقاب).

نهض (زاجانوس) وقال:

(بصفتي الصدر الأعظم فأنا أحتج ففي هذا الحديث تجاوز شديد لمعرفة القائد (يحيى) وليس..).

أشار له السلطان بالصمت فابتلع لسانه بينما نظر الأول إلى (يحيى) وقال:

(أذن لك بالمغادرة الآن لتستريح ببيتك قليلاً).

شحب وجهه دون أن يملك القدرة على الرد فعاد السلطان يقول:

(قلت لك فلتذهب لبيتك).

كانت كلمات السلطان واضحة بطرد (يحيى) من مجلسه فالتزم الكل الصمت مترقبين رده متوقعين جدلاً إلا أنه غادر بصمت وهو لا يكاد يصدق نفسه فرفيقه وصديقه السلطان طرده لمجرد كلمات لم ترق له يعترض فيها على لقب سخيف للسلطان لا قيمة له ولن يجلب للأتراك إلا كل سخرية من الملوك الآخرين والعداء والتحفز منهم.

وفي طريقه لبيته كانت حقيقة أخرى تضاف لـ(يحيى) بخلاف عصر نفوذ العسكر الذي صنع بنصر (إستانبول) فالبلط من يعارض لا مكان له به والمنافق وحده أو الصامت هو من يبقى ولن تعود مكانته السابقة لدى

السلطان أبداً بعد ما كان، أما بالمجلس فإن (جولياث) قد شكر من داخله الكلمات الحمقاء التي تلفظ بها (يحيى) عن اللقب وأوروبا بغير حساب لمقام الخان ملك الملوك الجديد فربطت الكلمات دون قصد غضب السلطان من (يحيى) بموقف داعم لـ(زاجانوس) بشأن أوروبا وجعلت طرح الشرق الذي يتبناه (يحيى) يتضاءل في إصابة لهدفه الأكبر فها هي الأقدار تدفع الكل في مساره ورغبته وفي طريق نجاح مهمته فلم يكن له في أكثر لحظات تفاوله أن يتوقع الأفضل وما هي الا أيام حتى يقضي تماماً على العربي وتبدأ سنوات التحضير لغزو أوروبا ثم تبدأ الحرب..
ويا لها من أيام!

روما، الفاتيكان، صباح الثاني من يوليو، العام ١٤٥٣.

بإشفاق نظر البابا (نيكولاس الخامس) إلى الكاردينال (إيزدور) الجالس على مقعد وثير دفع الخمول إلى جسده المنهك من عناء السفر مضيفا لمسات من النعاس على وجهه المترب فقال محاولا التخفيف عنه:

(تستحق ما تطلب أيها الكاردينال فسنوات في زناينة تحت الأرض بـ(كيفة) لم تثك عن تكرار محاولات الفرار حتى وعدت والآن مدافع الأتراك لم تقدر على قتلك وعدت إلينا سالمًا، أنت حتمًا تستحق أن تلبى كل مطالبك).

حاول (إيزدور) الابتسام إلا أنه لم يستطع ورفع عينيه إلى الصليب الضخم خلف العرش البابوي كأنما يستجمع قواه منه ثم قال:

(إن البطل الحقيقي هو الإمبراطور الذي رفض الهروب إلى (ميسترا) أو إلى (ساكيز) حيث هرب جنود (جنوة) بقائدهم المصاب (جوستينياني) وأصرَّ على البقاء خالغًا الدروع ومقاتلا كجندي عادي حتى مات بعد أن أصيب جسده بمائة جرح).

تألم البابا لحديث (إيزدور) وأراد قول شيء يخفف عنه إلا أن الكلمات خذلتها فاكتفى بنظرته المشفقة وتابع (إيزدور):

(كانت أيامًا يُندى لها الجبين خجلًا وكيف لا؟ إن العالم المسيحي يتحمل تلك الخطيئة أمام الرب ولن يكون الغفران أبدًا حتى تعود المدينة إلى أبيها ويغادرها الغزاة للأبد).

أطرق البابا برأسه في أسف فلم تكن كلمات الكاردينال بهينة عليه فهي تذكره بخيانة أوروبا لمقامه البابوي حين خذلوا (كونستانتينوبوليس) وتجاهلوا نداءه لهم والأكثر ألمًا أن بعض أمراء الغرب يتعامل مع السلطان ويجتذبون وده بعد كل ما حدث وكأنما لا يتعلمون، انتبه البابا من أفكاره على صوت الكاردينال وهو يكمل:

(حين تأكدت من الهزيمة بعد أن غادر الإمبراطور ساحة القصر اتجهت لأحدى جثث الخدم ممن ماتوا بقصف مدافع الأتراك والتقطت ملابسه وأبدلتها بملابسي ثم غادرت المكان متخفيًا حريصًا على الذهاب باتجاه جنود (جنوة) لأهرب مع بقاياهم لكن أصبت في ذراعي وأسرنى أحد ضباطهم متصورًا أنني من المدينة وأسرنى مع قوافل أخرى كعبيد غنيمة حرب وقرر سلطانهم إرسالنا لبلادهم للبيع كعلامة على النصر وليستفيد منا بالمال وفي الطريق كنت أوشك على الهلاك فلا طعام يكفي لنحيا ولا علاج للمرضى بل غلظة القلوب وقسوتها معنا، حاول البعض منا الفرار لكن سيوف الجنود كانت أسرع وقتل هناك الكثير حتى لم أعد أفهم ما أهميتنا

للبيع طالما يتساهلون هكذا في قتلنا فكنا أشبه بغنائم
نصر يباهي بنا سلطانهم أمراء الأناضول فقط).
سأله البابا في خفوت:
(وتم بيعك هناك؟).
أجاب الكاردينال:

(كلا بل حدث أنني قد أخفيت مالا معي منذ البداية أملا
في مساعدتي على الهرب لكن لم تتح لي الفرصة قط
وحين هبطنا في إحدى القرى رأيت رجلا منا يفتدي
نفسه من الأسر مقابل مالا وآخر مقابل حلية ذهبية معه
وعلمت بأننا قد أدينا غرض التباهي وبتنا بلا قيمة
فأخرجت كل ما معي ووهبته للحراس الفرحين بالمال
وتركوا من أعطاهم وأكملوا الطريق بالآخرين ممن لم
يملكوا شيئا، أما أنا فقد عدت هذا الطريق ثانية مواجهًا
من الأهوال والمخاطر ما يفوق مواجهاتي عند (كليف)
بالماضي ورأيت بعيني الموت عدة مرات حتى وصلت
لكنيسة أقرضتني بعض المال وقد أشفقوا على حالي
دون أن يعرفوا من أنا فأعانني المال حتى وصلت
لجزيرة (ساكيز) مضطراً على طول الطريق والتفافه
خوفاً من أن يعرفني أحد فيشي للأتراك وقد كانوا أعلنوا
موتي وعرضوا جثة المسكين الذي ألبسته ملابس
الكهنوتية).
قال البابا:

(ومن هناك جئت إلينا الآن، سعيد أنا بك أيها الكاردينال العزيز ولا تتصور كيف كان حالنا حينما سمعنا بموتك فالآن حقا انتهى جزء من الحزن).

سأله الكاردينال بغضب مستعر:

(وهل سنترك الحال كما هو حتى نرى هذا الرجل وقد رفع عمامته فوق الفاتيكان وسرق كنائسه لتصير مسجداً كما فعل في (آيا صوفيا) ونصف كنائس المدينة؟).
بدا بريق مليء بالشر في عيني البابا يتناقض مع طبيعته الدينية الهادئة وأجاب:

(دعني أعدك بشيئين يا كاردينال (إيزدور)، الأولى أن هذا الرجل الطاغية لن يموت إلا بيد تخرج من هنا لتتسلل إليه حتى تقتله وهو بين رجاله في قصره وتثار لكل من ماتوا ولكل ما حدث من جيشه حتى ولو بعد سنوات طويلة فالموت قرار هذا المكان المقدس وعقابه، أما الثانية فإنني أعدك وإن كنا لن نحيا ليومها أن نرد الضربة للأتراك).

سأل (إيزدور) بحلق جاف من الانفعال:

(كيف نردها لهم وهم بتلك القوة؟).

أجاب البابا بصوت لن ينساه الكاردينال أبداً:

(يوماً ما وربما بعد سنوات طويلة ستصيب الشيخوخة عظامهم وسنكون نحن في عنفواننا فتلك الأيام تتداول يا (إيزدور) ولا تستقر في سلطان أحد، حينها ستكون كل بقاع العثمانيين في الغرب والشرق غنيمة لممالك

أوروبا وسيتقاسم الملوك أراضيهم التي قاتلوا لسرقتها
من شعوبها حتى لا يبقى لهم شيء إلا أرضهم ثم تأتي
كلمات الرب بالنصر الكبير، يومها وعلى شاطئ
(كونستانتيوبوليس) وعلى سواحلهم المليئة الآن
بسفنهم سيهبط الآلاف من أبنائنا ويغزون أرضهم
وستتبدل سفنهم بسفننا وستعود (كونستانتيوبوليس)
لنا يمرح فيها جنودنا ويقتلون جنود الأتراك ويطردونهم
إلى حيث أتوا ليعودوا إلى مجاهل آسيا موطنهم الذي
خرجوا إلينا منه كالجراد، ستسترد أوروبا (أيا صوفيا)
وستعود كنيسة كما كانت وهذا وعد مني لك يا كاردينال
(إيزيدور) مهما طالت السنوات فإننا عائدون إلى
(كونستانتيوبوليس) بجيوشنا التي أخرجوها منها..
وهذا وعد).

إستانبول، صباح الثالث من يوليو، العام ١٤٥٣.

اتسعت عينا (يحيى) في انبهار وهما تتأملان (صوفيا) في ثوب أبيض جعل كل جمالها ظاهر للعيان فبدت مع شعرها الذهبي المنسدل كالملائكة التي يتصورها الناس في خيالاتهم حين تتمثل فيهم كل معالم الرقة والإبداع، كانت نظرات (يحيى) الولهة سبب لتندفع دماء الخجل إلى وجنتيها فسارت حيث هو في ارتباك من تخشى تلك النظرات بقدر ما تسعد بها وجلست قبالة أمام الطعام دون أن ترفع عينيها إليه وهي واثقة من أنها إن فعلت فسترتطم بعينيها فاكتفت بوجهها الناظر للأرض دون كلمات ومع الطعام ازداد خجلها وهي تراه يهمل طعامه ويتأملها وأرادت الخروج من هذا الوضع فقالت: (بالأمس خرجت لبرهة قصيرة ثم عدت متجهماً ولم أرك إلا الآن، أبك شيء ما؟). أعاد سؤالها (يحيى) إلى الواقع فانتابه الضيق وقال باقتضاب:

(لا شيء يذكر، فقط بعض المشكلات في العمل لا أكثر). لم تفت تلك الكلمات المموهة (صوفيا) فسألتها باهتمام: (هل هناك شيء يخص (كونستانتينوبوليس) أو (أيا صوفيا)؟).

كان المسمى نفسه يضايق (يحيى) فاسم المدينة اللاتيني لم يكن يروق له ولم يكن حتى يجيد نطقه حتى فاكتفى بأن قال بنفس الاقتضاب:

(كلا يا (صوفيا) لا شيء من هذا إنما هو ما تحدثنا فيه من قبل عن ذلك الأندلسي).

شعرت الأخيرة بأنه لا يريد الحديث عن الأمر فتابعته طعامها في صمت مختلصة النظر إليه بين الفينة والأخرى وقد شعرت بتأنيب الضمير لما ذكرته به من هموم بعد أن كان سعيداً ثم سرعان ما لامت نفسها على ذلك التأنيب فهو سبب لشقائها وأسرها فمن البسيط في المقابل أن تثير ضيقه أو قلقه فهذا هين بجوار ما تمر به هي، حين أنها طعامهما ورفع الخدم ذهب (يحيى) وجلس بالقرب منها سائلاً إياها بلطف:

(هل كل شيء يمر الآن على ما يرام أم أن هناك ما يؤرقك؟).

ترددت (صوفيا) في إجابتها إلا أنها حسمت موقفها على علمها بما قد تسببه وقالت:

(إن لي أمنية غالية، أريد الرحيل عن (كونستانتينوبوليس) فليس لي مكان فيها وهذا ليس بممكن إلا لو تركتني كحرة كنت تستضيفها ببيت امتلكته ذات يوم ثم آل إليك).

شعر (يحيى) بقبضة باردة تعتصر قلبه وبدأت حالته جلية على صوته ووجهه وهو يسألها:

(أهناك شيء يؤذيك؟ هل رأيت مني منذ أيام عدة أي تجاوز لوضعك الحالي؟ هل شعرت مني بما يهين كرامتك أو شرفك أو معتقداتك؟).

أجابت:

(كلا لكن ليس..).

قاطعها قائلاً:

(فلماذا تصرين على إفساد كل لحظة تجمعنا معاً وتجعلينني أشبه بسجان يعذب سجينته؟).

أجابت (صوفيا) :

(وماذا أكون هنا أكثر من سجينة لا يحق لها أن تغادر وتحيا على رضا صاحب البيت الجديد وتارة تصير خادمة وتارة أخرى ضيفة؟).

قال (يحيى) بألم:

(أنت في بيت أبيك ولا أحد يقدر على أن يهينك هنا).

نهضت (صوفيا) وسألته:

(وماذا بقي لي بالبيت أو حتى في (كونستانتينوبوليس) كلها؟ لقد بات كل حجر هنا يذكرني بما مر عليّ حتى الآن وتحولت قاعة المرح هذه إلى قاعة للسجن حين أتذكر من أحببت ورحلوا، هل تراني سعيدة بالمدينة الغالية عاصمة المذهب الشرقي التي باتت الآن تؤذن خمس مرات؟ هل تظنني أحب البقاء هنا لأخرج حين تسمح لي وحتى لو خرجت فلن أرى إلا (أيا صوفيا) التي تركتها غارقة في دماء المصلين والمستجيرين بها

لتصير من بيت للرب إلى مسجد لدينكم؟ أبعد هذا كله
تراني مقبلة على البقاء هنا؟).

أمسك (يحيى) بيدها وقال:

(فلتبقي هنا من أجلي ولتحبي في زمنك الجديد فلا جدوى
من الرحيل فهو لن ينجي أحداً قد هلك ولن يعيد المدينة
لقومك ثانية).

نزعت يدها من قبضته بهدوء وقالت:

(وأي مغنم من هذا؟ هل لو كنت أنت الأسير لدى بيزنطة
وصار لك ما صار ألم تكن لتفكر في الهرب مثلي؟).

لم يجبها (يحيى) وقد وجد كلماتها سليمة فاكتمى
بالسكوت وتركها تسترسل قائلة:

(حين وطأت هذا البيت لم أصدق نفسي وظننت أن
الغازي التركي قرر أن أكون في بيتي ثانية إكراماً لأصلي
لكن الحقيقة ذبحتني مع بيان وضعي كجارية مملوكة،
حتى هذه الأيام وأنا في رعايتك لا آمن غضبك ولا
تقلباتك ولا أنت نفسك تأمن سلطانك فقد يطيح بك كما
فعل مع الآخرين وحينها أنتقل من بيتك لبيت رجل آخر
وأصلي حتى لا يمتهن كرامتي باسم الرق وأصير من
سيدة بيت بارون إلى جارية تنتقل من رجل إلى آخر
برعاية سلطان غاز).

نهض (يحيى) ووقف أمامها بشكل دفعها للتراجع خطوة
للخلف وهو يقول:

(هذا عنك أما أنا فماذا عني؟ ألم أقر لك بحبي لتري فيه دافعاً يكفي حتى تبقيين أو تفكرين ملياً، فلتعلمي أنني لن أدعك تغادرين ولن أتجاوز ما بيننا حتى يأتي يوم تبادليني فيه هذا الهوى أو أهلك قبلها).

كانت الكلمات تحتشد بداخلها لكنها اختنقت مع حرارة صوته فأطرقت برأسها دون جواب أما هو فتركها واقفة وسار ببطء إلى الحديقة الغناء وجلس وسطها وهموم البلاط والأندلسي والجيش و(صوفيا) تغرقه واثقا من أنه بغيابه عن البلاط قد منح للشر فرصته حتى يقفز إلى القمة ويحقق هدفه الذي حتى الآن لا يعرفه ووسط هذا الهم كانت كلمة واحدة بقلبه تضيء ظلامه وتخفف آلامه..
(صوفيا).

إستانبول، صباح الرابع من يوليو، العام ١٤٥٣.

تأمل مجلس السلطان كله وجه (يحيى) الهادىء الناظر إلى الأرض باستكانة وهم يتساءلون عن موقف السلطان من صديقه الشاب بعد يومين من غيابه عن المجلس بأمر سلطاني أشبه بالطرد، كان (زاجانوس) غاضباً لأن السلطان أعاده في سابقة غير معهودة عنه حين يطرد أحد أفراد حاشيته فإما القتل أو النفي لكن عودته الآن تجعل مشاعره الخاصة تتأجج فها هو أثير السلطان المقرب يفوقهم مكانة بعودة وسماح لم يحصل عليه حتى الصدر الأعظم السابق والشيء الداعي للخوف أن يوافقه السلطان بالموافقة على تسيير حملات للشرق بدلاً من الغرب فيقودها هو ويحصل على المجد كله، أما (جولياث) فقد كان يتوقع هذا بشكل أو بآخر فالسلطان صديق لـ(يحيى) ولا يمكن أن يساويه بالصدر الأعظم السابق أو بغيره وحتماً لن تضيع مكانته بسهولة فالضربة لا يمكن أن تكون واحدة لتقضي عليه بل ضربتان أو أكثر وقد بين للسلطان معارضة (يحيى) لألقابه ووضع الجديد وسياساته فلا بد أن يضيف إليها خلافاته مع أكثر حاشيته ثم الضربة النهائية والتي يعد لها منذ أيام.

انتزعته من أفكاره كلمات التحية ونهوض الحاشية فرأى السلطان يسير عبر القاعة ويمر أمامه حتى جلس على

عرشه وأشار لهم بالجلوس ففعلوا مترقبين موقفه من (يحيى) متوقعين كلمات حادة وعتابًا صارمًا لكنه ولدهشتهم لم يفعل هذا بل تعامل مع الكل كما اعتاد ومنهم (يحيى) وبدأ يناقش في أحوال المدينة وإعادة بناء ما تهدم منها ثم ينتقل لشئون العسكر خارج الأسوار ويشير إلى (زاجانوس) و(يحيى) وغيرهم من الضباط بتعليمات عادية كأنما لا شيء قد حدث ووتر الأمر بينه وبين الأخير.

كان شعور (زاجانوس) المتزايد بالغضب لموقف السلطان من (يحيى) لا يشبهه موقف (جولياث) الذي حافظ على هدوء ملامحه حتى جاء دوره في النقاش فنهض منحنيًا للسلطان وقال:

(إن حكم السلطان المبارك قد أنهى النزاع بين الناس بالمدينة ووفر لهم حقوقهم الكاملة في عدلٍ من بادنشاة العظيم، لكن تبقى بضع مشكلات تؤرق بال الحاشية هنا ولعلها متعلقة بمن يدخلون الإسلام من أهل المدينة).
لفتت الكلمات انتباه (زاجانوس) وشعر أن وراءها فخ منصوب لـ(يحيى) فتابع (جولياث) وهو يكمل حديثه:
(إن المقلق هو النظرة الدونية للذين انتقلوا للإسلام وتكرار الكلمات المشككة في دوافع إسلامهم من بعض أفراد الحاشية لذا فأرجو من السلطان النظر بهذه المشكلة الناشئة قبل أن تستفحل).
سأله السلطان:

(ليست كلماتك واضحة بالحقيقة، من يقول شيئا عن إسلامهم وماذا يقول؟).

اصطنع (جولياث) التخرج في رده:

(إنني لا أريد أن أكون سبباً للفتنة داخل بلاط مولانا السلطان فلا داعي لبيان من قال لكن الحديث عن حقيقة إسلامهم إذ يقول البعض إن هؤلاء لم يسلموا إلا من أجل تجنب التضيق عليهم وخوفاً من الحكم الإسلامي الجديد).

تدخل (زاجانوس) بالحوار قائلاً:

(هذا حديث منكر دينا وعقلا من يتجرأ ويذكره؟).

قبل أن يجيب (جولياث) نهض (يحيى) وأجاب:

(دعني أوفر على الأندلسي الجواب فهو أنا، أنا من ينتقد ما يراه مضرًا بصالح السلطنة لكن غيره يصر على تجميل المساوئ حتى لو دفن الحقيقة دفناً).

التفت الكل إليه وسأله السلطان بلهجة لم تخل من الضيق كأنما يعترض على تكرار مشكلاته:

(من حق الحاشية سماع قولك فهو يصيبهم على نحو أو آخر فنصفهم من المنتقلين للإسلام وقولك قد يؤذيهم).

قال (يحيى):

(إن مولانا السلطان قد أقر حقوق غير المسلم في (إستانبول) بناءً على قواعد أهل الذمة المعروفة لكنه مع هذا حوّل نصف كنائس المدينة لمساجد ولم يرد ما تم نهبه من (أيا صوفيا) عبر الجنود ثم حولها لمسجد، كل

هذا زعزع ثقة الناس في العهد الجديد ودفع الآلاف للهروب خارج المدينة المحطمة تمامًا ومن انتقل للإسلام لا أظنه انتقل عن رغبة بل من خوف وقلق فقط وكان علينا رد كل شيء لهم ورفع يدنا عن الكنائس حتى..). رفع السلطان يده مشيرًا له بالتوقف ففعل وسأله السلطان:

(لماذا لم أسمع هذا الرأي قبلا حين تم كل هذا وأسمعه الآن فقط يا (يحيى)؟).

لم يجب الأخير وارتبكت ملامحه فعاد السلطان يسأل: (إخوانك بالأندلس يُنهبون وتسرق أموالهم وتنتهك أعراضهم من أوروبا وأنت تستكثر أن نحوز غنائم النصر هنا ونؤمنهم على أعراضهم وما بيدهم من مال؟). قال (يحيى) وقد لفتت انتباهه كلمة الأندلس:

(حاشا لله أن يكون مولانا ممن يأخذون الناس بذنب الآخرين فليس ذنب أهل القسطنطينية أن نصارى الغرب يستعيدون أرض الأندلس ثانية ونحن..). هنا لم يستطع السلطان الحفاظ على هدوء كلماته وقال مقاطعًا:

(احذر لكلماتك يا (يحيى)! فمعنى الاستعادة نفى صفة الفتح تمامًا، هل ستساوينا بالغزاة بينما نحن فاتحون باسم الله؟).

وجد (يحيى) أنه لو أضاف كلمة في الأمر سيزداد غضب الخان فاكتفى بقوله:

(إنما أريد إلا إصلاحًا وكلماتي لا قصد منها إلا خير السلطان فقط).

عاد (زاجانوس) يتدخل قائلاً:

(لا شيء يبرر تشكيكك في إيمان من ينتقلون للإسلام فأنت كما قال السلطان تصيبنا بتلك الكلمات).

لم يدر (يحيى) ماذا يفعل وسط ترصد السلطان لكلماته وتشدّد (زاجانوس) ضده ومكر (جولياث) مصدر كل هذا الشر فصمت وعاد يجلس مكتفياً بما سمع إلى الآن.

هدأت الخواطر وقد تصور الكل أن جلسة هذا الصباح ستنفض من تلك النقطة لكن (جولياث) أشار للسلطان قائلاً:

(حتى ننهي المسألة بلا ضغائن عندي رجاء أن يتوقف القائد (يحيى) عن تلقيبي بالدونمة).

كانت كلمة الحاخام كالقنبلة وسط القاعة فتبادل الحضور الهمسات بينما زَمَ البعض الآخر شفاهم بغضب أو ندت منهم حركات عصبية وكان (زاجانوس) على غضبه قد انتبه إلى أن (جولياث) قد أصاب (يحيى) في مقتل بإغضاب الحضور والسلطان الذي توترت ملامحه ونظر إلى (يحيى) بتساؤل فقال:

(المستشار الأندلسي يعمم كلمة قد قتلها كأني أضطهده).

سأله السلطان:

(إذن فقد قتلها؟).

لم يجد (يحيى) مفراً أو مخرجاً فأجاب:
 (نعم، لكن في إطار حديثي مع المستشار حين زار بيتي
 ولم أكن أقصد إهانة له أو تشكيك).
 أشار السلطان إلى (جولياث) وقال لـ(يحيى):
 (فلتقدم له اعتذارك إذن).
 نظر (يحيى) إلى (جولياث) بمقت وقال:
 (أعتذر للمستشار عن تلك الكلمة ولن أكررها ثانية).
 تصنع (جولياث) الخجل وهو يقول:
 (ما عاذ الله أن أكون ممن يُعتذر له من مجاهد مثلك أيها
 القائد لكنني فقط أريد السلام وألا تتدخل في إيماني).
 همّ (يحيى) بالجلوس لولا أن تدافع عدد من الحاشية
 ممن انتقلوا للإسلام عبر أديان أخرى وتعاليت
 احتجاجاتهم المطالبة بالاعتذار وقال أحدهم:
 (إن الاعتذار واجب لنا كذلك فكلنا انتقلنا للإسلام من
 النصرانية ولا نقبل بأن يوصف أحدنا بمزدوج الديانة
 دونمة).

فقال السلطان:

(كما فعلت مع (جولياث) فافعل معهم فأنت أهنتهم كذلك
 حتى لو لم توجهها لهم).
 لم يملك (يحيى) إلا الإذعان أمامهم وقبل الاعتذار لهم
 بشكل مهين له مما جعل (زاجانوس) ينظر بدهشة إلى
 (جولياث) وقد اشتهم رائحة فخ كبير صنعه لـ(يحيى)
 وبدأت لمحات من القلق تتسلل إليه منبهة إياه أن نوايا

الأندلسي ما زالت غائمة وأنه أكثر دهاءً مما يبدو وربما يخفي وراءه الكثير، أما (يحيى) فقد باتت هزيمته تشعل المزيد من الغضب بداخله وبات يلمس مقبض خنجره الحلبي وعينه تتركزان على الحاخام مستشعرًا أن يوم المواجهة الأخير قادم لا محالة، من جانبه كان (جولياث) قد حقق خطوته الثانية وأثبت للسلطان مدى الخلافات التي باتت بين (يحيى) وحاشيته وعلى رأسهم (زاجانوس) فلم يعد متبقيًا إلا الخطوة الثالثة والأخيرة وهذه بالتحديد لن تتم إلا بمساعدة من الزهرة التي تنير بيت (يحيى)، زهرته الجميلة (صوفيا).

إستانبول / فجر الرابع من يوليو / العام ١٤٥٣ .

في تدمير دلف (بنيامين) إلى البيت بهدوء كما أمره عمه وهو يتساعل عن تلك الأفكار السوداء التي أتت بهم إلى هنا من قارة أخرى وبلد آخر ودفعت عمه لتلك الطلبات الغريبة التي تنهال عليه كل يوم، كان (بنيامين) قد قضى ليلة رديئة للغاية لم يشاهد مثلها قبلا إذ أيقظه عمه بغلظة فور مجيئه من القصر وطلب منه الذهاب للبقعة النائية التي كان يقابل (لوكاس) فيها بسرعة لإحضار الذهب المخبأ هناك منذ أن أتوا ولم يترك له الفرصة حتى ليسأل ودفعه للمغادرة دفعا فصار يتلفت حوله خوفا من الرقيب والجواسيس حتى وصل هناك وحفر بآلة أخذها معه في ارتباك حتى أخرج الصندوق الثقيل وعاد به، في المنزل كان (جولياث) ينتظر على أحر من الجمر حتى رأى (بنيامين) فقفز إليه وسأله بلهفة: (هل أتيت به سليما؟).

أجاب (بنيامين) بغیظ:

(ألا تراه يثقل ظهري حتى يكاد يوقعني؟).

تجاهل (جولياث) حديثه الغاضب والتقط الصندوق بصعوبة ووضع أرضا مخرجا مفتاحا كبيرا فتح به القفل وابن أخيه على تدمره يتابع بلهفة ذلك الصندوق الذي لا يعرف عن محتواه شيئا وكم كانت دهشته وهو يرى كمًا كبيرا من المجوهرات النفيسة المضيئة البراقة بشكل

يسيل لعاب أي شره للمال وكان وسط انبهاره يتساءل عن مصدر المجوهرات تلك وفيهم ستستخدم، كان (جولياث) قد اطمأن على النفائس وأغلق الصندوق ثانية والتفت إلى (بنيامين) قائلاً:

(بهذا الصندوق سأحقق خطوتي الثالثة وأطيح بالعربي خارج البلاط وربما خارج الحياة كلها).
قال (بنيامين):

(هذا الصندوق يحوي مجوهرات ونفائس بيزنطية لا أظن أنك أتيت بها من الأندلس).
جلس الحاخام بارتياح وقال:

(لقد أتى به (يعقوب الناجي) من بقايا قديمة لنفائس بيزنطية كانت في (صهيون) من العهد الروماني السابق لغزو العرب لكنها لا تميز عن نفائس اليوم ببيزنطة وحين وصل إلى غرناطة خبأه قبل مجيئه لي وبعد تيقنه من قبولي بالمهمة حدد لي مكانه فأرسلت من يستخرجه ودسسته وسط ما أتينا به).

قال (بنيامين) وقد طرأت على رأسه فكرة:
(وسيكون هذا كله ببيت العربي فيتهمه سلطانه المغرور بالسرقة من مال الغنائم ويطرده، فكرتك رائعة).

هز (جولياث) رأسه نفياً وعقب بقوله:
(ليس السلطان غراً ساذجاً، إننا في حاجة لدليل كبير يؤكد أنه سرق تلك النفائس من القصر وقت الغزو ولم

يدسها أحد ببيته وهذا لن يكون إلا حين ترتديها وتترين بها أثيرته ابنة البارون).

أكمل (بنيامين):

(ولهذا طلبت مني أن أستميل حرسه حتى يدخلوه لجناحها، كلا هذا ليس بممكن فهي ستسأل سيدها).

أوماً (جولياث) برأسه ليكمل (بنيامين):

(أنت ستقتنعها بأخذه وأن تشهد أمام السلطان بأنه أعطاه هذا الشيء كله فتكون شهادتها دامغة بإدانته).

صفق (جولياث) ببطء وقال:

(تلميذ نجيب أنت يا بن أخي، لن يقتنع هذا التركي بإدانة العربي إلا حين تشهد محبوبته فيتصورون أنه سرق هذا بعد الغزو ليهديه لجاريته).

سأله (بنيامين) بشك:

(هل ستقبل تلك المرأة هذا؟).

أجاب (جولياث) بثقة:

(بكل تأكيد فهذه المرأة تكره المسلمين بشدة بعد كل ما جرى لها ولا تنس أنها أسيرة لدية وقد رأيته يجبرها على أعمال الخدمة بما لا يتفق وجارية فهي لا تريده وستشهد عليه مقابل حريتها التي سأتوسط لدى السلطان لتتأهلها بعد شهادتها).

أنهى (جولياث) جملته وتثاءب بقوة ثم نهض ليصعد إلى غرفته لولا أن أوقفه (بنيامين) بقوله:

(لكن ما لم تفكر فيه قد يحدث! أن ترفض تلك الرومانية
التعاون معك ضد سيدها لأي سبب).
تجمّد الأندلسي في مكانه وقال بغموض وهو يكمل
صعوده لغرفته:

(حينها لو كانت المرأة بهذا الغباء فإنني لن أتعطل عن
العمل وسأقضي على الاثنين، سأسحق العربي بتلك
الجارية).

سأله (بنيامين):

(كيف ستفعلها؟).

أجاب الرجل بغموض أكبر:

(إنني ألمس حبه لها وعبر تلك المشاعر الحارة
سأصطاده بها أمام السلطان لتكون هي الطعم في كل
الأحوال سواء قبلت أم لا).

وعلى الرغم من غموض كلماته فإن (بنيامين) لم يسأل
متابعًا عمه حتى دخل إلى غرفته لينام وقد سأم من
غموض الكلمات الدائم وعدم إيضاحها له بصورة تجعله
مجرد تابع لا أهمية لوجوده إلا لتنفيذ الأوامر فقط فاكتفى
بأن قال لنفسه:

(الشيء الأهم دومًا هو أن نكون في أمان وألا ينقلب
السلطان علينا حتى لا نتجاوز مع صدره الأعظم
السابق).

ذهب (بنيامين) إلى غرفة خاصة بالبيت وخبأ النفائس
البيزنطية بها وشيء ما بداخله يؤكد له أن النهاية قريبة
جداً وستصير في الأيام المعدودة القادمة.
وستكون معها نهاية آخر فصول حياته داخل تلك المدينة
العتيقة..
إستانبول.

إستانبول، صباح الخامس من يوليو، العام ١٤٥٣.

أنهت (صوفيا) طعامها بمفردها في غرفتها الخاصة وهي حائرة مما يحدث منذ أول الأمس فـ(يحيى) عاد من القصر السلطاني أسوأ من أي وقت مضى وبدأ عليه علامات الحزن والغضب مع عصبية متطرفة جعلته لأول مرة منذ أيام طويلة يصيح فيها بغضب لسبب تافه، تضاربت مشاعرها عند هذه النقطة فلم تكن تدري من أي شيء تخاف أو تحزن هل من صياحه في وجهها أم لما قد أصابه ولا تدري فكم هي غالية تلك الأيام السابقة حين نعمت بحريتها وكانت تحت رعاية أبيها البارون ولا تعباً بشيء إلا بزواجها القادم من (ياروس) والآن هي تخاف ولا تدري مما تخاف، تشعر بالحزن ولا تدري على أي شيء، تفرع حين يغيب أسرهما وتطمئن حين تراه كأنما ليست حريتها مرهونة بإعطائه لها، كم هي مؤلمة حياتها الجديدة لكن ما باليد حيلة ولا بديل عن الصبر. انتزعتها من الأفكار صوت طرقات على باب غرفتها لم تسمعها منذ يوم ونصف فسارعت بلهفة إلى مقعد وثير يجعل ظهرها للباب وجلست عليه ويداهما تتأكدان من إتقان شعرها وسلامة وتناسق ملابسها ثم قالت: (تستطيع الدخول).

سمعت صوت الباب يغلق وخطوات هادئة تسير إلى حيث هي ثم تتوقف بلا صوت ولا كلمة فالتفتت إليه في حيرة

وارتدت للخلف في صدمة حيث لم تر (يحيى) لكن رأت
(جولياث بن نون) واقفا مبتسما ووجهه البغيض ينظر
إليها نظرة ذات مغزى لم تفهمها فقالت بغضب:
(هل جننت كيف تدخل إلى هنا؟).

هز كتفيه وقال ببساطة:

(أنا طرقت الباب وأنت سمحت لي بالدخول!).
سألت وهي تشعر بالغضب يكاد يفقدها صوابها:
(ومن أعطاك حق الصعود إلى غرفتي؟).

أجاب:

(سيدك العزيز (يحيى) لقد وهبك لي كجارية كعلامة
للسداقة).

شحب وجهها وقالت:

(أنت كاذب! هذا لا يمكن أن يحدث أبداً).
تقدم إليها خطوة أجبرتها على التراجع وسألها:
(ولماذا لا يفعل هذا ألسن جاريته ويحق له التازل
عندك؟).

توترت الكلمات وتلعثمت على شفاهها وهي تقول:
(إنه.. إنه يحبني ولا يمكن أن يفعلها إلا لو كنت أنت قد
أجبرته على هذا).

ضحك (جولياث) بصوت عال وقال:

(إنك على حق فهو لم يفعلها وأنا كاذب! ففي هذا البلد كل
شيء قابل للتنازل حتى الحب نفسه، إن ما يمنعه حتى لو

أراد أن من أهداه إياك هو السلطان وعطية السلطان لا تباع ولا تشتري ولا ترد).

عادت الدماء إلى وجهها مع كلماته وقد علمت بأن (يحيى) لم يفعلها ويتخلّى عنها لكنها انتبهت لمعنى الحديث ومغزاه فقالت بشدة:

(فمن أعطاك الإذن لتصعد هنا و(يحيى) ليس بالبيت وكيف دخلته قبل أي شيء؟).

جلس (جولياث) على مقعدها الوثير وقال:

(من قال إنني جنّ! إن تحدثت بهذا فسيكذبك كل الخدم والجنود ولن يقول أحدهم الحقيقة بالمرّة).

توجهت (صوفيا) للباب وحاولت الخروج لكنها وجدته مستعص عليها فالتفتت إلى الحاخام وقالت:

(قم وافتح لي الطريق للخارج).

قال كأنما لم يسمعها:

(عجيب هو سحر المال، بالذهب عاش ومات (لوكاس) وبحجة الذهب قتل السلطان خصمه الصدر الأعظم وبه أيضًا أسير هنا ببيت عدوي بلا رقيب ويسمح لي جنوده بالدخول ويصمت خدمه، ألا ترين أنه يستحق أن يُعبد من الناس فعلا أكثر من أي إله؟).

كررت بصوت مرتفع:

(قم وافتح الباب).

سألها دون أن يلتفت إليها:

(إلى أين حتى لو فتحت؟ إنك ممنوعة من مغادرة المنزل الذي كان لك يوماً وبات سجنك كجارية ممنوحة من سلطان غاز لرجل ليس حتى من دينك، إن هذا البيت لعنة أصابتك ولن تغادرك أبداً فكل ما فيه سيكون عذاباً لك وغيرك يهنأ به و أنت جارية حقيرة تهدى لقاتل أهلها). هنا لم تتمالك (صوفيا) نفسها وسارت إليه وهي تقول: (فلتذهب إلى الـ..).

نهض الحاخام بخفة من المقعد وأمسك يدها مقاطعاً جملتها وأجبرها على الجلوس مكانه ناظراً مباشرة إلى عينيها وقال:

(إنني الآن أنظر إلى عيني فتاة خانت دينها النصراني وأباها المقتول وخطيبها المذبوح ورضيت بمهانتها بعد أن كادت تمنح كمخلصة للناس في خدمة الرب ورضيت بالرق).

جمدت الكلمات (صوفيا) وقد نكأت جرحها العميق فصمتت وهو يكمل:

(إن أرواح من قُضوا في كاتدرائية (آيا صوفيا) تناديك وكل من بقي على قيد الحياة لتكونوا ثائرين على الظلم). قالت وعيناها عاجزتان عن الهروب منه:

(كيف تتحدث بهذا وأنت مسلم؟).

أفلت يدها وقهقه بصوت عالٍ أثار خوفها ثم أجاب:

(أي إسلام يا فتاة الصليب! هل تريدان القول بأن عاشقك العربي لم يحدثك عن شكه في عقيدتي وإنك منذ أن رأيتني في الكاتدرائية شككت في حقيقة ديني؟).
تجمدت الكلمات على شفاهها وهي تسأل نفسها عما يريد وبدا لها كأنما يقرأ عقلها حين انحنى عليها وقال:
(أنا أريد صالحك يا (صوفيا)! لا أكثر وما أرغب فيه سيعود عليّ وعليك بالخير الوفير، سيعطيني ما أحب ويمنحك ما سلبه الغزاة منك، يعطيني الظفر ويعطيك الحرية).

لفتت الكلمات انتباهها فأنصتت إليه بينما أكمل وقد تأكد من أن التأثير المنشود قد تحقق:

(يا عزيزتي (صوفيا)! إننا إخوة في هذا فأنا وأنت على حد سواء من أتباع العهد وبتنا من ضحاياهم فأنت أسيرة عربي غاز قتل أهلك وأنا تابع لهم أخشى من إظهار ديني واضطر لاصطناع الإسلام هرباً من بطشهم وظلمهم فليس بإمكانني فعل شيء إلا التظاهر بالإسلام كما فعل الآلاف من أبناء (كونستانتينوبوليس) بعد غزوها فمن مصلحتنا المشتركة أن نتعاون في هذا).

جفّ حلق (صوفيا) عند هذه النقطة وسألته:

(كيف يمكن أن يحدث هذا؟)

عاد (جولياث) يميل عليها وهو يجيب:

(بالعقل وحده! فهؤلاء الغزاة كتلة من العضلات بلا عقل وقد تسلل إليهم الغرور حتى بات ملكهم ينتحل الألقاب

لقباً وراء الآخر حتى تصور نفسه ملك الملوك وكبيرهم
فالعقل اليوم عدوهم والسبيل لخلصنا).
قالت بقلق:

(لم توضح ماذا عليّ أن أفعل! لا تقل إن عليّ قتل (يحيى)
من أجلك!).

ابتسم بسخرية وهو يقول:

(ما بال الناس اليوم قد مالوا لسفك الدماء؟ حتى إذا ما
تحدثت مع أحد عن مهمة وجدته يتصور القتل وزهق
الأرواح، كلا إن المطلوب ليس بالشيء الصعب فهو من
أعمال النساء.. الكذب).

بدت الحيرة على وجهها فأكمل بخبث:

(إن السلطان يكره الخيانة المالية وبسببها قتل ذلك
الأحمق (لوكاس نوتراس) واليوم سنستغل ذلك من أجل
مخططنا فنطرح بالعدو العربي المشترك بيننا وتنتقمين
منهم بأن تجعلهم يطيحون بأحد من قادوا الغزو بأيديهم
فتنالي من أسرك بأيدي أعداء بلادك وأعداء المسيح).

قالت (صوفيا):

(إن كلماتي لا قيمة لها عند أحد ولو اتهمته بشيء فلن
يصدق أحدهم جاري.. لن يصدق أحدهم امرأة في الأسر).
تأمل (جولياث) ملامحها الجميلة وقال:

(لا تخف الحقيقة المخجلة الظالمة وقليلها: أنت جارية!
لكن تلك الجارية أكثر قوة من كل رجالهم وستجعل الكل
خاسرين أمام قوتها).

سألته (صوفيا) بعصبية:

(ماذا تريد بالتحديد وتوقف عن المراوغة؟).

قال (جولياث) وقد ابتعد عنها وجلس على طرف فراشها:

(إن السلطان سيعلم مني عن سرقة نفائس لا تقدر بثمن تعود لأجيال بيزنطية مضت كانت مخبأة هنا وقت الغزو وقد رأيتها حين زرت (يحيى) وكمخلص للسلطان وللدولة فانا سأبلغه عنها لأنها سرقة كبيرة وطبعًا سيرسل من يبحث وسيجد النفائس في غرفتك وحين يستدعيك للشهادة ستقولين إن (يحيى) منحها لك كهدية وعرض عليك الزواج وبوجود النفائس في بيته وشهادتك يكتمل الأمر ويلقى غضب السلطان).

ابتلعت (صوفيا) ريقها بصعوبة وقالت:

(سيقتله السلطان حتمًا!).

عاد (جولياث) يهز كتفيه بلا مبالاة وقال:

(هذا السلطان دموي يسهل عليه طرد (بالدوغلوا) من القيادة لخسارته معركة ويقتل الصدر الأعظم السابق بتهمة واهية للخلاف السياسي ثم يعمد إلى تحطيم المدينة بالمدافع فأى شيء به دماء لا يصعب عليه، نعم في الأغلب سيفعلها).

بدا التردد على وجه (صوفيا) فقال (جولياث):

(إن دماء النصارى وأرواح القديسين وكلمات الرب التي أزيلت ليحل محلها كلام المحمديين كلها تناديك يا

(صوفيا)! حريتك وحياتك القادمة وعار الأسر والرق في مقابل العتق والشرف فلم تتردد في القبول والموافقة بلا شروط؟).

سألته بحذر:

(وماذا سيجعلني حرة؟).

أجاب (جولياث):

(حين تشهدين سأشفع لدى السلطان في أمرك وأطلب منه أن يعتقك وأخبره بقصتك وما فعله معك (يحيى) وبالطبع فإن السلطان بکراهيته لخيانة العربي سيتأثر بقصتك وبما بينك وبين (يحيى) من نفور على الرغم من حبه لك و سيقبل أن يمنحك الحرية).

قالت (صوفيا):

(ما زال هذا غير كافٍ ولا أقبل أن أضع رقبة من يرفض أن يمسنى بلا قبول مني بدون ضمان وإلا وجدت نفسي في بيت رجل آخر يأخذني غصبًا).

تنهد (جولياث) وقال:

(كلماتي كافية لتتقي بي! وتذكرني أن نصف الأمر بيدك ولا نجاح إلا بك فقط ولو ظللت أسيرة فلتفش السر).

ابتسمت في مرارة وقالت:

(وهل ترى السلطان حينها يبقي على حياتي؟).

هز رأسه نفيًا وقال:

(كلا! حياتي و حياتك معًا ستنتهيان لكن هذا ضمانك فلو فعلتها ستحققين ما أتى في التوراة وتهدمين المعبد على

رأس الكل، أليس في هذا ضمان كافٍ لك حتى تطمئنني إلى قوة ما بيدك؟).

لم تجبه (صوفيا) بشيء وأطرقت أرضاً وشيء بداخلها يدفعها للقبول فها هي الحرية تطرق بابها بعد الأسر وها هو رسول الشر قد أتى ليزيح سجانها، شيء آخر خفي تريد قوله لا يجعلها تقبل ويلومها بشدة على مجرد التفكير ويجعل جزءاً ميتاً من قلبها ينبض من جديد، كانت مشاعرها المتباينة بادية على وجهها فقال (جولياث):

(ما زال القلق يتغلغل في عقلك ومشاعرك المتضاربة تنهش فؤادك لكن دعيني أحسم الأمر لك فالحرية والثأر في مقابل الأسر والعار فأيهما تقبلين؟).
رفعت (صوفيا) رأسها إليه وسألته:
(لو فعلتها فماذا تربح؟).

أجاب:

(قلت لك سأثأر منهم فأنا مثلك مجبر على تغيير ديني ولي معهم ثأر).

هنا ضحكت (صوفيا) وبدأت كلماتها متهمكة وهي تقول:
(عزيزي اليهودي الصرف! توقف عن المزاح وكن صادقاً فأنت لا تتحدث بجدية أليس كذلك؟).

قال (جولياث):

(أنت لا تصدقيني إذن! كم أنت سوداء القلب يا هذه!).
عادت تضحك بنفس التهكم وأجابت:

(هل تراني ساذجة أو غبية حتى أصدق هراءك أيها اليهودي؟ لا أنا ولا أنت نتوقع هذا و حتى لو قلت إنني أصدقك فأنت تعلم أنني لست كذلك).

اختفت ملامح الهدوء والطيبة المصطنعة على ملامحه وبدأ عليها رسم صارم قاس وقال:

(ما دمت تريدان الحديث الذي لا مراوغة فيه فأنا سأقولها مرة واحدة، أنا لي هدف لا أسمح لك بمجرد السؤال عنه وأنت لك مصلحة في هذا ستحققينها وهذا يكفي لتوافقي).

أجالت النظر فيه من رأسه حتى أخمص قدميه وسألته:

(من أين ستأتي بالنفائس هذه؟).

أجاب وقد شعر بفؤاده يقفز داخله:

(سأتكفل بنقلها هنا وكما دخلت في صمت ستدخل هي ولن يشعر بها أحد وستتولين إخفاءها بغرفتك حتى يأتي جند السلطان).

نهضت (صوفيا) وقالت:

(فليكن أيها اليهودي الماكر! فلتلث بدميتك كما تشاء وأنا كذلك لي دمي التي سألهو بها).

سأل بحذر:

(إذن فقد وافقت نهائياً بدون رجعة؟).

أجابت:

(نعم! في مقابل الحرية فإن نكثت بالوعد كان ردي كشف كل شيء ولينهزم المعبد على رؤوس الكل كما جاء بالعهد القديم).

أوماً (جولياث) برأسه والحذر يزداد بداخله وقال:
(فلتطرق الباب مرتين ثم ثلاث مرات وسينفتح).
ذهبت (صوفيا) للباب وطرقته كما قال فسمعت صوت خطوات سريعة وانفتح الباب فنظرت إلى (جولياث) وقالت:

(صدقت أيها اليهودي! فالمال يفعل الكثير هذه الأيام).
غادر (جولياث) غرفتها وسار حتى نهاية الرواق ثم التفت إليها وراها واقفة أمام غرفتها تنظر إليه فقال:
(لم تسأليني عن موعد إدخال ما اتفقنا عليه!).
سألته:

(متى يكون الأمر؟).
أجاب وقد ساوره قلق يزاحم حذره:
(الغد في مثل هذا الوقت حتى يكون العربي خارج البيت).
أومأت برأسها موافقة بينما هو يغادر عبر الباب الصغير خلف المنزل ويسير خطوات قليلة قبل أن يبرز له
(بنيامين) ويسأله:
(هل مهمتك هنا تكللت بالنجاح؟).
أجاب باقتضابه المعتاد:
(نعم! كما كنت أريد تمامًا).

سار الاثنان عبر الطرقات الصغيرة والأزقة حتى وصلا إلى بيتهما وتسلا إليه من الخلف حتى ما إن استقرا قال (بنيامين):

(أشكر (يهوة) على ما نحن فيه فقد كنت أنتظر سماع صراخها ودخول الحرس إليك وحدث كارثة).

قال (جولياث) وهو يفكر:

(أي حرس يا بن أخي! إنهم جميعاً في قبضتي بالذهب ولو كانت صرخت لهرع الحرس ليقتلوها ويأخذوا المزيد من الذهب).

بُهِت (بنيامين) للرد وقال:

(كان العربي حينها سيطيع بهم) .

قال (جولياث):

(كلا! لقد حاولت الهرب قبلاً وكانت في سبيلها لتكرار المحاولة وكانوا ليتحججوا بأنها حاولت فعلها فقتلوا بدون قصد إذ ظنوا أنها لص أو جاسوس ما).

هم (بنيامين) بقول شيء ما لولا أن أشار إليه عمه بالصمت وراح الأخير يفكر جيداً في كل ما مرّ بينه وبين الرومية الأسيرة وشعوره بالحذر والقلق يتصاعدان تدريجياً وهو يتساءل عن حقيقة موقفها وسر استجابتها السريعة له، إن (زاجانوس) وغيره من الأتراك ليسوا بتلك الصعوبة في التحليل فكلهم قادة عسكريون لديهم طموحات وآمال وأفكار فمن أجلها يفعلون أي شيء حتى

لو خالف كل ما عاشوا من أجله وتدريبوا عليه لكن
(صوفيا) ما الذي يجعلها في هذا الموقف سريع التغيير؟
راحت أفكار متضاربة تتكون داخله ومن بينها بدأ يكون
رأياً واحداً ووجهة نظر واحدة فقط سيطرت عليه حتى
التفت إلى (بنيامين) وقال:
(لن تفعلها!).

سأله الأخير بحيرة:

(من يفعل ماذا؟).

أجاب (جولياث):

(تلك الرومية لن تفعلها أبداً، لقد قررت منذ أن ترددت أن
تبلغ العربي بالأمر كله).

اصفرّ وجه (بنيامين) وقال:

(لا يمكن! لماذا تفعلها وهي أسيرة تتخلص من أسرها
كما قلت؟).

أجاب (جولياث):

(من يفهم المرأة! إنها كائن غريب أخرج آدم من جنته
وسيخرجنا الآن من عقولنا وشعورنا).

قال (بنيامين) بلهفة:

(فلنهرب إذن! فالسلطان لن يرحمنا).

نظر إليه عمه في ازدراء وقال:

(من حسن الحظ أنني من يقود الأمر! إن السلطان لن
يؤذينا بل سينهي عليهما معاً بضربة واحدة).

بدا اليأس على وجه ابن أخيه فقال:

(هل نسيت حين قلت لك إنها لو رفضت فستكون هي
الطعم الذي سينهيهما؟).

أجاب:

(كلا، لكن ماذا ستفعل؟).

قال (جولياث):

(اطمئن فعداً سيشكوني (يحيى) للسلطان فهو متهور
عصبي لن ينتظر أن أذهب إليها ثانية فهؤلاء العرب
سريعو الغضب كثيرو الصياح قليلو التفكير، من تلك
الشكوى سأجعل السلطان يغضب عليها ويندفع الأحمق
كالمعتاد ليدافع عن محبوبته فأصب الزيت ولتشتعل
الدنيا كلها في وجهيهما).

لم يبد الفهم على وجه (بنيامين) لكنه اكتفى بالصمت
وشعور غريب يملأ كيانه أن هذه الأيام هي أيامه الأخيرة
بالدنيا بفضل رؤية عمه العجيبة وتهوره الزائد وغروره
الكبير.

وأن النهاية ستكون هنا في مدينة الأعاجيب وأرض
الأتراك الجديدة.. (كونستانتينوبوليس).

إستانبول، الخامس من يوليو، قبل منتصف الليل بقليل العام
١٤٥٣.

جلس (يحيى) في غرفته بشرود حائرًا لا يعرف ما العمل في أزمتته مع صديقه السلطان، إنه لم يذهب للمجلس منذ أن اعتذر للحاشية والسلطان لم يرسل له ولن يفعل حتى يمر وقت كافٍ قد يكون أشهر أو أيامًا، كم هي مؤلمة تلك الأيام التي يسقط فيها النصر بأيدي من لا يستحقه ويحوز المنافقون الغنائم ويتنازع المقاتلون كل الفرص كأنما هي حرب أخرى بدأت بنصر (إستانبول)، ومن وسط شروده انتبه (يحيى) إلى نحنة بسيطة خلفه فالتفت إليها متسائلًا قبل أن يثب من مقعده وهو ينظر بلهفة إلى (صوفيا) التي ارتدت ثوبًا ورديًا ووضعت وردة حمراء على جانب شعرها المنساب على كتفها وقال:

(هل هذا حلم جميل أراه قبل النوم! كم هي جميلة الأيام بك يا (صوفيا) الغالية).
تضرجت وجنتاها بالحمرة وقالت بعد أن جلست على مقعد يجاور باب جناحه:
(جنتك لأمر مهم لا يحتمل الانتظار للغد).
جلس على مقعد مجاور لها وقال:
(أيًا كان السبب فأنا مدين له بتلك الزيارة الغالية لأول مرة إلى جناحي).

عادت تتنحج كأنما تنفض الخجل عن نفسها وسألته:
 (ما هي أحوالك بمجلس السلطان؟).
 بدا الضيق على وجهه وهو يجيب:
 (ليست كسائر الأيام! لكنها تظل تمر بدون ضرر كبير،
 لكن لم السؤال؟).
 لم تجبه مباشرة وسألته ثانية:
 (ماذا عن ذلك الأندلسي؟).
 شعر بالحيرة لتلك الأسئلة وبدأ له كأنما تعرف ما دار
 بالمجلس فقال:
 (إنه رجل غامض لا أثق به وقد تسبب لي في مشكلات
 مع الصدر الأعظم وبعض الحاشية وربما السلطان
 نفسه).
 قالت وهي تنظر للأرض حتى لا تلتقي عيناها:
 (والآن هو سيسبب لك مصيبة هنا ببيتك وهناك في
 مجلس السلطان!).
 وقبل أن يسألها عن شيء بدأت تقص له الأمر كله وهو
 مبهور ويقاطعها مع كل كلمة بسؤال أو استنكار وهي
 مستمرة في الرواية حتى انتهت بقولها:
 (لقد خدعته بأن وافقت ورأيت إخبارك بتلك المؤامرة
 لتحترس منه).
 قال (يحيى) بغضب هائل:

(ذلك القذر! دخل إلى هنا وصعد لغرفتك برشوة هؤلاء الخونة ليتآمر ضدي، لقد خاتني جنودي أبناء ملتي ولم تفعلها أنتِ الجار..).

انتبه (يحيى) لكلماته فلم يكمل عبارته لكن (صوفيا) قالت:

(قلها! الجارية الرومية النصرانية أليس هذا ما كنت تريد قوله؟ إنها الحقيقة فلم تخجل منها؟).

لم يكن (يحيى) في حال يسمح بالكثير من الحديث بعيداً عما سمعه فلم يرد على عبارتها وسألها:

(هل قال إنه سيعطيك النفائس غداً صباحاً؟).

أومأت برأسها إيجاباً فقال:

(لن يفعلها! إنه ماهر لنيم وقد علم حتماً أنك تخدعينه، وصفك لتردده وهو يغادر يشي بهذا وربما يكون قد تخلص منها).

سألته:

(وماذا ستفعل الآن معه؟).

نهض من مكانه والتقط سيفه وخوذته الحربية وقال:

(سأفعل ما كان يجب فعله منذ أن شعرت بخيائته وسط غفلة السلطان وغروره الذي يعميه).

قالت بقلق وهي تتابع ما يفعل:

(هل ستلقي القبض عليه؟).

ضحك بمرارة وأجاب:

(لا احد يلقي القبض على مستشار من الحاشية إلا بأمر السلطان حين يريد الإطاحة به وتكون التهمة سرقة أو خيانة، أنا الآن في طريقي لأنقذ البلاد من هذا الشيطان ساحر العقول، ذلك الدونمة).

نهضت وأمسكت ذراعه وقالت:

(كلا، إن فعلت هذا اتهمك سلطانك بأن قتله كان لمشكلات بينكما وتنافس وحسبما قلت فقد أذاك ولن يغفر لك السلطان).

وعلى الرغم من الحرارة التي تدفقت في جسده حين أمسكت ذراعه إلا أن صوته لم يتغير وهو يقول:

(سأطلب شهادتك وحينها تخبرين السلطان عن حقيقة ذلك اليهودي الحقير الذي لا يريد إلا الخراب).

تركت ذراعه وقالت بألم:

(نسى القائد العربي أنني مجرد جارية لا قيمة لشهادتها).

انقبضت ملامح (يحيى) وقال:

(دعك من هذا فأنت ابنة بارون كبير وما حدث لك لا يجعلك إلا أسيرة، أنت (صوفيا) ولن تتغيري).

أكملت:

(ولو أعطاني شهادة الحرة أنسيت أنني نصرانية؟ في

دينكم لا شهادة لي في شأن قتل، هل نسيت أنني امرأة

ولا أشهد في شؤون الحدود؟).

شعر (يحيى) بالعرق على وجهه من حديثها القاتل

فاكتفى بأن قال:

(كل شيء لا بد أن يتغير فنحن لسنا بعد في جزيرة العرب).

تركها (يحيى) وغادر البيت وشيء بداخله يقول له إن هذا البيت لن يصير إليه بعد اليوم، تلك الوسائس التي تنتابه حول مصيره وهو اجس الحكم التركي تحولت لكابوس يطارده حتى في يقظته، سار (يحيى) حتى وصل إلى بيت (جولياث) وتوارى خلف شجرة كبيرة يتابع الحرس المحيطين به وهو يتساءل كيف يفعلها وبينما هو يفكر رأى فارساً يغادر البيت ومعه حرسه، (زاجانوس) الصدر الأعظم بنفسه يغادر بيت الأندلسي في الليل مما دفعه إلى الغممة:

(يا لعار آل عثمان! الصدر الأعظم يقضي ليله ساهراً مع يهودي حقير لا أحد يعرف أصله وغرضه!).

مضى وقت لم يحسبه وهو واقف لكنه كان طويلاً ومملاً بحق، كذلك كان وضع (يحيى) مقلقا ويثير الرجفة في أوصاله على الرغم من الجو الحار الذي يغلف المكان فوقوفه هكذا بلا هدف وبسلاحه قد يثير ريبة أحد فيخبر الأندلسي الذي قد يقتله أو يؤذيه بحجة أنه لم يتعرف عليه وتصوره بيزنطي موتور أو لص، أخيراً شعر (يحيى) بفراغ الصبر وهم بالتقدم إلى البيت لولا أن انتبه إلى مغادرة شخص ثان البيت بمفرده على حصان قوي.. وكان (بنيامين).

إستانبول، الخامس من يوليو، بعد منتصف الليل بقليل العام
١٤٥٣.

لم ينم (جولياث) تلك الليلة وعقله يعمل بصورة لم يحدث
قبلا فالיום التالي هو يوم النهاية ولا مكان للنوم أو
الكسل فالحرب توشك على النهاية وخصمه المتهور
سيواجهه غداً فلا تراخ بل نشاط وتفكير للوصول إلى
المراد.

انتبه على صوت طرقات و(بنيامين) الذي أيقظته
الطرقات وهو يفتح الباب ويرحب بالصدر الأعظم فقفز
من مكانه وسار إليه مسرعاً راسماً ابتسامة مزيفة على
شفتيه قائلاً:

(الصدر الأعظم بنفسه في بيتي يا له من كرم وشرف!).
عانقه (زاجانوس) وهو يبدو متغيراً في حالة لم تخف
على (جولياث) لكنه تجاهلها حتى يسمع حديث ضيفه
الذي جلس بجواره بينما عاد (بنيامين) للنوم وبدأ
(زاجانوس) الكلام بقوله:

(لقد أقلقني منك شيء في جلسة السلطان حين أخرجت
(يحيى) بمسألة الدونمة هذه).

بدا الجمود على وجه الأندلسي فأكمل الصدر الأعظم:
(حين فكرت بالأمر وجدت أنك حضرت كل كلمة لتحرجه،
لقد خططت لكل شيء وبات الأمر سليماً كمسرحية
إغريقية ونحن المتفرجون).

قال (جولياث):

(تقصد أنني أعددت لكل شيء ولم تكن نيتي بالسليمة فيما حدث).

أوما (زاجانوس) برأسه موافقا فقال (جولياث):

(إن أهل السياسة يدركون هذا وأنت منهم، لو كان بيد (يحيى) شيء يستطيع فعله كفعلتي لقام به ضدي).

ابتسم (زاجانوس) معلقا:

(لكنك لا تبدي هذا وتعطينا نفسك كالرجل الذي لا يحب المؤامرات صوفي النزعة مبتسم الوجه أما الحقيقة فإنك..).

قاطعه (جولياث):

(لا تكمل فأنت لا تنسى بالطبع عملي كمستشار لبعض أمراء الأندلس فخبرتي كبيرة في هذا الشأن، كذلك لا تقل لي إنك أتيت إلى هنا لتحدثني عن براعتي السياسية فقط).

ضحك (زاجانوس) بصوت عال وقال:

(كما توقعت فبراعتك السياسية كبيرة وعقلك لا يتوقف عن العمل، لقد جئت إلى هنا لأبلغك بقرار أسره لي مولاي السلطان بعد صلاة المغرب).

تألفت عينا (جولياث) وقال:

(قراره بالزحف إلى أوروبا حين يقرر الفتح والبعد عن فكرة الزحف للشرق العربي، أليس كذلك؟).

أوما (زاجانوس) برأسه وعقب:

(كان موقف (يحيى) ودعمك وإصراري هم أسباب هذا القرار الحاسم والذي يدفع الراحة لصدري).
 ابتسم (جولياث) دون رد ونهض (زاجانوس) قائلاً:
 (أردت تهنئتك وتهنئة نفسي قبل العودة لقصري وأنتظر غداً بالمجلس).
 تابع (جولياث) رحيل الصدر الأعظم ثم قال لنفسه:
 (غداً هو يوم الحسم يا ألباني!).
 من فوره ذهب (جولياث) إلى غرفته وأخرج قرطاساً فارغاً وبدأ يكتب رسالة بلغته العبرية وأنهاه بخاتمه الذي يحمل اسمه ثم انتظر جفاف الحبر وطوى الرسالة ووضعها بصندوق صغير ثم ختمه بالشمع وهبط إلى (بنيامين) النائم وأيقظه بشدة قائلاً:
 (استيقظ يا فتى فقد حانت لحظتك الحقة).
 كان الأخير فزعاً وهو يصحو بتلك الطريقة وسأل عمه:
 (هل أرسل السلطان الجنود؟).
 أجاب (جولياث) بصرامة:
 (كلا أيها الرعدي! بل حان وقت مغادرتك إلى (أورشليم) الآن).
 بدا عدم التصديق على وجه الفتى فعاد عمه يقول:
 (انهض وانفض عنك هذا الكسل واجمع أقل القليل من حاجياتك وخذ كفايتك من المال لتشتري لنفسك كل ما تحتاج في سفرك، هيا سريعاً).
 صاح (بنيامين) في وجهه بغضب:

(ماذا تقول بحق التوراة؟ هل تراني مجنوناً لأرحل من
(كونستانطينوبوليس) إلى مدينة (داوود) الآن بلا إعداد
وبسرعة؟).

أمسك عمه بكتفيه ونظر في عينيه مباشرة قائلاً
بصرامة:

(إن وجودك هنا قد انتهى وبات محقق الخطر علينا نحن
الاثنين ولا بديل عن رحيلك، الجارية ستكشف كل شيء
للعربي وهو سيواجهني غداً عند السلطان كأبي عصبي
متهور ووجودك خطأ الآن فلربما ينتهي كل شيء في
لحظة).

بدأت كلمات الحاخم مقنعة لابن أخيه الذي لم يملك إلا أن
قال في وهن:

(ما الذي يدفعك لهذا هل أخبرك الصدر الأعظم بشيء؟).
لم يجبه الحاخام وذهب إلى صندوق خشبي بسيط مخرجاً
منه عدة أكياس وقال:

(ذلك ذهب خذه واتجه لطريق التجارة للشام وستجد
قوافل التجار كثيرة فأذهب معهم مقابل ما يطلبون ولا
تسرف لئلا يطمعوا فيك ويقتلوك ثم يسرقوك، ستكون
معهم حتى (دمشق) ومن هناك خذ قافلة أخرى إلى
(أورشليم) واسأل عن كنس (الناجي) وهناك ستقابل
ضيفنا الذي حل بنا بـ(غرناطة) فتسلمه هذا الصندوق
الصغير، بعدها انتظرني هناك حتى آتي إليك).

كان (بنيامين) يريد أن يسأله عن الكثير لكن لم يكن عمه في حالة تسمح بالحديث فاكتفى بالنهوض وتغيير ملابسه بملابس عادية تناسب مسافر عادي والتقط الذهب والصندوق ووضعهم في حقيبة بسيطة من القماش وقال:

(الآن أغادر يا عماه).

أمسك (جولياث) وجهه بين راحتيه وقال:

(فلتصحبك السلامة إلى (صهيون) يا فتى ولا تحاول إرسال أي رسالة لي فأنا سأكون عندك قبل أن تصل إلى (كونستانتينوبوليس) فانتظرنى).

أوماً (بنيامين) برأسه موافقا ومتفهماً ثم غادر المنزل على حصانه وهو يشكر ربه أن أنجاه من هذا الجحيم سريعاً ومرّ وقت قصير قبل أن يشعر بأحد الفرسان خلفه وكان قد بات قبالة زاوية مهجورة من (أيا صوفيا) فالتفت خلفه متبينا فارساً يقترب وإن لم يميز ملامحه فانتظر حتى اقترب في الظلام وقال:

(أنا ابن أخ المستشار (جولياث) ببلاط السلطان وفي طريقي للقصر أيها الفارس).

قال الفارس بسخرية:

(السلطان الآن نائم أيها الكذاب!).

هنا انتبه (بنيامين) إلى أن الفارس هو نفسه (يحيى) الذي رآه قبلا في قصر السلطان فتوترت أعصابه لهذا الموقف الغريب وسأله:

(ماذا تريد أيها القائد (يحيى) الآن؟).

أجاب (يحيى):

(من أنتم ولم أتيتم لبلادنا؟ هذا ما أريده أيها الأندلسي).

قال (بنيامين):

(يبدو أنك في حاجة لكلمات أخرى من السلطان تجعلك تعتذر ثانية).

تراقص الغضب في وجه (يحيى) وهو يقول:

(ما كان لي من البداية أن أسألك بل كان يجب أن أجبرك بالقوة على هذا).

أخرج (بنيامين) سيفاً طويلاً وقال:

(فلتكن نهايتك إذن قبل أن تأتي نهاية سلطانك ودولتكم البربرية أيها العربي!).

لم يتحرك (يحيى) من مكانه بل في سرعة البرق أخرج خنجره الحلبي وألقاه ليصيب صدر (بنيامين) الذي جحظت عيناه ولم ينطق بشيء وسقط أرضاً كالحجر وعيناه جاحظتان، بينما هبط (يحيى) من على حصانه وتلفت حوله ليتأكد أن أحداً لا يراه في ذلك الوقت المتأخر وتلك البقعة المهجورة، لثوان شعر بالحيرة فماذا يفعل في تلك الجثة وأين يذهب بها ودارت عيناه حوله لتتسمر فجأة على حفرة عميقة بمحيط المكان وبجوارها الكثير من التراب كأن أحدهم قد حفرها ثم تركها بلا هدف مع الغزو فالتفت لجثة (بنيامين) وانتزع خنجره الحلبي منها ومسحه بعناية وجرها حتى الحفرة

ثم ألقاها بازدراء وعاد ليلقي معها كل ما كان يحمله
(بنيامين) من متاع قليل دون أن يهتم بتفتيشه وبدأ في
ردمها مستمراً في ذلك وهو لا يكاد يبصر القاع لوقت
طويل حتى بات القاع الرملي مستوياً فمسح عرقه الغزير
وأسرع ليمتطي جواده عائداً إلى منزله حريصاً على
الذهاب عبر الأزقة والمنحنيات لتلا يراه أحد.
كان يتحضر للمواجهة الأخيرة مع الحاخام الأندلسي
البارع في شئون السياسة والغدر.
(جولياث).

إستانبول، صباح الخامس من يوليو، العام ١٤٥٣.

بدأت جلسة الحاشية بصورة طبيعية للغاية بشكل لم يحدث منذ فترة باستثناء أن المستشار الأندلسي والقائد العربي والصدر الأعظم كانوا صامتين ومع هذا لم يلتفت أحد إلى ذلك الصمت وتصوروه جزءاً من المشكلات المتتالية بينهم وأنهم أثروا الصمت حتى لا يثيروا مشكلات جديدة، أما الثلاثي فقد حرصوا على التزام الهدوء حتى يأتي السلطان وكل منهم يعد ما تصوره الخاتمة للأمر كله.

حين دلف السلطان كان الثلاثة أول من نهض وانحنى وآخر من جلس إلا (يحيى) الذي قال:
(أطلب من السلطان لشأن مهم وسري إخلاء المجلس قليلاً إلا من الصدر الأعظم والمستشار (جولياث) الآن).
بدا التمثل على السلطان وهو يقول:
(ألا تتوقف أبداً عن تلك التصرفات المثيرة للنزاع يا يحيى) بعد كل ما جرى؟).
أجاب الأخير:

(حين يعلم السلطان بما أريد فهو سيغفر لي هذا الطلب).
زفر السلطان بضيق وأشار للحاشية فنهضوا وغادروا حتى خلت القاعة الكبيرة كما أراد (يحيى) الذي قال على الفور:

(قد ساء السلطان أنني شككت في ولاء المستشار الأندلسي لمجرد قدرته على نصب الفخاخ بحيث يكون في موقف أقوى مني، وساء الصدر الأعظم أنني وصفت الأندلسي بالدونة كأنما هي كلمة تطوله ولا تقتصر على من يصطنع الإسلام ليدس السم بيننا وإني الآن أريد إنهاء الأمر كله).

قال (جولياث) بهدوء مبالغ فيه في مثل هذا الموقف: (كما تشاء أيها القائد! لكن لا تطل بالمقدمات لنحافظ على وقت مولانا ولا نضيق سعة صدره).

ارتسمت السخرية على وجه وصوت (يحيى) وهو يقول: (تشكر لهذا الحرص يا (جولياث) لكن هل لي أن أخبرني ما عقوبة من يتسلل إلى الحريم في بيت لا يخصه ويغريهم لنصب شباك المؤامرات؟). قال السلطان:

(العزل ومصادرة الأموال فتلك خيانة لكن فقط إن أثبتنا شيئاً كهذا).

قصّ (يحيى) الأمر كما روته (صوفيا) بانفعال وأشار في نهاية حديثه لـ(جولياث) قائلاً:

(والآن لا أريد فقط عقابه بل أريد معرفة من هذا الدجال ولم أتى لـ(إستانبول) وما هدفه من كل ما وصل إليه؟).

نظر السلطان لـ(جولياث) بتساؤل فنهض الأخير وقال: (أما القائد (يحيى) فأنا لا أتهمه بالكذب فهو رجل مشهود له بالصدق ولا أظن فيه القدرة على اصطناع كل هذا لكن

أعتقد أنه تعرض للخداع من الجارية الرومية التي أهداها مولانا له).

قال (يحيى) بصرامة:

(لا تذكرها بسوء فهي أشرف منك).

أشار له السلطان بالصمت وسأل (جولياث):

(ماذا تريد أن تقول بالتحديد أيها المستشار؟).

أشار (جولياث) إلى (يحيى) وقال:

(يبدو أن القائد (يحيى) قد تعرض للخداع من الجارية الموتورة القاتلة بحيث توقع بيننا جميعًا بوشايتها الكاذبة).

صاح (يحيى):

(أخرس أيها الحقير).

نهض (زاجانوس) بدوره وقال:

(مهلا، ماذا تقصد بالقاتلة؟).

أجاب (جولياث):

(القائد (يحيى) يعلم).

نظر الكل إليه فصاح بوجه محمر:

(أنت تحوّل الموقف كالمعتاد فمن متهم إلى شخص يتهم الناس، أسلوب اليهود المعهود يا أندلسي).

قال (جولياث):

(القائد العربي لم يقل إن أباه مات مقتولا مع خطيبها بيد قواتنا حين قادوا هجوماً على قلعة الروملي فهي تريد الثأر بكذبها).

صاح (يحيى):

(كذاب حقير تدعي الكذب بكلمات تحرفها).

أكمل (جولياث):

(وهي قاتلة فقد قتلت أحد جنودنا في مسجد (آيا صوفيا)

وهربت من العقاب بشفقة القائد (يحيى) وخداها له).

اندفع (يحيى) نحوه لولا أن أمسكه (زاجانوس) وقال:

(ماذا دهاك؟ أنت تهين السلطان).

قال (يحيى):

(هو من يكذب ويهين السلطان ذلك الحقير مدعي

الإسلام).

قال السلطان وهو يضرب ذراع مقعده بعنف:

(مهلا جميعاً، كلكم تتهمون بعضكم بالسوء وأخطركم

المستشار (جولياث)، لو صدق فسيكون من الخطأ إبقاء

الجارية معك فهي كاذبة شريرة وقاتلة).

قال (يحيى):

(إنها صادقة وهو الكذاب وما قتلت إلا لتدافع عن

نفسها).

قال (جولياث):

(إنها قتلت جندياً مسلماً لحقدها على الإسلام).

التفت إليه (يحيى) وصاح بغل:

(أي حقد يا كذاب! لقد وجدت نفسها من ابنة بارون في

طريقها للرهينة لمجرد أننى أسرها أحد جنود الأعداء

ألا تريد حتى أن تدافع عن نفسها؟).

أشار (جولياث) للسماء وقال:
(الله منحنا حق الفتح ولا يحق لأحد قتل المسلمين بهذه
الحجة الواهية!).

أجاب (يحيى):
(أي فتح! إننا غزاة يا حقيّر نقتل ونسبي ونحوز غنائم
هي ملك لقوم آخرين وحتى البشر نسوقهم لآسيا
ونتباهى بهم فكفى كذبًا وتضليلًا!).
نهض السلطان وصاح:

(أجننت يا أحمق؟ هل تساوينا بهؤلاء البرابرة الناهبين
بينما نحن ننشر الدين ونحقق البشارة؟).
كان (يحيى) قد أفلت الزمام فقال بلا مراعاة لمخاطبه:
(البشارة هذه مضحكة فهي تجعلنا أفضل من كل
الصحابة وفوقهم، تجعل ما قمنا به من مآسي هنا فضلًا
ونعمة، تجعل مخالفتنا لأحكام الإسلام في الفتح عملاً
عظيمًا).

قال السلطان وهو يسير تجاهه:
(والآن تنكر البشارة؟).

أفلت (زاجانوس) (يحيى) من يديه وقال الأخير:
(بل أنكر خلط الدين بالسياسة، ما قمنا به هو حكم
وسياسة وغزو وما تقوم به أنت هو دين وكلاهما لا
يلتقيان فالله لا يمكن أن يبجل تحويل الكنائس لمساجد
وسبي الحرائر وغزو الأراضي التي رضت بدفع
الجزية).

وقف السلطان على بعد خطوة من صديقه الشاب وقال:
(هكذا تبين الأمر لي! تلك الجارية خدعتك وأوقعت بيننا
والآن أخرجتك عن الدين).

ضحك (يحيى) ساخرًا ثم قال:

(بالتأكيد وحتى تضمن صدقية حديثك فابعث للشيخ (آق
شمس الدين) ليؤكد لك ما تقول أولا داعي فهو سيؤكد
حتى لو لو تسأله، فقط قل له أن شيئا تراه صحيحًا و و
سيؤيده).

لم يتمالك السلطان نفسه وهوى بصفعة على وجه
(يحيى) وصاح بغضب:

(الآن تنكر السنة النبوية وتفضل جارية على مولاك
السلطان ورفيقك وتسب مجلسي وتشكك في إيمانهم! كل
هذا بسبب جارية لا تستحق منك إلا القتل لكذبها).

احمرّ وجه (يحيى) وأجاب:

(رحم الله الصدر الأعظم السابق! فلم يكن خائنا ولا
سارقا بل هي السياسة التي قتلته ولو كنا نحاسب
الكذابين بالقتل لما بقي في هذا المجلس إنسان على قيد
الحياة قط).

هوى السلطان عليه بصفعة أخرى وصاح:

(صبرت عليك يا ملعون كثيرا والآن تسبني؟ والله لا
ينالك إلا عقاب الخائن!).

أجاب (يحيى) بلهجته المريرة:

(لا بأس وحتى تكون سليمة أمام حاشيتك أرسل إلى بيت اليهودي ليدسوا النفائس ببיתי وقل إنني شريك (لوكاس) في السرقة أو إنها أجري للخيانة كما فعلت مع الصدر الأعظم السابق لتبرر قتله).

اشتعلت عينا السلطان وهو يقول:
(أما جاريتهك فرأسها ثمن لما فعلته وما أفسدته تلك الحقيبة).

أشار (يحيى) إلى (جولياث) قائلا:
(بل هو الحقير الذي لا دين له ذلك الأندلسي الكذاب!).
رفع السلطان يده قائلا:

(قُضي الأمر يا (يحيى)! من الآن أنت سجين وهي ميتة).
لم يدر (يحيى) بنفسه وكلمات (محمد الثاني) تمزقه وتجعل جسده ملتهبًا حارًا يصب العرق على جبينه صباً وقد انتهت حياته وحياة محبوبته، كان اليهودي صامتا جامداً لكنه حتماً كان يسخر من قلبه على ذلك السلطان القوي على حاشيته الأعمى عن الخطر، الصدر الأعظم سعيد بحملته التي باتت مضمونة بعد كل ما جرى ومعها يضمن ثروات وغنائم ومجد والكل سعيد بخمر النصر المزيف.

اعتدل (يحيى) في وقفته وأدى تحية قوية إلى السلطان قائلا:

(أنا في خدمة صديقي ومولاي السلطان وفي خدمة الإسلام، من أجلك والإسلام).

لَوَّحَ السلطان بيده وقال:
 (كلا لم يعد هذا ينفع إنك..).
 كان السلطان مضطراً لقطع جملته فمع كلمته الأخيرة
 أخرج (يحيى) خنجره الحلبي وصاح بأعلى صوته:
 (من أجل السلطان والإسلام).
 وهوى بكل قوته على قلب (جولياث) حتى انغرس
 الخنجر لمقبضه في موضع القلب، هوت الضربة وساد
 صمت طويل.

إستانبول، صباح السابع من يوليو، العام ١٤٥٣.

في زنزانة ضيقة مظلمة قضى (يحيى) يومين من السجن بمفرده لا يعلم ما يحدث بالخارج ولا يدري ما مصيره، كان مشهده الأخير هو قاعة السلطان حين قتل (جولياث) بخنجره الذي قتل به (بنيامين)، السلطان لم يصدق عينيه وفتح فمه في دهشة عارمة وهو ينقل عينيه بين (جولياث) المقتول وبينه، (زاجانوس) لم يفعل إلا أن أخرج سيفه وصمت ناظرًا إليه كأنما لا يصدق أن يجرؤ (يحيى) على فعلها، هو نفسه لم يشعر إلا بخنجره يقتل اليهودي ثم صمت والحرس يندفعون ويحيطون به ثم يأمرهم السلطان بأخذه للسجن، (جولياث) نفسه بدا كشيطان حين قتله فعيناه كانتا جاحظتين كأنما ستخرجان لتقتلاه بنظراتهما وغزتهما خيوط حمراء كثيفة حتى شك أن له قلبًا قد يمزقه بخنجره ولولا أن سقط لكان انتزع الخنجر وأصابه (يحيى) ثانية وثالثة، أشياء عدة لا حصر لها جالت بخاطره منذ أن دخل السجن فمن هذا الأندلسي الغامض ومن أرسله إليهم وماذا كان يريد هل كان يريد أن يذهب السلطان إلى أوروبا أم كان يريد زرع الغرور في نفسه أم كان يريد فقط المنصب والجاه، العديد من الأسئلة ستدفن معه وابن أخيه بعد أن قتلها وانهى شأنهما للأبد.

سمع (يحيى) صوت أقدام تقترب وباب زنزانتة يُفتح وقائد السجن يقول باحترام فرضه الموقف: (السلطان أمر بحضورك أيها القائد!).

نهض الأخير وسار بصمت غير عابىء بهمسات السجناء ونظرات الحرس المختلصة إليه حتى بات أمام السلطان وهم بأداء التحية العسكرية له كما تقتضي الحالة إلا أن السلطان قال:

(كلا، لم تعد أحد ضباط الجيش لتفعلها). وعلى توقعه للأمر إلا أن شعورًا بالألم ملأ كيانه وطفأ على وجهه والسلطان يكمل:

(في تاريخ البلاط ومنذ (عثمان) الأول لم يحدث أن قتل أحد في حضور السلطان غدرًا بيد قائد بالجيش بدون أمر الخان، بسببك منعت جلوس أو دخول أحد بسلاحه وصارت للمجلس قواعد جديدة فقط لضمان ألا تتكرر المهزلة).

انتظر (يحيى) حتى انتهى السلطان ثم قال: (لم أقتل ذلك الأندلسي غدرًا بل بحق، إنه خائن وجاسوس جاهر بهذا أمام (صوفيا) متآمرًا فكان جزاؤه القتل).

أشار السلطان إلى الحرس بإشارة لم يفهمها (يحيى) ثم عاد الأول يقول:

(إن ما حدث جريمة عقابها الموت لك ولجاريتك لكنني لا أقدر على فعلها معك لقربك مني، (زاجانوس) نفسه شفع

لك وطلب عدم قتلك وأنا في حيرة من أمري فجريمتك كبيرة حتى لو صح قولك فلا يجوز قتل رجل من الحاشية في حضور السلطان بدون إرادته وحديثك السابق المشكك في البشارة المنكر للفتح، كل هذا يجعلني لا أرى إلا قتلك لكن لا أستطيع ولا أقبل).

ترافق انتهاء حديث السلطان مع دخول (صوفيا) إلى المكان برفقة الحرس وعينا (يحيى) تكادان تخرجان من محجريهما من شدة لهفته عليها وقد تصوّر أن السلطان قتلها والتفت للأخير الذي قال:

(حتى جاريته المحبوبة لم أقدر على إيدائها لما بيننا، لقد قررت عقابكما معًا بأشد ما يمكن وأقساه وهو العزل والمصادرة لكل ما تملكان والنفي).

لم تكن شدة العقاب لتزيح الفرحة بحياة (صوفيا) ونجاتهما من الموت وسمع باقي حديث السلطان الصارم وهو يكمل:

(أمنحكما اليوم فقط لا أكثر لتذهبان لبيتكما وغداً تلتحقان بما تحزماء معكما بقافلة تجارية ذاهبة لدمشق حيث العرب والمماليك بعيداً عن ملكي فإن خالفت الأمر يا (يحيى) فإن رأسك ورأسها كافيان ولن يشفع فيهما أحد).

قال (يحيى):

(أعلم بهذا وللسلطان شكري وشكر (صوفيا) لعفوك عنا).

نظر السلطان إلى القائد وأشار إليه فقال (يحيى):
(قبل أن نغادر أريد منك أن تعلم بأن ولائي لك كما هو
ولتعلم بوجود صديق لك بأرض العرب كما كان صديقا
لك بأرضك ويقا تل تحت قيادتك).

عاد السلطان يشير إلى القائد بأخذهما حتى لا يبدو تأثيره
على وجهه وغادر الجميع ثم ظهر (زاجانوس) من وراء
ستار خلفي قائلا:

(إن الشكر لـ(بادنشاة) على كرمه البالغ وقبوله
الشفاعة).

زفر السلطان أنفاسه الحارة وأطرق برأسه قائلا بأسف:
(إنه صديقي وضابط مخلص لم أكن أرغب في خسارته
وعز علي أن يموت هكذا وإنني لم أكن إلا لأبعده فقط
دون أي عقاب لو عاش الأندلسي لكنه مات وكان النفي
خارج ملكي والمصادرة والعزل لا بديل عنهما).

هز (زاجانوس) رأسه مؤيدا ومتفهما ثم عقب:
(لقد دفنا (جوليانت) ولم نعثر على ابن أخيه، لتطوى هذه
الصفحة إلى الأبد أيها السلطان ولنحيا كما كنا وكأن شيئا
لم يحدث فنحن هنا مسيرين لا مخيرين ولعل (يحيى)
يفهم يوما أن كل ما نحن فيه سياسة لكنها سياسة دين
ننفذ فيها سنة الولاة الراشدين ومن تلوهم من الخلفاء
وسيرتنا سيرة الملوك فلا نزيد ولا ننقص عنهم، إن
الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ونحن فينا من الملك مثل
الفتح فلسنا طغاة جبارين لكن عدونا طاغية جبار لا يريد

إلا القضاء علينا، يوماً ما قد نسقط كما قال (يحيى) لكننا
حتماً سننهض وكما أوجد الله (محمد الفاتح) ليقود أمتنا
في سيرة الفتح العظيمة التي ستخلدها كتب التاريخ
وكتابه سيهب الله لنا من رجلا يحيى الأتراك إن أصابتهم
نكبة و يقودهم للنصر الذي يريدون ويستحقون والله
وحده يمنح ويهب ويزيل الملك).
تراجع السلطان على عرشه وعيناه مغلقتان وذهنه
صافٍ يستعد للغزو الذي سيجعل اسمه (محمد الفاتح)
مزلزلاً لأركان أوروبا يوماً وتصير جيوشه رافعة راية
التوحيد هي الأقوى والأكبر والأنجح في تاريخ دول
الإسلام المتتالية.
كل هذا سيحدث يا (فاتح) وستشهد بلاد الإسلام ثالث
الخلافت..
خلافة (إستانبول).

بيت لحم، فلسطين، ديسمبر العام ١٤٥٣.

على مقعد خشبي بسيط قبالة (كنيسة المهد) جلست (صوفيا) وبجوارها (يحيى) صامتين وكل منهما يخشى الكلمات، كانت الرحلة شاقة مرهقة لكنها أنجتهما من الموت ومنحت (صوفيا) حريتها إذ غادرت ملك الأتراك وباتت حرة في تقرير شأنها و(يحيى) بات اليوم في طريقه إلى جذوره في مصر حيث ينسى كل ما مضى ويبدأ عهدًا جديدًا في حياته لا يمت بصلة لعهد الفرسان. أدار (يحيى) رأسه إلى (صوفيا) متأملا جانب وجهها الجميل آملا أن تلتفت إليه وتحدثه لكنها ظلت صامته وعيناها معلقتان بصليب الكنيسة الضخم فقال لها: (جميلة هي كنيسة المهد وقديمة). قالت:

(إن (آيا صوفيا) أجمل منها وأقدم). جاءت كلماتها بمغزى لم يخطئه (يحيى) أثار شجونه فارتسمت على شفثيه ابتسامة من يتذكر آلامًا وأفراحًا معًا وقال:

(إنني مدين لـ(آيا صوفيا) فلولاها لما تقابلنا وما كانت في حياتي زهرة تسمى (صوفيا) الغالية). قالت (صوفيا):

(كلنا مدينون لها فمنا من أخذها بالحب فمدين لها بالحب ومن أخذها بالنار فمدين لها بالدم).

سرت في وجهه سحابة من الحزن اختلطت بصوته وهو يسألها:

(لَمْ أَنْتِ بِتِلْكَ الشَّدَّةِ يَا (صوفيا)؟ حَتَّى الصَّخْرَ يَفْتَتَهُ
الْحَجَرُ وَأَنْتِ أَشَدُّ صَلَابَةً مِنْهُ وَأَكْثَرُ صَلَادَةً مِنَ الْمَاسِ؟).
أَدَارَتْ (صوفيا) رَأْسَهَا إِلَيْهِ قَائِلَةً:

(أَبْعَدَ كُلِّ مَا جَرَى وَمَا رَأَيْتَ فِي بَيْتِي وَبَلَدِي وَمَدِينَتِي
وَكُنَيْسَتِي تَرِيدُ مِنِّي الْلَيْنَ الْآنَ؟ حَتَّى الرَّبُّ مَا كَانَ لِيَلِينَ
أَوْ يَرْحَمَ).

اعْتَصَرَ الْأَلَمُ قَلْبَهُ الْمُحِبُّ لِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْقَاسِيَةِ وَهِيَ
تَكْمَلُ:

(أَيَّ رَحْمَةٍ وَجَدْتَهَا فِي مَدِينَتِي الَّتِي سَمِيتُمُوهَا اسْمًا
جَدِيدًا وَأَحْرَقْتُمْ كُلَّ مَا فِيهَا وَقَتَلْتُمْ رِجَالَهَا؟ هَلْ أَنْسَى أَنَّنِي
كُنْتُ لِأَصِيرَ رَاهِبَةً ثُمَّ جَعَلْتُمُونِي جَارِيَةً ذَلِيلَةً، هَلْ أَنْسَى
أَبِي وَخَطِيبِي الَّذِينَ قَتَلُوا دِفَاعًا عَنْ أَرْضِهِمَا ضِدَّ الْغَزَاةِ،
هَلْ أَنْسَى الْأَبَّ (يُوسَاتَس) الَّذِي تَلَقَّى الْمَوْتَ لِيُنْجِنِي،
هَلْ أَنْسَى أَنَّكَ مَلُوثٌ بِدِمَاءِ أَهْلِي وَبَنِي دِينِي؟).

أَجَابَ يَحْيَى:

(لَا أَحَدٌ يَمْلِكُ النِّسْيَانَ وَلَا الْأَمَلَ فِيهِ لَا أَنَا وَلَا أَنْتِ لَكِنِ
الْحَيَاةُ قَدْ تَغَيَّرَتْ وَبِتْنَا خَارِجَ بِلَادِكَ، إِنْ حَيَاةٌ جَدِيدَةٌ الْيَوْمَ
تَوْشِكُ عَلَى الْبَدْءِ وَلَا يَحِقُّ لِي وَلَا يَحِقُّ لَكَ أَنْ نَنْهِيهَا
لِلْمَاضِي وَنَخْسِرَ كُلَّ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ لَنَا).

لَمْ تَجِبْ (صوفيا) فَأَكْمَلُ:

(لقد منحك الله الفرصة لتحيا بعيداً عن بلاد القهر والدم
ولي كذلك أن أبدأ حياتي كتاجر أو صانع بدون قتل أو
تخريب، أنت الآن حرة ولست جارية وكل شيء مازال
جديداً في حياتك لم تلوثة أيادي الناس فلا تضيعي منحة
الله لنا لتلك الذكريات القاسية عليّ وعليك).
صمتت (صوفيا) لدقائق بعد حديثه ثم سألته:
(قلت إنك تحبني من قبل، فماذا تريد الآن؟).
أجاب:

(قبل أن أخبرك أريد أن أعرف لِمَ رفضتِ مساعدة
(جولياث) ضدي؟).
أجابت (صوفيا):
(لأنني لست بخائنة، لست غبية كذلك لألقيك في النار
وأبقى أنا تحت رحمة اليهودي أو الغازي الكبير حتى
يكون مصيري معك أو ألقى كقطعة لحم إلى رجل آخر
يرضى عنه السلطان).

أمسك (يحيى) يدها وقال بلا موارد:
(أريد أن أتزوجك ونبقى معاً في مصر).
سحبت (صوفيا) يدها من يده وقالت:
(تريد مني أن أكون زوجتك وأنا سأفعل إن أجبت عن
سؤالي بصدق، لو أنك في بلدك ووجدت غازياً قتل أباك
وزوج أختك ثم قال لك إنه يحب أختك ويطلبها للزواج
هل تقبل ولو أتى لك رجل لا غبار عليه لكنه نصراني

وطلب منك الزواج من أختك أو امرأة مسلمة لا تمت لك
بصلة فهل تقبل؟).

رفع (يحيى) عيناه إليها قائلا:

(والهدف من هذا كله أن أرحل وتبقين هنا؟).

قالت (صوفيا) وهي تنهض:

(ليس أمامك إلا هذا فلن آتي معك).

نهض بدوره وقال:

(أنت قاسية يا (صوفيا)! امرأة لا قلب لك).

ابتسمت بدورها وقالت:

(أين كانت قلبك وأنت تغزو المدينة أيها الفارس؟ اذهب

لبلدك الأصلي من حيث أتيت واطركني ههنا).

نظر (يحيى) ثانية إلى (كنيسة المهد) وقال:

(ستبقين هنا كما كنت تخططين في (أيا صوفيا) لا فارق

بين الأمس واليوم فقط بدلت كنيسة بأخرى).

سارت (صوفيا) خطوات تجاه الكنيسة ثم التفتت إليه

قائلة:

(يومًا ما سيأتي السلطان أو أحد أبنائه هنا لكنهم لن

يكونوا قساة كما كانوا في (كونستانتينوبوليس) بل

سيكونوا مجرمين فالمنتصر تزداد ثقته وقوته، يومها

أريد أن أكون ميتة حتى لا أرى كنيسة أخرى تصير

مسجدًا لكم).

علق (يحيى):

(إن أتوا، فأنا لا أراهم قادمين عما قريب).

أتم (يحيى) كلماته ثم سار خطوات معدودة وتوقف
وسألها دون أن يدير لها وجهه:
(أيتها الراهبة! لي سؤال أجيبني عليه ولا تكذبي).
قالت (صوفيا):
(من تهيب نفسها لإلاهاها لا تكذب أيها الفارس!).
سألها:

(هل تحبيني يا (صوفيا)؟).
ثوان من الصمت مرت ثم أجابت:
(كلا، لم أحبك يوماً).
سار (يحيى) بخطوات بطيئة وهو يقول:
(في أي وقت تغيرين فيه قدرك وتختارين حياة جديدة
فأنا بمصر بالإسكندرية ولتعلمي أن لك قلباً هناك لن
ينساك أبداً).

سارت (صوفيا) بدورها باتجاه الكنيسة وهي تقول:
(في أي يوم تمر بالشام وفلسطين فلتتذكر أن لك شخصاً
مدين لك بالضيافة وصديقاً لن يغدر بك أبداً).
أنهت جملتها وسارت إلى داخل الكنيسة حتى صليبتها
الذهبي الكبير لترقع أمامه تؤدي صلاتها بحرية لأول
مرة منذ زمن وقلبها يشعر بالسلام وبعد أن أنهت
صلاتها سارت إلى حيث قسيس عجوز يجلس بمفرده
وقبلت يده قائلة:
(أريد أن أعترف بخطيئة أيها الأب).
بدا الاستفهام على وجهه فقالت:

(لقد ارتكبت خطيئة أمام الكنيسة قبل أدخل لأصلي، لقد كذبت).

كانا لا يريان بعضهما وظهر أحدهما للآخر حين افترقا، وجه (صوفيا) يستقبل كنيسة المهد ووجه (يحيى) باتجاه مصر، سار كل منهما في طريقه وغايته وأمله ودينه لا ينظران إلى بعضهما ولم يلتقيا بعدها قط.

لكن أحدهما لم ينسَ الآخر وسيروي (يحيى) يومًا لأبنائه وأحفاده قصة (إستانبول) مدينة البيزنطيين حين وقعت في يد الأتراك وكيف تحققت البشارة النبوية التي بشروهم بها وتشكك هو في صدقها. وستروي (صوفيا) لأبناء الكنيسة قصة سقوط (كونستانتينوبوليس) وكيف راحت كنائسها وكاتدرائيتها المقدسة ضحية فراغ العالم المسيحي وقسوة السلطان الغازي وسيرويان معًا قصة واحدة لعربي مغامر أتى يومًا مع شيخ من الشام ليصاحب فتى بات يومًا سلطانًا غازيًا لن تنساه كتب التاريخ أبدًا اسمه (محمد الفاتح) ليقاقل في صفوف جيشه ويقود فرقته للنصر بالمدينة التي تعددت أسماؤها (القسطنطينية) (كونستانتينوبوليس) (إستانبول) (إسلامبول) لكن لها نفس المعنى والأثر في نفوس الناس مع اختلاف دياناتهم.

قصة الفارس الذي أحب الراهبة ابنة البارون وكاد يموت من أجلها وبسببها أغضب سلطانه ورفيقه ومولاه بينما هي جامدة كالحجر باردة كالثلج لا تؤثر فيها كلمات إلى

أن افترقا وكلاهما يحب الآخر لكن بينهما عقبات لا يمكن
تجاوزها أولها مدينة الأساطير (إستانبول) وآخرها بناء
لن ينساه أحد يُسجل تاريخ المدينة إلى اليوم.
بناء اسمه..
(أيا صوفيا).

الأندلس، مدينة غرناطة، الأول من يناير، العام ١٤٥٢.

ازدرد (جولياث) لعبه بصعوبة وهو ينظر في صمت إلى معلمه العجوز الذي التقط نفساً عميقاً من الهواء بدت معه بعض الآلام على وجهه قبل أن يزفر ويقول:
(هذا حديثي إليك فمسيرنا وخطر هائل يحيط بنا وببيدك إنهاؤه أو تحجيمه هناك حيث سيبدأ حتماً عن قريب كما تؤكد كل الشواهد ربما بعد شهور وربما بعد أكثر من عام).

بدا الاهتمام على وجه (جولياث) وسأل:
(أين هذا الخطر وما طبيعته؟).
نهض (يعقوب) وسار إلى نافذة قريبة ناظراً إلى الطريق الطويل بالخارج وعيناه تبرقان في نشوة ثم التفت لمضيفه وقال:
(هناك.. في القسطنطينية).

ارتفع حاجبا (جولياث) بدهشة لبعد المكان المفرط عن الأندلس وبدا عليه طلب المزيد فقال (يعقوب):
(منذ عام مات السلطان (مراد) سلطان الأتراك وتولى ابنه (محمد) للمرة الثانية الحكم وبدأ من فوره في حشد طاقات بلاده لدخول القسطنطينية وحسبما علمت فقد انتوى جعلها عاصمة لبلاده بديلة عن أدرنة).
سأل (جولياث) باهتمام:

(وما شأنا كيهود بهذا أو غيره فليقاتل حتى تهزمه أوروبا كما ستهزم إخوته هنا بالأندلس).
التفت إليه (يعقوب) وقال:

(حتمًا إخوته هنا انتهى عهدهم لكنه هناك سيبدأ العهد الجديد، إن جيش هذا السلطان سيجتاح باقي الأناضول ويسحق غرور البيزنطيين لينطلق بعدها إلى مكان آخر).
جفّ حلق (جولياث) من أسلوب معلمه الغامض فقال بقلق:

(ينطلق إلى أين؟).

مال عليه (يعقوب) وأجاب:

(أنت وحدك من يقدر على الجواب، أنت وحدك من سيحدد له أين ينطلق!).

صاح (جولياث) في استنكار:

(أنا؟.. كيف ولماذا؟).

أجاب (يعقوب):

(كنت على الدوام أذكى تلاميذي وفقتني دهاء ومكرًا وحبًا لبني إسرائيل جميعًا والآن اليهود في كل مكان مهددون بعهد جديد يعيد إلينا ما كان من شدة في عهد نبيهم ومن تلوه فلا رفاقه الأربعة من بعده ولا بنو أمية في قوتهم وخلافتهم ولا بنو العباس في قوتهم وخلافتهم تركوا لنا حق الحياة كما نشاء فضبطوا الأسواق ليضربوا ظهرنا وأخرجونا من أرض العرب لنبقى بالشام قبلها ولم نشم الهواء إلا بضعفهم، إن مصلحة اليهود

فقط في حكم المسلمين الذي يحمينا من شدة النصارى علينا ويؤمننا لكن ليس أي حكم بل حكمهم الضعيف فقط حيث لا نرى شدة النصارى ولا ضبط السوق ونظم الحكم الإسلامية التي أتت من جزيرة العرب).

عاد (جولياث) يسأل:

(وما المطلوب مني؟).

جلس (يعقوب) وقد أعجزته ساقاه عن الوقوف أكثر من هذا وأجاب:

(إن حكم المسلمين المماليك بالشام ومصر رديء وضعيف يتيح لنا الكثير من العمل بالأسواق وضبط التجارة وجذب ود المماليك الفاسدين وهذا يحمي مالنا وتجارتنا بل وبقينا شر الفاقة حين يحدث جذب وأهم ما بيدنا أننا بأورشليم اليوم ولا قوة تقدر على منعنا، (مدينة داود) يا (جولياث) مدينتنا (صهيون) وما حولها لا ينازعنا فيها ملك قوي ولا يقيد أحد منهم حلمنا بالعودة إليها لكن الخطر كل الخطر من مجيء خلافة جديدة تحكم بسلطنة قوية كما فعل (ابن الخطاب) ومن بعده (ابن أمية) و(ابن العباس) فكلهم حين يحكمون يكونوا خلفاء حتى وإن عارضهم أحد يبطشون به ويبقون هم ومعهم ترحل آمال كل اليهود).

قال (جولياث):

(فالحل كما تراه ألا يأتي هذا السلطان إلى بلاد الشام؟).

اجاب (يعقوب):

(نعم! ولديه مساره فأوروبا تكرهه وحتماً سيقاتلها لكن ملوكهم اليوم مشتتون في قتال بعضهم البعض والصراع المذهبي فلا يمكن لي ولا لغيري أن يعرف هل سينشغل السلطان في أوروبا أم سيأتي إلى هنا).

سأله (جولياث) :

(وما دوري في كل هذا؟).

أجاب معلمه:

(أنت وابن أخيك ستغادران إلى القسطنطينية وهناك سيقابلك أحد أبنائنا ممن يصطنعون النصرانية في جند بيزنطة وسيعطيك كل ما ستحتاج من حمام زاجل ومعلومات عن كبار حكام المدينة لتنتقي منهم من يساعدك لتكسب بكل هذا ثقة الأتراك وأنت في القسطنطينية قبل دخول جيوشهم لها بما سترسله للأتراك من أخبار وبعدها كما أتوقع سيستقدمك سلطانهم أو أحد كبار قادتهم وهناك ستكون مسلماً كما كان رجلنا في بيزنطة نصرانياً لتتسلل إلى بلاط الأتراك وتجعل نفسك بمكرك المعهود مسيراً لشئون ما بعد بيزنطة فتدفع عقولهم لغزو أوروبا دون المجيء للشرق).

قال (جولياث):

(ربما يوماً يأتون للشام ولو بعد مائة عام فما الفارق؟).

ابتسم (يعقوب) كأنما سمع طرفة وأجاب:

(يومها سيكونوا ملوكا وليسوا فاتحين وستكون أوروبا قد غرست فيهم كل خطايا الملك وشروها فلن يأتوا كما

أتى (ابن الخطاب) أو حتى كما كان بعض ممن خلفوه بل
سيأتوا ممالكك آخرين كجراد نهم لا يريد إلا أكل الأخضر
دون غيره فكلهم حينها ملوك يا تلميذي، لو انتصروا في
أوروبا سننتصر معهم ويومًا ما سيزول ملكهم ويأتي
ملكنا ومن يدري لعل يومها يكون بالأرض من النصاري
من يضع سيفه بيدنا فكلهم ملوك لا يتغيرون).
نهض (جولياث) ومعلمه ينظران إلى ضوء الفجر الباهت
من بعيد والأول يفكر فيما قال أستاذه وقد ساد بينهما
صمت طويل لم تقطعه كلمات لتبدأ بعدها رحلة طويلة..
من (غرناطة) إلى (القسطنطينية).

الختام

أنقرة عاصمة الجمهورية التركية.. العاشر من مارس.. ١٩٣٥

جلس الزعيم التركي (مصطفى كمال أتاتورك) في صمتٍ وهو يتابع بضع أوراق قدمها إليه نائبه المخلص (عصمت إينونو) وراح يجول بين الأوراق مضيفا إشارة هنا وكلمة هناك حتى انتهى من عمله وناول (إينونو) الأوراق ليأخذها ويرتبها ثم يقول:
(الدكتور (تي وايت مور) يريد مقابلتك وهو في الانتظار بالخارج).

عقد(أتاتورك) حاجبيه وقال:
(مور)!! كل بضعة أيام يأتي هذا الأمريكي ويشكو منذ أربع سنوات مضت فماذا يريدون أن أفعل أكثر من هذا لقد سمحت لهم بعمل أبحاثهم وحفرياتهم عند (أيا صوفيا) فقط لإيماني بقيمتها التاريخية والآن بعد أن بات في طريقه ليصير متحفا للسلام والتسامح يأتي ويتحجج كل يوم بمشاكله مع المواطنين؟ لقد عينت حراسات لهم ومع هذا يحتجون!).

تأمل (عصمت) زعيمه قبل أن يقول برصانة:
(هم يعتمدون إثارة المشكلات دوماً، إن ذلك المكان مثير بحق، لو ترى المواطنين الذين يتجمعون حوله أحيانا

ويريدون دخوله ويحاول بعضهم الصلاة فيه إنه أمر مثير).

ارتسم الغضب على وجه (أتاتورك) وقال:
(صلاة؟؟.. قراري واضح بمنع الصلاة به، هذا المكان اليوم في طريقه ليصير متحفا للشعب التركي بعد عشرين يومًا وليس مسجدًا وممنوع فيه الصلاة لأي دين إنه مبنى لتآلف الأديان والتاريخ ورمز للتسامح الديني ولا يخص دينًا محددًا).

ارتسمت ابتسامة على وجه (إينونو) وقال:
(الناس لا تفهم وبعضنا كذلك).

أجاب (أتاتورك):

(لست في حاجة يا بطل الإينونو أن أكررها أنا أراك تختلف معي في الكثير إعدام الخونة منذ تسع سنوات وتفصيل النظام العلماني والآن (أيا صوفيا)؟؟.. هذا قراري ثم إنهم في (لوزان) تحدثوا بهذا الشأن معك وذكروك بما فعله (محمد الفاتح) بكنيستهم أم أنك نسيت ثم ما المشكلة في إلغاء مسجد لم يكن يومًا في حقيقته مسجدًا؟؟.. لديهم الآلاف من المساجد فليصلوا فيها).

هز (إينونو) رأسه موافقا فعاد (أتاتورك) يكمل:

(في (لوزان) تحدث اليونانيون والإنجليز وعايرونا بالكاتدرائية التي جعلناها مسجدًا ثم تتالت السنوات بكلمات لم ينطقوها لكن لمستها في قلوبهم تجاهنا إن لهذا المكان قدسية لهم إنه أصلا كان مكان عبادتهم إنها

كانت كعبتهم (أيا صوفيا) كانت كاتدرائية وسرقها العثمانيون بالقوة لتصير مسجداً).
قال (إينونو) بنفس الكلمات البطيئة:
(أتذكر تلك الأيام حينما شرفني برئاسة وفدنا بـ(لوزان) لكنك كذلك لم تمل إلى وضع (أيا صوفيا) كمسجد يوماً إنني أتذكرك حينما أرسلتني إلى الإينونو كنت وقتها تتحدث عن علامات العثمانيين في بلادنا وذكرت (أيا صوفيا)).

نظر إليه (أتاتورك) بحدة وقال:
(هذه نقطة أخرى وسبب آخر إن هذا الأثر الديني رمز للعثمانيين والرجعية رمز لتحويل بلادنا إلى مستعمرة لهم يحكمون منها ويقتلون شعبنا ليضموا أراض أخرى لحكمهم أنا لم أخطيء فكما أزلت بقاياهم وآخر سلاطينهم الخائن وخليفته الأخير أزلت علاماتهم وحتى لو لم أفعل ما فعلت بـ(أياصوفيا) أوروبا ما كانت لتترك هذا المكان وحتماً كانت ستتصرف حتى لو أتى يوم وأثارت الأمر دولياً).

واعتدل (أتاتورك) في جلسته وقال باهتمام:
(يا (عصمت) لقد سرق (محمد الثاني) هذا المكان منهم وجعله مسجداً وعبر تاريخه مع اليونان خاصة وأوروبا عامة نشر الكراهية ضدنا كمسلمين وتلاه بنفس النهج كثيرون على رأسهم سليمان القانوني والله أنا لم أر هذه الكراهية بحق إلا حينما ذكروا اسم (أيا صوفيا) إن هذا

المكان شكل لديهم جرحًا عميقًا في كرامتهم وتاريخهم وترك أثرًا لا تمحوه الأيام وحينما وجدوا أن لديهم الفرصة كانت كلماتهم واضحة في رد الحق).
 هز (عصمت إينونو) رأسه بلا إجابة ونهض ململمًا الأوراق متجهًا إلى الخارج دون كلمة إضافية.
 بينما ظل (أتاتورك) عاقدا حاجبيه ناظرًا إلى الباب في انتظار دخول الضيف الأمريكي الذي سريعا ما كان يدلف وبرفقته (عصمت إينونو) و(فوزي تقاشماق) قائد الجيش الذي حيّا زعيمه باحترام قبل أن يجلس هو و(إينونو) قبالة دكتور (مور) الذي كان متوترًا كعادته كلما جلس مع الرئيس التركي الذي لا يبتسم أبدًا وراح يربت على حقيبته وهو ينتظر بدء الحديث.
 دقيقة كاملة تمر قبل أن يقول (أتاتورك):
 (هل هناك المزيد من الشكاوى يا بروفيسور؟).
 هز الرجل رأسه بشدة وهو يندفع قائلا:
 (كلا كلا! بالطبع لقد استوعبت الشعور العام هنا ولم اعد أرى مشكلات في هذه الأمور الصغيرة والحقيقة أنا في الواقع أريد إنذك لإرسال شيء ما إلى متحف بوسطن لفحصه والتأكد منه).
 عقد (إينونو) حاجبيه في حين وضع (مصطفى كمال) ساقا فوق أخرى وهو صامت فتنحج (مور) وأكمل:

(في أثناء إجرائي للحفريات عثر الخبير (ماك آرثر) على قبر وفي البداية تصورناه من عهود قريبة إلا أنه وللمفاجأة وجدناه قبراً سرّياً يعود لعام ١٤٥٣).

تمتم (فوزي) وقد لفت التاريخ انتباهه:

(ولم هذا العام بالذات؟).

التفت إليه (مور) وقال:

(لقد عثرنا على رسالة محفوظة معه من الواضح أن أحداً لم ينتبه إليها لقد كانت في صندوق صغير مغلق جيداً، يبدو أنها رسالة لم تصل قط وفي هذه الرسالة وجدنا تاريخ إرسالها).

قال (أتاتورك):

(إنها إذن تخص الشعب والتراث التركي وليس لك الحق في مجرد التفكير بأخذها).

وعلى الرغم منه شحب وجه (مور) وسارع بالقول:

(كلا كلا! لقد تحيرنا منذ البداية فهويتها تدل على عدم إنتمائها لكم وإلا ما جنت هنا أصلاً).

بدا الملل على وجه (فوزي) بينما ظل وجه (عصمت إينونو) جامداً ولم ينطق (أتاتورك) في انتظار ما سيقوله البروفيسور.

أجال الأخير النظر في الوجوه قبل أن يقول:

(لقد كانت الكتابة في الرسالة بالعبرية الشرقية بمصطلحات العصر الذهبي لليهود إبان حكم العرب للأندلس).

بدأت الدهشة على وجوه الكل بينما أكمل:
 (في البداية تحيرنا كما قلت قبل أن نخضعها للفحص عدة مرات وبالذات مع دهشة البروفيسور (جاكوب) خبير اللغات الشرقية وفي كل مرة نجد نفس النتيجة فهذه الورقة العبرية تم دفنها مع شخص بعد دخول (محمد الفاتح) إلى القسطنطينية وأنا لا أملك تفسيراً، ولكن هذا الشخص كان يرتدي ملابس الجنود الأتراك ومعه سيف وخنجر كلاهما ينتمي لعهد الأندلس الإسلامي الأخير).
 شعر (إينونو) بالارتباك وقال:

(هل تعني أنه أندلسي قديم أم يهودي أم ماذا؟).
 أخرج البروفيسور (مور) من حقيبته مغلفاً بلاستيكيًا بداخله ورقة مجعدة بالغة القدم وقال:
 (هذه هي الورقة وترجمتها مكتوبة معي هنا وأعتقد أن بها ما قد يمنحنا مفتاحاً للإجابة).
 وأخرج ورقة أخرى من حقيبته مكتوبة عبر آلة كاتبة وراح يراجعها سريعاً وسط دهشة الموجودين وكان أكثرهم دهشة هو (أتاتورك) نفسه الذي بدأ يشك في أن ما يراه لعبة مأكرة من (مور) لهدف ما..
 وبدأ (مور) في القراءة قائلاً:

(هذا هو النص الكامل والسليم للورقة وهو تفصيلي يحوي رسالة بين رجلين وخواطر بين طيات هذه الرسالة كأن من كتبها كان يناجي نفسه ويبدو أن كاتبها

كان يرسل تقريرًا ما فذكر أحداثًا سابقة وأخرى يتوقع حدوثها وإليك النص الكامل:
سيدي يعقوب الناجي....

أرسل إليك هذه الرسالة مع (بنيامين) حاملًا البشرى بنجاح ما
تصورته مستحيلًا..

لقد أتممت ما أرسلتني إليه وبت اليوم فقط واضعًا قدمي على
الطريق السليم لنجدتنا من شر جديد يصيبنا من خلافه جديدة
قوية غير مرغوب فيها فاليوم قرر السلطان حسبما أخبرني أحد
رجاله أن يتجه إلى أوروبا بدلًا من الشرق وبهذا نكون قد حققنا
هدفنا الذي من أجله قطعت أنت كل هذا الطريق من أورشليم إليّ
بالأندلس وقطعت من أجله الطريق أنا و(بنيامين) من هناك إلى
(كونستانتينوبوليس)...

إنني ما زلت أذكر كلماتك لي..

إن عليّ أن أكون وسط حاشية (محمد الفاتح) الذي لا يتورع عن
ضمي إليه مع اختلاف في الدين والأصل كعادته التي أتوقع أن
تقتله ذات يوم ومن هناك ومن وسط بلاطه آخر مكان يشعر فيه
بالضعف والحيرة حيث يسأل ويستشير أكون موجودًا بلساني عبر
رجاله الذي أزرع في عقولهم ما أشاء وعبر نفسه التي أملأها من

كئوس الغرور حتى لا يستمع إلا لشیطانین الأول نفسه والثاني
الأحمق من رجاله وقد كان هذا لي بكل يسر.

كثيراً ما سألني (بنيامين) عن السبب الذي من أجله طرقتنا الغرب
والشرق وأنا لا أريد إبلاغه قبل الوقت المناسب متذكراً حديثك
لي بسرية أمرنا حتى على (بنيامين) نفسه وأنت محق وقد ازدادت
تصديقاً لك وأنا في بلاط الأتراك فالمهمة خطيرة ومصرية ولو
فعلها السلطان وبدلاً من الذهاب بالغزو إلى أوروبا توجه إلى
الشرق وهادن ملوك الغرب لسقطت قوة اليهود، إننا اليوم نحيا
وسط الضعاف الفاسدين من المسلمين والنصارى وسط
شروا النفوس لضعف دولتهم وتشردمها فلو جاءت خلافة جديدة
قوية لسيطرت على تجارتنا ومالنا بضبط الأسواق التي نفتتات من
فساد أهلها نصارى ومسلمين...

لو أخذوا الشام لبارت التجارة ولسقطت مشاعلنا وضياعنا...

لو أخذوا مصر لزدادت قوة جيشهم وباتوا لا يُقهرون...

أنا وأنت لا نريد أبداً انهيارهم حتى لا يجيء نصارى الغرب
الكارهين لنا ولا نريد قوة المسلمين التي تضبط الأسواق فتبور
ديارنا ومالنا وتجارنا التي يحرمونها، أيضاً أورشليم مدينة داوود

مدينة (صهيون) تلك العزيزة التي إن دخلوها ضاعت منا وهيئات
لو صارت لنا خالصةً ولو بعد مئات الأعوام، إنهم حتى لو فعلوها
وغزوا الشرق بعد ولوج أوروبا فنحن الراحين فحينها ستكون
أوروبا قد استهلكت جيوشهم وأسقطت أغلب قواهم وزرعت فيهم
الغرور وحب الدنيا حينها يأتي ضعفهم الذي نحا وسطه اليوم
ولكن في خلافة أخرى ففي قوتهم ضياعها وفي ضعفهم قوتنا بها
حتى يأتي اليوم الذي فيه يكون بنو إسرائيل أكثر قوة وأكثر حدة
على من عاداهم من الأغيار يومها يكون ما زرعه في بلاط
السلطان محصورًا في بلاطنا نحن..

سيدي الحاخام لا أملك الآن إلا أن أبقى قليلا لأنهي على هذا
العربي الذي سأحدثك عنه يومًا والذي يمثل صوت العقل في
بلاط السلطان فلو بقي ورحلت ربما هادن السلطان ملوك
(البوسنة) وغيرهم كما يطلب العربي ونسقط نحن، أبي الحاخام
لقد أتممت ما أمرتني به وأدبت ديني لبني إسرائيل، الآن أنهي ما
عليّ هنا ثم أعود ولكن ليس إلى الأندلس نهائيًا بل ستكون مرحلة
مؤقتة فقط وبعدها إليك إلى الوطن الحقيقي لكل يهودي
مخلص..

إلى (صهيون).

خادمك المطيع.. (جولياث بن نون).

••

ساد صمت مشوب بالحذر المكان وسط تبادل النظرات
بين الجميع وتنح (مور) عدة مرات لمحاولة تحريك
الأمر ولما فشل قال بتردد:

(والآن؟).

سأله (أتاتورك):

(هل سجلتم هذه الورقة ككشف أثري؟).

هز (مور) رأسه نفياً وقال:

(كلا.. ننتظر إرسالها لـ(بوسطن) ثم النتيجة الرسمية
لها ونعلنها).

نهض إليه (أتاتورك) وتناول الورقة المترجمة ونظر
إليها لدقيقة كاملة ثم رجع بالنظر إلى (مور) وقال ببرود
يفوق برود (عصمت إينونو) الشهير:

(هات الرسالة الأصلية).

بدت الدهشة على (مور) قبل أن يقول في ارتباك:

(لكن الرسالة حساسة جداً و..).

صاح (أتاتورك) بصرامة وقسوة:

(أنا لا أطلب منك بل أمرك).

ارتجف (مور) وهو يناوله الرسالة سريعاً بينما راح
(كمال أتاتورك) يفضها في حرص ويطالع حروفها التي
لم يفقه منها شيئاً وتبادل (إينونو) النظر مع (فوزي)

وهما يفكران بنفس الخاطر الذي بدا لهما ولم تمض لحظات حتى تقدم (أتاتورك) في ثبات إلى المدفأة الملتهبة وألقى الورقة فيها قبل أن يعود بنفس الخطوات الثابتة إلى مكتبه ثم جلس وتشاغل في مطالعة بعض الأوراق أمامه بينما تجمد (مور) من شدة الصدمة قبل أن يقول بصوت مبجوح:

(ماذا فعلت بالله عليك؟).

وضع (أتاتورك) النظارة على وجهه وقال :

(آه.. بروفيسور (مور) لقد نسيته ماذا كنت تريد مني؟).
ابتسم (عصمت) وقد تحقق ما تصوّر أنه سيحدث في حين قال (مور):

(ماذا تقول سيادة الرئيس أنا هنا من أجل الرسالة التي أحرقتها الآن).

رفع (أتاتورك) حاجبيه بدهشة مصطنعة وقال:

(أنا أحرقت شيئاً؟).
ونظر إلى رجله وقال:

(هل حدث شيء؟).

هز كلاهما رأسه بهدوء فالتفت إلى البروفيسور وقال:

(الغريب أنك ترهق نفسك بشدة أنصحك بالذهاب إلى (أزمير) إنها منطقة ممتازة بتركيا ربما دفن فيها الكثير من اليونانيين في حرب الاستقلال لكنها حتماً ستعجبك).
شحب وجه الرجل وقد وصلت الرسالة وقال:

(هل.. هل أرحل؟).

أشار إليه (أتاتورك) بيده وهو يرمقه بنظرة نارية وسرعان ما غادر وهو يلعن الفكرة التي دفعته للذهاب إلى هذا الرئيس الشرس.

وفي أثره نهض (فوزي) وغادر المكان في حين بقي (إينونو) وتطلع بصمته المعتاد إلى (أتاتورك) الذي قال: (ألا تريد ذكرى آل (عثمان) الرحيل عني؟.. هل كان ينقصني هذا حتى يصيروا أبطالا؟.. اللعنة على هذا الأمريكي الأحمق!).

ثم التفت إلى صديقه ونائبه الأقرب (عصمت إينونو) وقال بصرامة:

(ما رأيك فيما سمعت؟).

أجابه:

(نحن نعلم أن (الفتاح) قد كان أمامه خياران إما الاتجاه شرقا أو الاتجاه غربا ثم حسم رأيه واتجه لأوروبا ورفض مهادنة ملوكها على الرغم من هدنته مع ملك البوسنة التي نقضها لقد كان الوضع حينها يمهد لسلام مع أوروبا ثم حاربها وربما في هذا تفسير).

ضاقت عينا (أتاتورك) وهو يقول:

(لا أريد لأحد أن يعلم بما دار أبداً يا (عصمت) فلا أريد المزيد).

أوما الأخير برأسه وقال:

(لسنا في حاجة للحديث مع (فوزي) فهو يدرك ما عليه أنه غادر دون أن يعرض عليك فكرته بخصوص البحرية).
قال الرئيس:

(ليس الآن ليس الآن! أريد البقاء بمفردي قليلا).
غادر (اينونو) المكان في هدوءه المعهود بينما راح (أتاتورك) يتجول في الحجرة قليلا قبل أن يلتقط أنفاسه من الهواء ويعود إلى المكتب ليعاود أعماله وعقله كله مشغول بما سمع وبات يكتب بيده بينما العقل بعيد منطلق إلى تاريخ جديد كتبه هو لبلاده وحققه..
تاريخ بدأ بمعركته الأولى في طبرق وانتهى بمعركة دملو بونار ووسط هذه المعارك كان ميراث العثمانيين من سلطنة وخلافة وتقاليد صخرة تستعصي عليه حتى حقق حلمه وأزال وجودهم صانعا وطنًا للأتراك، وطن جديد وغربي وحديث..
وسط هذا وهو يخط بقلمه كان بداخله ما ينبئه بأن ما قد سمع ينفي أن التاريخ يزول فمهما أزلنا أشكال الماضي وغيرنا الحرف فالتاريخ لا يزول أبداً.

وستبقى إلى الأبد في القلوب والعقول ذكرى
العثمانيين ومعركة فتح القسطنطينية لا تزال أبدا..
والى الأبد سيظل في كل فؤاد من كل أرض ذكرى
ملحمة عظيمة أسقطت أسوار القسطنطينية..
وأخطاء فادحة تلتها..
وبين هذا وذاك يبقى بناء..
وتبقى هي...

* أيا صوفيا *

تمت بحمد الله

ملحوظات للقارئ العزيز:

١- مدينة إستانبول كانت لها مسميات عدة تدرجت عبر الأزمنة لتصل إلى مسمى (كونستانتينوبوليس) في العهد البيزنطي بينما يسميها الأتراك حتى من قبل الغزو عام ١٤٥٣ باسم إستانبول وتعني الكلمة (في المدينة) ولاحقا بعد الغزو نسب للسلطان (محمد الثاني) إطلاق اسم شعبي على المدينة هو إسلامبول وكان أول استخدام لها بهذا اللفظ بصورة رسمية في عهد السلطان (أحمد الثالث) (١٧٣٠/١٧٠٣) حين سكنت العملة التركية وحملت كلمة إسلامبول وتنوعت التسمية التركية لها بين (إستانبول) و(القسطنطينية) و(إسلامبول).

٢- القائد العسكري (زاجانوس) هو شخصية حقيقية لكن هناك اختلاف يجب تقديمه للقارئ، إن أغلب المراجع تقود إلى أنه ألباني كاثوليكي انتقل للإسلام عبر نظام الدوشيرمة الذي بمقتضاه يتم تجنيد أبناء الأسر المسيحية بالقوة وتحويلهم للإسلام بحكم كونهم عبيداً للسلطان مع عائلاتهم لكون أصولهم غير مسيحية وقت ظهور الإسلام (وثنية) مما يخرجهم من دائرة أهل الذمة ليكونوا هيكلًا للجيش أو الدولة من الناحية الإدارية ولهم ولاء واحد فقط للسلطان وليس غيره، بينما مصادر تركية تقول إنه تركي أصلاً ومسلم وليس ألبانياً كاثوليكيًا محددين اسم والده (عبد الله بك) ووالدته تركية الأصل

ولما كان هناك خلاف فقد اعتمدت الجانب الغالب من المراجع بأصله الألباني، مع بيان أن رؤية الأصل التركي ربما تكون متأثرة بالفكرة القومية التركية التي تهدف لتتريك التاريخ بأمر مصطفى كمال أتاتورك لتطبيق فكرة القومية التركية الأناضولية ثقافيًا فيما يعرف بالتتريك.

٣- ألقاب السلطان التي نالها بأمره من قيصر الروم وحامي الكنيسة الشرقية وبادنشاة هي ألقاب فعلا منحها الرجل لنفسه وكانت علامة على تبدل موقف السلطان المتواضع بعد نصر المدينة والغريب أن المراجع الإسلامية الحديثة لا تتحدث عن تلك الألقاب بالمرّة.

٤- كل شخصيات العمل حقيقية باستثناء الأندلسيين {جولياث} و{بنيامين} و{يحيى} و{صوفيا}، أما الباقيون بلا استثناء فهم شخصيات حقيقية وما مر بهم باستثناء الشئون المرتبطة بالشخصيات الخيالية أحداث حقيقية.

٥- تسمى (آيا صوفيا) في اللاتينية (سانكتا صوفيا) أو (سانكتا سابينشا) وبالتركية هي (آيا صوفيا) واسمها الحالي عالميًا هو (هاجيا صوفيا) وتعني الحكمة المقدسة، نظرًا لتعدد الأسماء واكتفاء بذكر اسم المدينة اللاتيني والتركي على لسان الشخصيات فلم أحب أن

أربك القارىء بتعدد آخر لأسماء الكاتدرائية مكتفياً بتعميم الاسم التركي لكن أورد هنا كل الأسماء حتى يكون الأمر واضحاً للقارىء العزيز.

٦- كل أحداث غزو المدينة من الأتراك بتواريخها وشخصياتها باستثناء الشخصيات التخيلية حقيقية تماماً وهي بالأرقام والتعداد سليمة بحيث يمكن الاعتماد عليها في أي موضوع يتعلق بتسلسل العمليات العسكرية حتى دخول الأتراك في ٢٩ مايو ١٤٥٣ فعلى القارىء الإنتباه لهذه النقطة التي أوردتها كما سطرتها كتب التاريخ تماماً ولم أزد أو أنتقص.

٧- للأمانة التاريخية فقد وردت بعض الكتابات التي وصفت الأمور بتوصيف يختلف عن الرواية في نقاط عدة أهمها قتل (لوكاس نوتراس) وبررتها بأن (محمد الفاتح) كان يريد ابن (لوكسا) ليقيم معه علاقة شاذة فرفض الأب فأمر الفاتح بقتله، حين راجعت الأمر وجدت روايات كهذه خاطئة لا تتفق مع سلوك وتدين (محمد الفاتح) فابتعدت عنها تماماً، كذلك واقعة دخول الجنود المدينة إذ تذكر روايات تاريخية أن السلطان قال للجنود أن يستباحوا مالها ونساءها لأنفسهم ثلاثة أيام بلا رقيب ثم عدل عن هذا لكنني كذلك وجدت صعوبة في تصديق الأمر فهو أعاد الجيش خارج الأسوار وكان تفسيري هو

انفلات الجنود مما جعله يخرجهم من المدينة مما يتعارض مع هذه الرواية التاريخية لذا تجاهلتها لبعدها هذه الأمور عن القيم السوية التي تربي عليها (محمد الفاتح).

٨- تأسست الدولة الصفوية بالعالم ١٥٠١ لذا فلا داعي لأن يتساءل القارئ عن غياب ذكرها كعدو تاريخي للدولة العثمانية حيث كما يعلم القارئ تدور الأحداث بالعامين ١٤٥٢ و ١٤٥٣ قبل تأسيسها وإبان فترة التفكك والفوضى ببلاد فارس حيث كان وقتها المتنفذون هم سلالة التيموريين فقط قبل التوحيد الصفوي.

٩- ذكرت بعض المراجع أن (جوستينياني) قد أصيب بجروح طفيفة ولكن لسقوط المدينة اضطر للهرب منها مصطنعاً وجود إصابات كثيفة به لكن اعتمدت الرواية الغالبة المتحدثة عن موته بتلك الطريقة لكون وفاته بعد الغزو مباشرة بالجزيرة اليونانية كذلك لكون أصول الاتهام تعود لإمارات إيطالية (البندقية تحديداً) في حالة عدا مع جمهورية (جنوة) مما يجعل الأمر في الواقع مشكوكاً في صدقه لكني أوردتها هنا للتوضيح خاصة مع شجاعة (جوستينياني) وتطوعه للقتال دون تكليف أو إجبار.

١٠- ذكرت مراجع عثمانية أن (قسطنطين) حاول الهرب عبر البحر ومات في قتال مع البحرية العثمانية، لكن هذه الرواية ضعيفة جداً وتتناقض مع إصرار الرجل على البقاء للحظة الأخيرة من المعركة حتى مع إصابته وتخالف شهادة الكاردينال (إيزدور) في رسائله للبابا (نيكولاس) ولوجود عداة قاتل مفهوم بين العثمانيين و(قسطنطين) ولكون المصدر الوحيد هو تركي فقد ارتأيت عدم الاهتمام بتلك الرواية بحكم ضعفها وتناقضها مع طبيعة الموقف وشهادة الآخرين.

١١- هناك رواية طريفة حول ظهور ضوء ووهج حول قبة (آيا صوفيا) في مساء الغزو بررها الناس وقتها بأرواح المقدسين والثالوث مغادرين الكاتدرائية بعد سقوطها والرواية سخيفة بحق والأغلب أن من وضعها استغل سذاجة الريفيين هناك بينما الحقيقة أن الأمر لم يزد عن خداع بصري ناتج عن انعكاس الشفق الأحمر المترتب عن بركان هائل ضرب المحيط الهادي وامتد أثره عبر سحب الرماد البركاني بالغلاف الجوي، للمزيد يرجى مراجعة:

(د.كيفين بانغ/الظواهر الطبيعية بالقرون الوسطى /

Jet Propulsion Laboratory / release-1953&1993).

- ١٢ - مراجع للقارئ العزيز ساعدتني أجزاء منها في
الجزئية التاريخية عبر ترجمة بعضها للعربية:

**A military history of the Ottomans: *
from Osman to Atatürk / Edward J.
Erickson.**

***Byzantium at War 600 – 1453 / john **
*haldon.***

**The Fall of / Steven Runciman*
Constantinople 1453**

*** دائرة المعارف البريطانية / سقوط القسطنطينية.**